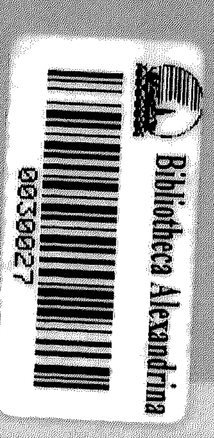
الدين والثورة
في مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

دكتور حسن حنفى

٣

الدين والنضال الوطنى



الناشر: مكتبة مدبولى، القاهرة

الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ - ١٩٨١

٣- الدين والنضال الوطني

دكتور حسن حنفي

الناشر
مكتبة مدبولي

الجذور التاريخية للغزو الصهيونى فى التراث الاسلامى

أولا : مقدمة : دوافع البحث ·

كثيرا ما يجد الانسان نفسه وقد انتابه الرعب أمام خطر داهم وعجز عن مواجهته الفعلية ، ولايجد أمامه الا الجهاد المعنوى الفكرى الكلامى ، منبها على الخطر ، ومشخصا اياه ، مبينا دوافعه ، ومحذرا الناس منه · وكثيرا ما يجد الانسان نفسه وهو يصور هذا الخطر ليس فقط فى الحاضر بل أيضا فى الماضى وفى المستقبل ، مكتشفا جذوره فى الماضى ، ومتنبئا بخططه وتطلعاته فى المستقبل · فهو قديم بقدم الزمان ، وباق ببقائه · وذلك طبيعى على المستوى النفسى الخالص ، فمن أجل التنبيه على الخطر لابد من تضخيمه · ولاجل بيان أثره على المعاصرين لابد من البحث عن جذوره فى الماضى · فهى مبالغة نفسية تخضع لقانون نفسى وان لم يكن واقعا تاريخيا صرفا على النحو الموصوف ، ومع ذلك يظل الخلاف بين الواقع النفسى والواقع التاريخى خلافا فى الدرجة وليس فى النوع · حتى ولو كانت الوقائع التاريخية أقل أو أكثر فان ذلك لا يقلل من شأن الوصف النفسى أو الباعث القومى ·

ومن هذا النوع الحديث عن الجذور التاريخية للغزو الصهيونى

(*) القى هذا البحث فى تونس ١٩٨٤ فى مؤتمر الغزو الثقافى الصهيونى للعالم العربى · وهذه الصياغة المزودة بالمراجع كتبت فى خريف ١٩٨٧ ·

فى التراث الاسلامى • فالغزو الصهيونى بالمعنى الحديث حركة استعمارية مرتبطة بتاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر ، طالما أن الصهيونية الحديثة احدى نتائجها • الصهيونية حركة سياسية ترتكز على مبررات دينية وتعبر عن حال أوربا فى القرن الماضى من قومية ورومانسية بعد أن رفضت كل القوميات الاوربية وجود أقليات منفصلة عنها ، وبعد أن كانت الروح السائدة هى الرومانسية والعودة الى الاصول والاحلام الطوباوية • صاغت الاقلية اليهودية الانفصالية فى الغرب ايديولوجية لها فى هذا الجو ، وزادت عليها المبررات الدينية التاريخية نظرا لامتدادها فى التاريخ ، وبنفس الدافع وهو الاتجاه نحو الشرق ونحو السواحل لاحتلال الارض المتاخمة لها • صحيح أن المبررات الدينية للصهيونية لها جذورها التاريخية فى يهودية التوراة ولكن ذلك لم يكن صهيونية بالمعنى السياسى الحديث بل كانت « النزعة الخاصة » Particularism التى تغلب على التراث اليهودى ، وهى النزعة التى تقوم على العرق ، والشعب ، والميثاق ، والاختيار ، والوعد ، والارض ، والدين ، واسرائيل ••• الخ • فى مقابل النزعة العامة Universalism التى تجعل الشعب اليهودى مثل باقى الشعوب ، وتركز على الايمان والعمل الصالح والطاعة والتوحيد والتى كان الاسلام آخر مراحل التعبير عنها من خلال دين ابراهيم • غلبت النزعة الاولى فى التوراة فى الزمان القديم ثم تحولت الى بمرر دينى فى الصهيونية فى العصور الحديثة • وتوارت النزعة العامة عند الانبياء • ثم غلبت فى التراث اليهودى الاسلامى ثم فى عصر التنوير الاوربى • وتوارت النزعة

الخاصــة وكادت تنقرض ، ولم تظهر الا عند بعض الاحبار الــذين أرادوا المحافظة على خصوصية التراث اليهودى الروحى(١) ٠

والغزو الثقافى الصهيــونى جزء من الغزو الثقـــافى الغــربى العــام الذى تعرضت له البــلاد ابان الحقبــة الاستعمارية ومازالت مستمرة ٠ فارتبــاط الصهيونية بالغرب ونشــأتها فيه جعلتهــــا احدى الايديولوجيات الغربيــة التى تعتمد على مبررات دينيــــة لاحدى القــوميات المنبــوذة فيها ٠ وهو موضوع جــــديد لــم يتطرق اليــه علماء الغــرب بطبيعة الحــال ٠ فالسارق لا يقــول انه كذلك ٠ وبدأ العلمــاء العــرب البحث والتنقيب فيه ، والتنبيــه على مخــاطره ، بصرف النظر عن مراحــله القديمة أو الحــديثة ٠ ويصــعب فى مثــل هــذا الموضوع التمييز بين العــلم والسياسة ، بين التاريخ الموضــوعى والالتزام القــومى ، ولكن يكفى تقـــديم خطــة بحث قــومى من أجل تحــويل هذا الموضــوع الى جــزء من المشروع القــومى العربى العــام فى التحرر والنهضة ٠

وهنــاك انمــاط عديدة للغزو الصــهيونى للتراث الاســـلامى تتوقف على طبيعــة العلاقة بين التراث اليهودى وتــراث الشعوب

---

(١) أنظر دراساتنا :

" God Comlunity and Land " ; " Theology of Land " ; Zionism as a counter liberation movement " ; " An open letter on Zionism " ; in " Religious Dialogue and Revolution, PP. 174 - 197. The Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, 1677.

القديمة والحديثة • ففى تاريخ الحضارات القديمة حدث غزو صهيونى للحضارات القديمة عن طريق النهب والسلب العلنى أو التأثر والتأثير غير المباشر • كما حدث مع الحضارة الكلدانية فى فلسطين والديانة المصرية فى مصر والحضارة الاشورية والبابلية فيما بين الرافدين • الغزو هنا لا يعنى هيمنة ثقافية من شعب غالب على ثقافات شعوب مغلوبة بل استيلاء بالقوة من شعب غالب على تراث الشعوب المغلوبة كجزء من النهب الاستعمارى وكما هو حادث الآن فى نهب الفنون الشعبية الفلسطينية وجعلها ممثلة للدولة الصهيونية المغتصبة • وهناك نمط آخر وهو ما يحدث ابان تقدم الشعوب ونشأة الحضارات ثم تسرب الاسرائيليات أى الخرافات اليهودية اليها من مواطن ضعف وكنوع من ضرب الحضارات الجديدة من الخلف • هذا الغزو هو نوع من المقاومة السرية الثقافية للحضارات الجديدة الناشئة دون وعى منها • فالمؤرخون المسلمون خاصة المفسرون هم الذين وقعوا ضحية هذا التسرب فى لحظة جمع المعلومات دون التحقق من صدقها • وهناك نمط ثالث للغزو وهو الذى اشتهر فى العصور الحديثة وهو تشويه الثقافات غير اليهودية بما فى ذلك الثقافات الاوربية ، وتغلغل الغزو الصهيونى الى مراكز الابحاث اللغوية والثقافية والحضارية من أجل الاستيلاء على ثقافات الشعوب وحضاراتها وارجاعها كلها الى الحضارة اليهودية ، دينا ولغة وثقافة • حدث ذلك فى الاستشراق الاوربى ، وفى الفلسفات والمذاهب الاوربية التى روجت للخصوصيات والنعرات القومية حتى يكون لليهودية نصيب والتى روجت للمذاهب

الدوليـــة والاشتراكية والاممية حتى يسهل لليهودية السيطرة عليها كما هو الحال فى الاشتراكية الدولية والاممية فى الغرب •

ثانيا — الغزو اليهودى للحضارات القديمة :

وقد وجدت الصهيونية الحديثة مبرراتها الدينية فى أيـديولوجية الغزو القديمـة التى تقـوم على عقـائد الارض ، والوعـد ، والميثـاق ، والاختيـار • فمن أجل أن تنتصر القبـائل العبرانيـة على غيرهـا من القبائل السـامية ومن أجل الاسـتيلاء على أرضها صـاغت السـلاح العقـائدى ، ونقلت بعض العادات اليهـودية من مسـتوى المجتمع الى مسـتوى الله • فتحول حلف القبـائل الى حلف بينهـا وبين الله ، حلف أبـدى يعطيهـا الله فيه النصر والارض والمعبـد والهيكـل فى مقـابل لاشيء • حروبها حـروب الرب ، وجيشـها جيش الرب ، وانتصـارها انتصـار الرب • ووضعت هذا العهد فى تابوت العهـد تحمـله فى الحروب وتـدافع عنـه • ونقلت طقوس العهد ، ذبح الحيوان وسـيلان الدمـاء الى سيلان دماء من نوع آخر فى طقس الختان ، علامة على الدخـول فى العهد •

وبالاضـافة الى صياغة العقـائد من العـادات السامية كسلاح ايديولوجى للعبرانيين فى حروبهم وغزوهم للقبـائل السـامية الاخرى ثم اسـتيلاء العبرانيين على عقائد القبائل السـامية الاخرى وأدبهم وادخالها ضمن العقائد العبرانية وآدابها • تكون التراث اليهودى من هذين المصدرين ولكن المصدر الثانى كان هو الغالب • أصبحت من طبيعة التراث اليهودى القائم على النزعة الخاصة غزو الحضارات المجاورة

أو تلك التى يعيش اليهود فيها عن طريق أخذ دياناتها وقوانينها • ويكون هذا الغزو الثقافى لاحقا للغزو العسكرى ، وكأن الاستيلاء على الارض يعقبه امتصاص الروح ، وتفريغها من كل مضمون خاص بها • وفى هذه الحالة يظهر أثر المغلوب فى الغالب وكأن الهزيمة العسكرية للشعوب المغلوبة تتحول الى نصر ثقافى لها بتغلغل ثقافتها فى الشعب المنتصر • وقد ظهر ذلك فى الغزو اليهودى للقبائل السامية القديمة وأثر الحضارات السامية القديمة فى تكوين العقائد اليهودية وآدابها •

وتتمثل حضارات الشرق القديم فى حضارات ما بين النهرين سواء فى العقائد أو الشرائع أو العادات أو الاعراف الاجتماعية وكما يبدو ذلك فى التشابه المشهور بين ملحمة جلجامش وبين العهد القديم ، بين سفر التكوين البابلى وسفر التكوين التوراتى وعلى ما يبدو فى ثنائيات النور والظلمة ، وخلق السماء والنور ، وخلق النبات والحيوان ، وخلق الانسان ثم سقوطه ، وعالم المخلوقات ، والراحة الالهية ، والالواح السبعة ، والايام السبعة وعلى ما هو فى « أنوما اليش » Enuma Elish • فى الملحمة البابلية يشترك الروح الالهى والمادة الكونية فى الوجود والقدم وفى سفر التكوين تخلق الروح الالهى المادة الكونية وتستقل عنها • وفى التكوين البابلى العماء الاول مغلف بالظلمات وفى سفر التكوين الارض أيضا مغطاة فى أعماقها بها • وفى كليهما يخلق النور والسماء واليابسة والانسان ثم يستريح الله فى اليوم السابع • كما تتشابه شخصيات الملحمة والسفر مثل كيريت ، وأغات ، وروفاعيم ، وحداد ، وبعل وشاشار وشاليم ، ونيكال

وكاتيرات • لقد كان لبابل والدين البابلى أثر ضخم على التراث اليهودى فى فترة تكوين التوراة • كما يوجد كثير من شريعة حمورابى فى التوراة فى مخاطبة الاله شمش للطبيعة وكلام الوهيم للانبياء(٢) •

ويمتد الغزو الثقافى اليهودى من العراق الى الشام ومن حضارة ما بين النهرين الى الحضارة الاوغاريتية Ugarite وكما وضح أخيرا فى اكتشافات « رأس شمرة » فى فينيقيا القديمة والتشابه الكامل بين ملحمة أغات وبين سفر دانيال ، وبين الشعر الاوغارينى والشعر اليهودى ، وبين الالفاظ والاشكال الادبية والعادات الاجتماعية فى الثقافتين الاوغاريتية واليهودية(٣) • ويمتد الغزو أيضا من البابليين والاشوريين الى الكنعانيين والآراميين والعرب والاثيوبيين • فبعد استيلاء يشوع على

---

(٢) Alexander Heidel : The Babylonian Genesis p. 82-140 The university of Chicago press, Chicago, 7th. ed. 1972; The same : The Gilgamesh Epic and ahe old Testament parallels; The University of Chicago Press, 8th. ed., 1971; Gerald A. Larue : Babylon and the Bible, p. 62 - 73; Baker book house, Grand Ropids, Mich. 1969.

(٣) Charles F. Pfeiffer : Ras Shamra and the Bible, pp. 36 - 39, pp. 37 - 61; Baker book house, Grand Rapids, Mich. 2d. ed. 1968; Theophile James Meek : Hebrew Origins, Harper and Row, New York, 1960; Cyrus H. Gordon : The Ancien Near East, pp. 292 - 303 Norton, New York, 1968.

أرض كنعان استولى اليهـود على حضـارة الكنعانيين ، دينـا وعقـائدا وثقافة وأدبا وفنـا • ويبدو ذلك فى المقـارنة بين أسماء آلهـة كنعان وأسماء الاله عند اليهود (٤) • كذلك ظهرت ديانة مصر القـديمة فى الدين العبرى فى التـوحيد وعبـادة العجل ومظـاهر الاحتفـالات والفنون الشـعبية فى كثير من أعمـال السـحر مثل الطاعون وعبـور البحـر الاحمر والتجليات الالهيـة(٥) • وظهرت أيضا الثقـافة العربية القديمة فى الدين اليهـودى من خلال الحروف العربية والامثال العربية والديانات العربية القديمة مثل الصابئة(٦) •

وبينمـا تجاهل الـفكر اليـونانى اليهود كليـة الا أنه تسرب اليهم عن طريق فيلـون والتفسير الرمزى للعهـد القـديم • كمـا أنه سـاهم فى صيـاغة الاخرويات اليهـودية فى رحلات الـروح

---

(٤) Jessie Penn-Lewis : The Conquest of Canaan, Barkstone 8th. ed., 1792; Manfred Weippert : The settlement of the Israelite Tribes in Palestine, Alec & Allenson, Naperville Ill., 1967; C. R. Driver : Canaanite Myths and legends, T. T. Clark, Edinburgh, 1971.

(٥) Charles F. Pfeiffer : Tell El - Amarna and the Bible, pp. 67 - 71; Baker book house, Grand Rapids, Mich., 2d., ed. 1970 Siegfried Hermann : israel in Egypt, pp. 51 - 64, Alec R. Allenson, Naperville, Ill., 1970.

د. فؤاد حسنين على : التوراة الهيروغليفية ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ)

(٦) James A. Mntgomery : Arabia and the Bible, pp. Canaanite Myths and legends, T. T. Clak, Edinburgh, 1971.

الى عالم الموتى ، وصور العالم الاخر ، والبعث وتناسخ الارواح ، وزواج الملائكة والجن ، والشياطين والمردة ، رؤساء الملائكة والحراس والرعاة(٧) •

وبالرغم من خروج المسيحية من جماعة الاسينيين كما تكشف ذلك مخطوطات « قمران » الا أن الفكر اليهودى استطاع غزو الفكر المسيحى الناشىء خاصة من البيئة اليهودية • فخرجت المسيحية اليهودية فى صراع مع المسيحية • ولما كانت اليهودية أقوى سلاحا من الوثنية ظهر الغزو اليهودى للدين الجديد من الداخل من منافذ عدة منها :

١ — دخول بولس الدين الجديد ، وهو الحبر اليهودى ، عالم عصره الذى استعمل كل ثقافته وعلمه لطمس معالم الدين الجديد ، يدفعه فى ذلك احساسه بالنقض بالنسبة للحواريين الذين رأو السيد المسيح ، ودفعا عن نفسه احساسه بالذنب بالنسبة لتعذيبه المسيحيين ، وعدائه لليهودية من أجل اقناع الناس بايمانه الصادق بالدين الجديد • فتمت مقارنة عيسى بموسى ، والكنيسة بالمحكمة اليهودية • ولم يكن هناك شىء فى الدين الجديد الا وله ما يشابهه فى الدين القديم •

---

(٧) T. Francis Glasson : Greek inflence in Jewish Eschatology, London, S. P. C. K., 1961; Cyrus H. Gordon : The Greek and Hebrew Civilizations, Norton, New York, 1962; Victor Tcherikover : Hellinistic Civilization and the Jews, Magness Press, P. 244 — 380 Philadelphia ,1966.

٢ — الاشارات المستمرة فى كتاب العهد الجديد الى العهد القديم ، ورؤية كل الاحداث الحاضرة وكأنها تحقيق لنبؤات العهد القديم من أجل اقناع البيئة اليهودية بالسيد المسيح . وبالتالى تم تهويد الحاضر من خلال الماضى ، وتنميط الحوادث طبقا لنصوص العهد القديم التى وضعوها على لسان السيد المسيح وكأنه يستشهد بها .

٣ — وضع العهد الجديد مع العهد القديم فى الكتاب المقدس وكأن العهد الجديد تحقيق للعهد القديم وختام له مما فرض على كل مؤمن أن يفهم العهد الجديد بالرجوع الى العهد القديم . ولم تنفع محاولة سلسوس Celsus فى الوقوف أمام هذا الخلط ، ولم تنجح محاولته للتمييز بين الدينين ، والتفرقة بين العهدين بعد أن تصدى له أوريجين وقضى عليه . وأصبحت الحضارة المسيحية الاوربية ازدهارا وانماء للمصدر اليهودى فيها على الرغم من العداء الدفين بين الطائفتين وصراعهما من أجل السلطة والريادة ، عنصرية عبرية فى مقابل عنصرية رومانية(٨) .

ثالثا — الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى :

لا يمكن الحديث تاريخيا عن الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى

---

(٨) Arthur A. Cohen : The myth of the Judeo - Christlan Traditian, Schocken, New York, 1971; James Parkes : The conflict of the church and the synagogne, Atheneum, New York, 1969.

لانه فى هـذه الفترة استطـاع التراث الاسـلامى أن يتمثـل اليهودية ، وأن تصـبح اليهودية أحد مظاهره • ولـما كان التراث الاسـلامى قائما على النزعة الشـاملة Universalist طبقا لـروح الاسـلام فان هذه النزعة نفسـها قد تغلبت على التراث اليهودى ، وكادت أن تختفى النزعة الخاصـة Particularist باستثنـاء بعض الاحبار الذين كانوا يمثلون النزعة المحـافظة بدعوى الحفـاظ على التراث اليهـودى • ويؤرخ لهذه الفترة علمـاء اليهود أنفسـهم ويصفونها بأنهـا كانت العصر الذهبى للتراث اليهودى الذى ظهرت فيـه الفلسفة اليهودية العقلانيـة وقواعد اللغـة العبرية المنمطـة على أسـاس من قـواعد اللغة العربية ، والتصوف اليهودى الذى اقترب من التصـوف الاسـلامى ، وأصـول الفقه اليهودى الذى تشـابه مع أصـول الفقه الاسـلامى ، والعقـائد اليهـودية التى تحدثت لاول مرة عن الذات والصفات والافعـال كما هو الحـال فى علم أصول الدين الاسلامى ، والطب اليهودى الذى كان مع الطب الاسـلامى الطب العلمى القديم •

لذلك ، بدلا من الغزو المتبـادل على النمط الاول ، سرقة اليهود لتراث الحضارات القديمـة أو غزو اليهـود للدين المسـيحى ظهر نمط اسلامى آخر يقـوم على دعامتين :

١ — ضياع العنصرية والانعزالية اليهـودية أى النزعة الخاصة Particularist العمليـة وذلك عن طريق تطهير الجزيرة العربيـة منهم ، والتفويت على دسـائسهم مثل محـاولات اغتيـال النبى ،

وتفرقة المسلمين ، وحديث الافك ، والنفاق ، ومحاربتهم حتى تنكسر شوكتهم ويصبحون مثل باقى الناس •

٢ — التأكيد على اليهودية الشاملة Universolist كما ظهرت عند الحنفاء ، دين ابراهيم واسماعيل ، ولدى اتقياء اليهود فى الجزيرة العربية الذين يعترفون بالحق • دخل من شاء منهم فى حلف المدينة ، واعتبروا فى الشريعة الاسلامية مع النصارى والمجوس من الامة الاسلامية • وقد كان شعراؤهم فى الجاهلية مثل شعراء النصارى أقرب الى الشعر العربى منهم الى التراث اليهودى • وقد تجسد ذلك كله فى كعب الاحبار الذى آمن برسالة محمد •

وقد حاول اليهود التسرب الى الدين الجديد عن طريق الدس عليه وادخال مشاكل الدين اليهودى وصوره وعقائده فى الدين الجديد فى جو من الحريات العامة وتسامح دينى عريض • وهنا يظهر النمط الثانى من الغزو عن طريق تسرب الثقافات اليهودية الى الدين الجديد وكنوع من انتقام المغلوب من الغالب على عكس النمط الاول وهو الاستيلاء من الغالب وهم اليهود على ثقافات الشعوب والقبائل السامية المغلوبة • وقد حدث هذا التسرب فى النمط الثانى بطريقتين :

١ — تشويه عقائد الدين الجديد وفى مقدمتها التوحيد الخالص أى التنزيه ، وذلك بادخال عناصر التجسيم والتشبيه فيه وأحيانا عقائد الحلول والاتحاد مما يطمس معالم الدين الجديد ويحوله الى تاريخ صرف وكما حدث فى التجارب الدينية السابقة فى

اليهودية والمسيحية . ظهر التشيع مدعوما فى بعض عقائده بعبد الله بن سبأ ووهب بن منبه تأليها لعلى وطعنا فى الاسلام مما جعل المتكلمين الاوائل يتصدون له ويدافعون عن التوحيد الصافى الخالى من كل شائبة أو شبهة .

٢ — دخول الاسرائيليات فى التفسير بأيدى المسلمين وروايات عن الاحبار وذلك من خلال مناهج التفسير عند أصحاب التفسير بالمأثور الذين اعتمدوا على النقل ، وجعلوا كل همهم جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات دون التحقق من صدق الروايات . فدخل كثير من الروايات التى دونت فيما بعد فى المشناه والمدراش والتلمود ، منها الصحيح ومنها المنحول . فالاسرائيليات ليست من غزو التراث اليهودى للتراث الاسلامى بل من عيوب منهج التفسير عند المسلمين . ولقد تصدى الفقهاء المسلمون فيما بعد لهذه الاسرائيليات ولباقى التراث اليهودى وقاموا بنقدها وبيان زيفها اتاريخى ، وأسسوا علم نقد الكتب المقدسة قبل تأسيس الغرب الحديث له . وطبقوا مناهج النقل عند المسلمين كما وضعها علماء أصول الفقه وعمموها على كل تراث دينى ، نصرانى أو يهودى(٩) .

---

(٩) ابن حزم : الرد على ابن النغريلة اليهودى ، تحقيق د. احسان عباس ، دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ابن عزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، صبيح ، القاهرة (بدون تاريخ) ، الباجى الشافعى : على التوراة ، كتاب فى نقد التوراة
=

وقد استطـاع التراث الاسلامى احتواء ما تبقى من خصوصية اليهـودية Porticularism داخل بنـائه العام • وأصبح من السهل المقـارنة بين الحـالة الخاصة والبنـاء العام Universalist والحكم عليهمـا والانتساب الى العـام دون الخاص • ففى علم أصـول الفقه رفض الفقهـاء شرع من قبلنـا باعتباره أحد مصادر الشرع سواء فى توراة موسى أو فى شريعة عيسى • فالشريعة قد تطورت • والشريعـة الاسـلامية آخر مراحلهـا فى حين أن التوحيـد لـم يتطور ، والعقيـدة واحدة منذ آدم حتى محمد • وفى علم أصـول الدين رفض العلمـاء التشبيه والتجسيم ، وتحدثوا عن اليهـودية ضمن الفرق غير الاسلامية • وتم اخضاع نصـوص التوراة للنقد التاريخى كمـا فعل ابن حزم ، وظهرت الكتابات العديدة فى الـرد على اليهـودية • وقد رفض المتكلمون قصر النبوة على اليهـود وحدهم أو قصر نبـوة محمد على العـرب وحـدهم دون سـائر الامم كمـا تفعل العيسوية منهم • كما فنـدوا انكار اليهود للنسخ دفاعا عن اليهـودية وانكـارا للاسـلام لان النسخ ثـابت فى

= اليـونانية ، تحقيق د. أحمد حجـازى السـقا ، دار الانصـار ، القـاهرة ١٩٨٠ ، ابن القيـم الجـوزية : كتـاب هداية الحيـارى فى اجـوبة اليهـود والنصارى ، المكتبة القيمة ، القاهرة (بدون تاريخ)، أبو الحسن اسـحق الصـورى (مترجم) : التـوراة السامرية ، تحقيق د. أحمد حجـازى السـقا ، دار الانصار ، القـاهرة ١٩٧١ ، الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندى : اظهار الحق ، القـاهرة (بدون تـاريخ) .

الشريعة ولان التطور واقع فيها • كما فند المسلمون آراء الباطنية والشيعة وكل الفرق التى دس اليهود فيها على الاسلام لهدمه من الداخل والتشويش على عقائده • وفى الفلسفة تمثل اخوان الصفا اليهودية ، ووضعوها فى اطار البناء العام مع كل الشرائع والديانات مادام الاسلام دين العقل ، ودين الطبيعة ، وأصبحت اليهودية احدى ديانات البشر على قدم المساواة لا تتميز على غيرها فى شىء • وفى التصوف احتوى الصوفية المسلمون كل أنواع التصوف السابقة ، اليونانى ، والهندى ، والفارسى ، واليهودى ، والمسيحى دون تمييز لواحد على الآخر • وفى العلوم الطبيعية كان الاطباء اليهود يعملون فى الدولة الاسلامية ويعالجون خلفاءها ، ويعيشون فى بلاط الامراء وينالون كل تقدير واحترام • ولقد تقلد منهم مناصب الوزارة • كانوا يهودا عقيدة ، ومسلمين ثقافة يدينون بالولاء للامة •

لم يتبق من التراث اليهودى الا النزعة الشاملة Universalist والتى ظهرت على نسق البناء الاسلامى العام والتصور الاسلامى للكون والحياة والانسان والمجتمع والتاريخ • وقد اتضح ذلك فى العصر الذهبى للتراث اليهودى خاصة فى الاندلس عندما عاشوا فى كنف المسلمين يحميهم الاسلام ويحافظ على تراثهم حتى لقد تحول البعض فيهم الى الاسلام دينا بعد أن تشبع به ثقافة ، وعاشه حضارة ، ودافعوا عن النزعة الشاملة التى تجمع اليهودية والمسيحية والاسلام ، وفندوا النزعة اليهودية الخاصة التى تنكر

المسيحية والاسلام (١٠) • ونشأ لاول مرة فى تاريخ اليهود علم الكلام اليهودى العقلانى معتمدا على الحجج والبراهين ، لا فرق بينه وبين علم الكلام الاسلامى . ومكتوبا باللغة العربية وعلى أقصى تقدير باللغة العربية بالحروف العبرية(١١) • ونشأت الفلسفة اليهودية على نسق فلسفات المسلمين عند الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد حتى أنه ليصعب التفرقة بين ابن ميمون وابن رشد ، كلاهما فى قرطبة ، يدرسان فى المعبد أو المسجد ، يتحاوران أمام جمهور واحد ، ويعمل ابن ميمون طبيبا لصلاح الدين . قاهر الصليبيين • ويعرف ابن ميمون نفسه كهوية بأنه الحكيم الفيلسوف القرطبى الاندلسى أى بالفكر العام وبالمكان وليس الحبر اليهودى(١٢) • وكان سليمان

---

(١٠) ومن هؤلاء : السموال بن يحيى بن عباس المغربى (شموئيل بن يهوذا بن أيوب) (٥٧٠ هـ) : بذل المجهود فى افحام اليهود ، مكتبة الجهاد الكبرى ، القاهرة (بدون تاريخ) ، سعد بن منصور بن كمونة (٦٨٣هـ) : تنقيح الابحاث للملل الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام ، دار الانصار ، القاهرة (بدون تاريخ) تصوير لنشرة

Moshe Perlmann univeristy of California Press, 1967.

(١١) سعيد بن يوسف الفيومى : الامانات والاعتقادات ، تحقيق لاندور ، ليدن ١٨٨٠ . موسى بن ميمون : دلالة الحائرين ، نقلها الى الحروف العربية د. حسين آتاى ، انقرة أبو البركات البغدادى : المعتبر فى علوم الحكمة ، دائر المعارف العثمانية ، حيدر أباد الركن ١٣٥٨هـ .

(١٢) انظر دراستنا

Islam and Judaism; A model From Andalusia Unesco, Paris, 1985.

بن جبرول تلميذ الفارابى ، يرد مثله على الفلسفة اليونانية ، ويقبل منها مثله ما يتفق مع العقل • ونشأ التصوف اليهودى فى اسبانيا فى مجموعة « زوهار » Zohar لا فرق فى وصفه لتجليات الروح فى الكون بينه وبين ابن عربى فى الفتوحات المكية • ونشأ الفقه اليهودى على منوال الفقه الاسلامى ، فصنف ابن ميمون الاوامر والنواهى كما فعل الاصوليون المسلمون • وظهر علم أصول الفقه اليهودى وموضوعات الاستدلال والقياس والصلة بين الاصول والفروع • وكما أصبحت « الهاجاده » جزءا من التلمود أصبحت « الحلقة » كذلك جزءا آخر منه • وبان أثر العبادات الاسلامية فى الشرائع اليهودية فى غسل الرجلين ، واغتسال المجانب ، والغاء صلاة السر ، واصلاحات الحسيدين Hassides فى الصلاة فى السجود والركوع ، واستقبال القبلة ، والاصطفاف ، وبسط اليدين(١٣) • كما نشأ النحو العبرى على منوال النحو العربى ، وساعد على ذلك أن اللغتين فرعان من لغة أم واحدة وهى اللغة السامية • عرف اليهود لاول مرة قواعد النحو والصرف وعروض الشعر ومع ذلك ظلت اللغة العربية هى لغة التأليف أو اللغة العبرية بحروف عربية ، كما ظهرت قواميس اللغة العبرية على منوال قواميس اللغة العربية • واشتغل اليهود لاول مرة بالعلوم الطبيعية والرياضية ، وظهر من بينهم العلماء والاطباء والرياضيون فى الحساب

---

(١٣) نفتالى غيدر : التأثيرات الاسلامية فى العبادة اليهودية ، ترجمة د. محمد سالم الجرح ، دار العروبة ، القاهرة ١٩٦٥ .

والهندسة والموسيقى والفلك فى اسبانيا ومصر والعراق والمغرب العربى(١٤) .

وظل الحال كذلك الى أن ضاع حكم المسلمين فى الاندلس واسترجعها النصارى فى بداية الغزو الاستعمارى الاوربى . فوقع أبشع ضطهاد للمسلمين واليهود على السواء للتحول الى النصرانية من جديد . فمن تحول الى النصرانية بقى ، ومن رفض وآثر الثبات على دينه قتل أو هرب الى الغرب . فاستقر هناك المسلمون واليهود وحملوا معهم تراثهم . وضاع التراثان الاسلامى واليهودى ابان الحكم المسيحى لاسبانيا ، وانتقلا الى المغرب لتدوينه هناك . وما أن هيمن الغرب الاستعمارى الجديد على المناطق الحضارية فى اسبانيا حتى بدأت نهضة الغرب الحديثة . وكان اليهود والمسيحيون الاسبان قد قاموا من قبل بترجمة امهات التراث الاسلامى الى اللغة اللاتينية فى الفلسفة والكلام والعلوم الرياضية والطبيعية فقامت نهضة الغرب الحديثة من الجنوب الى الشمال ، وكان نفس الشيء قد تم عبر ايطاليا وبيزنطة ونشأت فى الغرب الاتجاهات العقلانية فى الفلسفة والدين والتجريبية فى العلم والصورية فى الرياضة . وقد استغرق ذلك قرنين من الزمان ، الثانى عشر والثالث عشر . وفى القرن الرابع عشر ، عصر الاحياء ، عندما بدأت الثورة على أرسطو العربى الاسلامى

---

(١٤) A. A. Newmann : The Jews in Spain, The Jewish Publication society in America, Philadelphia, USA, 1942.

بدأت النهضـــة الحديثة أيضا بالعـــودة الى الآداب القديمـــة على حسا بالعقل النظرى القديم ، ووجـــد الوعى الاوربى فى الاساطير اليـــونانية ما لم يجده فى الفلســـفة اليونانية • وفى القرن الخامس عشر ، عصر الاصلاح الدينى ، ظهر الاسلام على نحو غـــير مباشر فى دفاع لوثر عن حرية التفســـير ، والصـــلة المباشرة بين الانسان والله ، واعتبـــار الكتاب وحده مصـــدر الايمان ، والتأكيد على حـــق القوميات ضد الهيمنة الرومانيـــة اللاتينة القديمـــة باســـم الايمان المسيحى ... الخ • وفى القرن السادس عشر ، عصر النهضـــة ، تم تطـــوير العلوم التجريبية بفضـــل انصـــار ابن رشد اللاتين والتصـــور الحتمى للطبيعة وتسخيرها لصـــالح الانسان وقـــدرة العقل على معرفة قوانينها • وفى القرن السابع عشر ، عصر العقلانية، بدأت آثـــار العقلانية الاســـلامية فظهرت العقلانية اليهودية تؤكد النزعة الشاملة Univeersalist وكما هو الحـــال عنـــد اسبينوزا وكأنه معتزلى جـــديد • وفى القرن الثامن عشر ، عصر التنـــوير ، ظهـــر التنوير اليهودى عند مندلسون وكأنه فيلســـوف اسلامى يؤكد صفة العمـــومية للتراث والشـــمول للروح الانســـانى واضعـــا حـــدا للخصوصية اليهودية والانعـــزالية فى الســـلوك • وقد توجت الثورة الفرنســـية ذلك باعـــلان وثيقـــة التحرر العام لليهـــود كمـــواطنين لهم ما لغيرهم من حقوق وواجبـــات دون ما تمييز فى دين أو عقيدة وباسم الحرية والاخاء والمساواة •

رابعا — الغزو الصهيونى الاوربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين :

نشأت الصهيونية فى القرن التاسع عشر الاوربى كرد فعل على حركة التنوير اليهودى Askala فى القرن الثامن عشر فتمركزت حول الذات ، وظهرت فيها القوميات ، وعادت الخصوصية العرقية من جديد ، وانتهت العالمية والشمول ، ووقعت فى حبائل الرومانسية والعودة الى الارحام حيث الارض الشعب والروح والتاريخ • ثم تحولت الصهيونية من الصهيونية الروحية ، مجرد حفاظ على التراث اليهودى من الاندثار ، الى الصهيونية السياسية أى تأسيس الدولة اليهودية •

فى هذه الفترة نشأ الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى عندما ضعف المسلمون بعد سقوط غرناطة فى المغرب وفساد الدولة العثمانية فى المشرق ، فانهارت دولتهم ، وضاعت شوكتهم ، وهمشوا وشرحوا وتوقفوا فى الوقت الذى بدأت الحضارة الاوربية فيه فى التقدم • ابتدأ الوعى الاوربى يتحول الى ذات تتضخم تدريجيا حتى ابتلعت ما سواها من الحضارات غير الاوربية وحولتها الى موضوع تلتهمه وتشوهه باسم الدراسة والبحث ، وتأخذ عصارتها ، ولا تترك لها الا النفايات • فى هذه العصور الاوربية الحديثة التى تعادل فترة التوقف لدينا بدأ الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى كجزء من غزو الغرب الثقافى • فقد كانت الصهيونية أحد مظاهر التراث الغربى ، تقوم على أكتافه ، وتتعلق به ، وتتسرب الى الفكر الغربى ذاته والى الحضارات غير اليهودية •

وهنا يبدو النمط الثالث للغزو الصهيونى للتراث الاسلامى . ويمتد ويتسع حتى يشمل الارض والشعب والوطن والتاريخ . يبدأ الغزو الصهيونى للثقافة الاسلامية على أوسع نطاق ، ينكر الجميل والفضل الذين كانا بالامس القريب . فانحسرت النزعة العامة ، وسادت النزعة الخاصة ، وتحول الدين اليهودى الى عنصرية عرقية تقوم على الدم ، وتنكر اليهود لاصولهم الاولى التى منها نشأت حضارتهم سواء فى الشرق القديم أو فى الشرق والغرب الاسلاميين . وأرادوا الاستئثار بفضل كل الامم وتنصيب أنفسهم معلمى البشرية جمعاء والاوصياء عليها . وفى نفس الوقت كانت الدولة العثمانية تقاوم الاستعمار غربا وشرقا فأراد الاستعمار النفاذ اليها والنيل منها عن طريق هدم الحضارة الاسلامية مصدر قوتها ، وعنصر بقائها فى التاريخ .

انتشر علم الاجناس وسيكلوجية الشعوب وطبائعها ، وظهرت النظريات العنصرية التى تجعل الاوربيين وشعوب الشمال أكثر رقيا وتقدما ، وأنقى دما ولحما من شعوب الجنوب أو الشرق فى أفريقيا وآسيا . ونشأ علم اللغة الحديث وصنفت اللغات . وظهر الفرع السامى أصلا للغات ، والعبرانية أصل السامية ، والعربية أحد فروعها . وتمت دراسة اللغة العربية كأحد فروع اللغات السامية ، وانقلب الامر على ما كان عليه أيام نشأة التراث اللغوى اليهودى فى الاندلس عندما كان فقه اللغة العربى أساس النحو العبرى الوليد . ونشأت محاولات تقويض الحضارة العربية من داخلها . فظهرت نظريات انتحال الشعر العربى حتى يتم

القضـــاء على السجل القومى للعرب • وقارن مرجـوليوث وغـيره الانتحـــال فى الشـــعر العربى والشـــعر اليونانى تعميـــة وتغطيـــة واخفـــاء للباعث الســـياسى تحت غطاء علمى تاريخى ، وأســـــوة بالانتحال فى الكتاب المقـــدس ، واحدة بواحدة • ثم ظهرت محاولات تقويض المصـــدر الاول للحضـــارة الاسلامية وهـــو القرآن عن طريق انكـــار الوحى واثبات أنه تلفيق من وتوفيق بين روايات يهـــودية ونصرانية منتحلة أو روايات صـــحيحة لم يفهمها النبى الجـــديد أو فهمها وأولها لصـــالح قبيلته • الشعر منتحل • والقرآن تجميع من روايات منتحلة وغير صحيحة أو أسىء فهمها عن عمـــد أو عن غير عمد • وكثرت الدراســـات عن اليهودية والاســـلام لاثبـــات أن الاسلام مجرد فرع لليهودية فى الجزيرة العربية ، وأن النبى قـــد استقى معلوماته من اليهـــودية والنصرانية خلال اسفاره من الاحبار والكهنة ، وأن قصص الانبيـــاء ، والشريعة ، والعبادات ، والاخلاق ، والعـــادات كلها مستقاة من اليهـــود فى الجزيرة العربية حتى لم يعد للمســـلمين شىء يذكر • أصبح الفرع وهو اليهودية مصدرا للفـــرع الآخر وهو الاسلام ، وتحول الفرع الاول الى أصل ، ونسى الاصل السامى المشترك(١٥) • ثم ظهـــرت محاولات لاعـــادة كتابة تـــاريخ الحضـــارة الاسلامية من منظـــور يهودى صهيونى فخرجت « دائرة

---

(١٥)

Abraham Geiger : Judaism and Islam, KTAV, New York 1970. A. I. Katsh : Judaism in Islam, New York, 1954; Ch. C. Torry : The lewish foundation of Islam, KTAV, New York, 1967; S. D. Goitein : Jews and Arabs; Their contacts through the ages, Schocken, New York, 1970.

المعارف اليهودية » التى تظهر فيها الحضـــارة الاسلامية كأحد روافد التراث اليهــودى فانقلب الاصـــل فرعا ، والفرع أصلا • ثم ظهر الاستشراق وســيطرت العناصر الصهيــونية عليه من أجل تفــريغ الحضارة الاسلامية من ابداعها وماهيتها ووحدتها العضوية ونشأتها من مركز واحد عن طريق المناهج التحليلية والتاريخية والاسقاطيــة ومناهج الاثر والتأثر(١٦) •

وظهرت الصهيونية على نحــو مباشر عن طريق تسللها الى معظم الحركات الاوربية الحديثة لاحتوائها والسيطرة عليها • فالماســونية قد بدأت منذ القرن الماضى تعبر عن مثل جديدة لاعادة بنــاء الروح الانسانية الشــاملة باسم وحدة الانسانية واستقلال الروح• وكان الغرض منهــا القضــاء على القوميات حتى يمكن باسم الانســانية الشاملة القضــاء على ما ينقص اليهــود كأقليات فى قوميات غالبــة وفى نفس الوقت تتمسك اليهود بقوميتها الخاصـــة • فالكيل هنــــا بمكيالين ، الانســـانية للغير ، والقومية للانا ، الاخـــوة والتســـامح للغير والتعصب والعدوان للانا ، السلام والوئــام والمحبــة للغير ، والحرب والضغينة والكراهية للانا • والاشتراكية التى أرادت تحرير الطبقة العــاملة وتأسيس مجتمعات بلا طبقات تســـودها الحــرية والعدالة الاجتماعية سيطرت عليها الصــهيونية أيضا حتى يكون لهـــا اليد الطولى فى العــالم ودون أن تتخلى عن رأســـماليتها • وهنـــا

---

(١٦) انظر كتابنا ، التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، ص ٧٥ — ١٠٨ ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ .

يبدو نفس المنطق المزدوج . الاشتراكية للاخر والرأسمالية للانا . الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية للاخر والاستغلال والتسلط وسيطرة رأس المال للانا • والعلمانية التى أرادت فصل الدين عن الدولة من أجل أن يكون الدين لله والوطن للجميع ، وعدم تدخل الدولة فى شؤون الدين أو الدين فى شؤون الدولة دفاعا عن حرية الاديان وتأسيسا للحق الطبيعى للافراد والشعوب تسربت الصهيونية من خلالها من أجل تأسيس الدولة على الدين حتى يسهل بعد ذلك السيطرة على الدولة وتبرير وجودها باسم الدين • وهو نفس المقياس المزدوج • العلمانية للاخر والدينية للانا • أما المذهب الانسانى الذى نشأ فى الغرب منذ عصر النهضة دفاعا عن الانسان فى مواجهة طغيان الكنيسة والدولة فقد تسربت اليه الصهيونية كذلك من أجل جعل اليهودى وحده هو نموذج الانسان والذى له حق الحياة والبقاء « ذلك أنهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل » (٣ : ٥٧)(١٧) •

---

(١٧) لمزيد من التفصيلات عن الايديولوجية الصهيونية وتسللها الى الحركات الحديثة انظر

A. Hertzberg : The Zionistic Idia, Atheneum, New York; 1971.

محمد خليفة التونسى (مترجم) : الخطر اليهودى ، بروتوكولات حكماء صهيون ، دار الكتاب العربى ، بيروت . روجيه جارودى : اسرائيل ، الصهيونية السياسية ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣ . د. عبد الوهاب المسيرى : الايديولوجية الصهيونية ، دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ د. عبد الوهاب المسيرى : اليهودية والصهيونية واسرائيل ، دراسات فى انتشار

=

وقد ظهرت حركات جـديدة فى القرن العشرين حاولت الصهيونية أيضا السيطرة عليها وأمكن لهـا ذلك بسـهولة لان البعض نشـأ بتشـجيع منها من أجل خدمة أهدافها • ومن ذلـك البهائية وتحويل الاسلام الى حركة صـوفية اشراقية بعيدا عن الارض لا جهـاد فيها لاعـداء أو لنصرة الشـعوب • لا تعتمد على العقل ولا ترتبط بالواقع • وأصبح معبدها الرئيسى فى حيفا • تعلن نهاية الصراع بين الاديان أى بين الاسـلام واليهودية ، وتحرف القرآن ، وتحـذف منه كل الآيات التى تحتوى على نقد لبنى اسرائيل سـواء لتحريفهم التـوراة أو لتشويههم العقـائد أو لعصيانهم أوامر الله • كمـا ظهرت نظريات العقل العربى لتستأنف النظريات العنصرية القديمة • فهنـاك منهج عربى فى التفكير وأسـلوب عربى فى الحياة له سمات خاصـة فى مقـابل منهج التفكير اليهـودى وأسـلوب الحيـاة اليهودى • والفرق بينهـا هو الفرق بين التخلف والتقـدم ، بين الجهل والعلم ، بين الهـزيمة والنصر ، بين الفنـاء والبقـاء(١٨) •

وانحسـار الرؤية الصهيونية للواقع ، المؤسسـة العربية للدراسـات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥ د. اسعد مرزوق : التلمود والصـهيونية ، منظمة التحرير الفلسطينية مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٠ ، د. محمد ربيع : أزمة الفكر الصهيونى مع دراسـة جديدة حول موقع العقيدة من الفكر الصهيونى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩، الصهيونية والعنصرية ، ابحـاث المؤتمر الفكرى حول الصهيونية ، بغداد ١٩٧٦ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٧ •

(١٨) وذلك مثل Philipp Petai : The Arab mind.

ولسـوء الحظ يستعمل بعض المفكرين المتقدمين العرب المعاصرين نفس التعبير « العقل العربى » •

وتمت سرقة الفن العـربى وأسـاليب الحياة العـربية وعزوها الى اليهود ، وأصبح « الارابيسك » يهوديا ، والموسيقى العربية يهودية ، والخيمة والنخـلة والعقـال والناى والصحراء والابل كلها يهودية مع أن اليهـود عاشوا فى الطـراز المعمـارى العربى وكما يبـدو لامر من المعبد اليهودى الذى كان يدرس فيه موسى بن ميمـون فى قرطبة . وظهر الاستشراق فى دفعة جديدة من داخل اسرائيل عن طريق ترجمـة الادب العربى الحـديث والفكر العربى الحـديث ، ودراسـة التراث العربى الاسلامى ، واصـدار المجلات الثقـافية المتخصصـة للرواية والشعر والنقد ، ونشر النصـوص القديمـة ، واعادة فهرسة المعاجم العربية القديمة ، ونشرها نشرا علميا حديثـا تسهيلا على الباحثين وكبديل عن جهد العلمـاء العرب والنـاشرين العرب . كمـا سيطرت الصهيونية على كثير من مراكز بحوث الشرق الاوسط فى الغرب ، وروجت لبعض الموضـوعات لتشويه الثقـافة العربية الاسلامية دفـاعا عن اسرائيل مثل « الجنس واللون » فى الاسـلام ، والرق فى الاسـلام ، وصـلة الاسـلام بافريقيـا حتى لا يقال عن الصهيونية وحدها أنها حركة عنصرية وبالتالى يتم التشريع للتعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا(١٩) .

ثم حاول الغزو الصهيونى الاتجـاه نحو العقل العربى الحديث بعد التطبيع حتى يمكنـه القضـاء على المنـاعة العربيـة ضـد

---

(١٩) انظر مثلا Bernard Lewis : Race and coulor in Islam

الصهيونية والتى بدأناها منذ عدة أجيال وحتى يمكنه تصدير الصهيونية الى العالم العربى ثم من خلاله الى أفريقيا وآسيا والى العالم الثالث كله بعد أن كان العالم العربى قلب تحرره ، ومركز قيادته . فالصهيونية كانت حركة تحرير للشعب اليهودى كما أن القومية العربية حركة تحرر للشعب العربى . كلاهما قوميتان شرعيتان ، وحركتان تاريخيتان ؛ والصهيونية ، كما تدعى ، نموذج للتحديث : زراعة الصحراء ، انشاء المدن الجديدة ، التصنيع ، التدريب ، الاخذ بأساليب العلم الحديث ، الابحاث النووية . اذن يمكن صياغة مشروع واحد بين القوميتين يجمع بين العبقرية اليهودية والمال النفطى والعمالة العربية ؛ وذلك يتطلب السلام مع الجيران ، ووقف العداء ، وانهاء حالة الحرب ، وقبول الجسم الغريب ، واعلان الاستسلام ، والتكفير عن الذنوب السابقة . كما يتطلب أيضا الزيارات المتبادلة لاحداث الصدمات الحضارية اللازمة لدى الزوار العرب حين المقارنة بين تقدمهم وتخلفنا . كما يقتضى ذلك انشاء مراكز أبحاث اسرائيلية داخل الوطن العربى لتعويد الطلاب العرب على البحث وابعادهم عن مراكز أبحاثهم الوطنية توجيها للعقل العربى وامتصاصا لقدراته فى جمع مادة عن التراث الوطنى والتكوين الشعبى ومزاج الامة حتى يسهل قيادتها والسيطرة عليها . وما أكثر التسهيلات التى تقدمها الصهيونية لذلك مثل المنح الدراسية ، وتبادل المعلومات ، والاساتذة الزائرين ،

---

(٢٠) انظر بحثنا : مخاطر السلام ، الدين والثورة فى مصر ، الجزء الثالث ، الدين والنضال الوطنى ، مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

والقيام بمشاريع البحث المشتركة المباشرة أو من خلال مراكز البحوث الامريكية بالمنطقة . والهدف من ذلك كله هو تحويل المنطقة الى دويلات طائفية صغيرة متناحرة تكون اسرائيل فى وسطها الدولة اليهودية الكبرى . وبالتالى تعطى الشرعية لوجودها فى مواجهة أى مشروع آخر يقدمه الميثاق الوطنى الفلسطينى . مثل مشروع تكوين دولة علمانية يتعايش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون ، بصرف النظر عن العقيدة أو العرف أو الثقافة .

والاسوء من ذلك كله أن يمهد لهذا الغزو من بعض الاقلام العربية التى كانت تبرز بعض الانظمة العربية اتى استسلمت للغزو الصهيونى ، وأنهت مقاومتها ، والقت السلاح ، وذلك عن طريق الترويج لمجمع للاديان فى سيناء فوق جبل الطور حتى يجتمع فيه اليهود والمسيحيون والمسلمون ليصلون من أجل السلام أو ليحفظ فيه أحد القادة بكنوز الدير المجاور تمهيدا للاستيلاء عليه أو لتهريبه الى الخارج ! فاليهود أولاد العم وليسوا غرباء عنا . بيننا وبينهم مجرد حاجز نفسى وليس صراعا قوميا على أرض وطن وتضحية شعب .

وتسهل مقاومة هذا الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى كمقدمة لتأكيد غزوه للتراث الوطنى وتشريعه عن طريق اللجوء الى هذا التراث ذاته واستمداد عناصر المقاومة منه . ففى القرآن الكريم ، مصدر هذا التراث ومنبعه الاول . لا يجوز الصلح مع بنى اسرائيل . يكفرون بالحق اذا عرفوه أو يكتمونه ويكذبونه ويبدلونه ويحرفونه أو يؤمنون بالبعض دون البعض الآخر وفقا للهوى أو يجهلونه كلية . اذا عرفوه فانهم يعصونه أو يؤمنون به ايمانا غير

جاد . يعيشون فى مجتمع مغلق يقوم على الهوى والمصلحة . يصدون عن الحق ، يغالون فى الدين وينافقون فيه . تسيطر عليهم الانانية وحب الدنيا ويأكل الاحبار أموال الناس بالباطل ، ويعتدون على غيرهم من الشعوب . يجحدون بالنعم مثل النبوة والخلاص والمغفرة . ينقضون الميثاق فلا عهد لهم . ومن ثم تستحيل المصالحة معهم باستثناء البقية الصالحة التى رفضت الصهيونية كعنصرية وأبقت على اليهودية كدين شامل كما حاول المصلحون وفلاسفة التنوير(٢١) . فالثقافة الوطنية خير ركيزة يقوم عليها الصمود أمام الغزو الصهيونى لروح الامة . وانها لمسؤولية كل المثقفين العرب وكل المسلمين المستنيرين حماية وجدان الامة وثقافتها القومية بهذا الدرع الواقى وأمام هذا الغزو . واذا كان النضال الوطنى فى تاريخ الشعوب فى مد وجزر ، وكان المد قد وصل الى حده الاقصى فى الصلح فان الجزر قد يبدأ من جديد اعتمادا على الثقافة القومية .

---

(٢١) انظر دارستنا : « هل يجوز شرعا الصلح مع بنى اسرائيل ؟ » فى اليسار الاسلامى ، ص ٩٦ — ١٢٧ ، القاهرة ، ١٩٨١ ، وأيضا فى هذا الجزء .

هل يجوز شرعاً الصلح مع بنى إسرائيل ؟

أولا : مقدمة :

فى هـذا العصر الذى تعيش فيـه أجيالنا افترقت فيـه الامة الى فريقين : الاول يريد الصلح مع بنى اسرائيل والاعتراف بالدولة التى اقامها الصهاينة منهـم ، والثانى يرفض الصـلح معهم وعدم الاعتراف بدولتهم • ونحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر •

ونحن نحاول من جانبنا المساهمة فى حل هذا الخلاف الذى أضاع وحدة الامة وذهب بشوكتها • نحاول ذلك من موقف شرعى خالص ، مستنبط من رأى كتاب الله فى بنى اسرائيل دون الاعتماد على مصلحة فئة أو قوم دفاعا عن نظام سياسى أو رفضا لنظام آخر • وبالتالى يمكننا أن نعزم الامر ونحسم الخلاف دون تدخل الاهواء والاغراض والمصـالح « فلا وربك لا يؤمنـون حتى يحكموك فيما شجـر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » (٤ : ٦٥)، ومن موقف فقهى خالص لا شأن له بالجبهتين المتصارعتين ، فعسى الله أن يهديهما معا الى الحق ومصالح الامة • وتلك سنة الفقهاء ، حماة الشرع ، والمدافعون عن مصالح المسلمين ، منذ تصديهم للغزوات الصليبية وندائهم للجهاد •

وهو أيضا حديث الامـة العربية التى تضع مقاديرهـا الآن على

أكفها ، والتى تمر بمرحلة حاسمة من تاريخها قد تشطرهـا شطرين الى الابد — لا قدر الله — وتكون أشبه بالامة الالمانية أو الكورية ، فى وقت مازالت فيه أطراف الامة فى الفلبين جنوبا وأفغانستان شرقـا معرضة للتآكل أو الانحسـار • وقد تخبو الامة — لا قدر الله — ولا يقوم لها قائمة بعد ذلك اذا ما استشرى الداء فى روح الامة ، وتخلت عن الجهاد الذى هو فريضة على المسلمين ، على كل مسـلم أن ينويه مرة فى حيـاته كالحج تماما انلم يكن أبـدى وأهم(١) • فالحرمان الشريفان فى مأمن ولكن المسجد الاقصى وأراضى المسلمين فى فلسطين فى خطر • والقرآن هو تراث الامة ، ومصدر فكرهـا ، وأساس شرعها ، ومحرك جماهيرها ، ومحى قلوبها • وان لم يكن حتى الآن ملهم قادتها ، ومرشد القائمين عليهـا ، والمسؤولين على ولاية أمورهـا •

وهو أيضا حديث مصر ، تلك التى ذكرها الله فى القرآن والتى وصفها الحديث بأن جندها خير أجناد والارض ، وبأن شعبها فى رباط الى يوم القيـامة حتى لا تأثم مصر ، وهى كنز الاسـلام ، وكعبة المسلمين ، وشقيقة العرب الكبرى ، ومفرق الشرق ، وحتى تتحمل مصر مسئولياتها الاسلامية ورسالتها العربية ، وشخصيتها القومية ، وتبعاتها التـاريخية(٢) •

---

(١) أنظر مقالنا : مخاطر السلام ، قضايا عربية ، مارس ١٩٨٠ .

(٢) عمر بن محمد بن يوسف الكندى ، فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم أحمد العدوى ، على محمد عمر ، مكتبة وهبه ، القاهرة ١٩٧١ .

ويهمنا أولا توضيح الحقائق الآتية منعا لاى اشتباه أو التباس .

١ — ان قيل ان بنى اسرائيل الذين وصفهم الله فى القرآن غير بنى اسرائيل فى دولة اسرائيل . فقد اندثر الاوائل وتاهوا فى الارض ، والاواخر مجموعة من الهجرات الاوربية البيضاء فى أوج المد الاستعمارى الاوربى فى القرن الماضى لا صلة لهم بالاوائل . واليهود الشرقيون عرب خلص تجمعهم وباقى الاعراب من مسلمين ومسيحيين عادات العرب وتقاليدهم ولغتهم ودياناتهم الشعبية ، قلنا ان ذلك صحيح تاريخيا وعلميا لا جدال فى ذلك . فكرة نقاء الشعب وبقائه فى التاريخ واستمرار هويته فكرة عنصرية صرفة وهى احدى أشكال العنصرية الغربية الدفينة . ومع ذلك فان حجة اسرائيل الكبرى هى أنها سليل بنى اسرائيل ، العبرانيين القدماء ، وأن دولة اسرائيل حاليا هى تجميع لشتات بنى اسرائيل القدماء . وسواء كان ذلك الادعاء حقا أم باطلا فانه فى كلتا الحالتين واقع سياسى ، يدعم دولة اسرائيل ، وتربى اجيالها عليه ، وتستقطب الرأى العام حوله . وقد ضاعت أراضى المسلمين بسبب هذا الادعاء وعدم مقابلته من جانب المسلمين بتوضيح زيفه وبطلانه وايضاح الحقائق وصياغة نظرية مقابلة ، وان كانت مازالت مطمورة فى صدور المسلمين .

٢ — لا يعنى التوحيد بين بنى اسرائيل فى القرآن ، واسرائيل الجاثمة على صدورنا فى أرض فلسطين استمرارية فى النسل ، وأن اسرائيل اليوم هى من لحم ودم بنى اسرائيل . فذاك ما ينفيه علماء الاجناس نظرا لتداخل الشعوب وتزاوجها . وبالرغم من انعزالية بنى اسرائيل التى تقترب من العنصرية والتى تجعلها أقرب الى الحرص

على بعض الخصائص الثابتة المتوارثة نفسيا واجتماعيا الا أن التماثل القائم بين بنى اسرائيل التى وصفها الله فى القرآن واسرائيل الحالية هو تماثل فى السلوك وفى المفاهيم وفى النظرة للعالم وفى رؤيتهم لباقى الشعوب وفى طريقتهم فى التعامل معها • فهى وحدة معنوية وان لم تكن وحدة جنسية عرقية •

٣ — ان وصف القـرآن لبنى اسرائيل يطابق سلوكهم اليـوم وادعاءهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله دخل معهم فى ميثاق أبدى، يعطيهم كل شيء ولا يطالب منهم شيئا حتى الطاعة لم يطلبها منهم ، ووعدهم بالارض والنسل والغنم والنصر ، فهو رب الجنود ، وجيشهم جيش الله ، ولغيرهم الاستئصال والغرم والهزيمة والاستعباد • ثم ان سلوك بنى اسرائيل لم يتغير فى التاريخ القديم أو الحديث وان تغيرت أساليبه وطرقه ، وهو ما تعتز به اسرائيل وما يؤديه سلوكها طبقـا لوصف القرآن له • فالهوية هنا ليست تاريخية بل سلوكية وليست بيولوجية بل أخلاقية • وقد ينطبق على اسرائيل وعلى أى شعب يتسم بهذه الخصائص السلوكية والتى يشارك فيها أحيانا الغرب المسيحى كله بعنصريته وعنجهيته •

٤ — لا يعنى ذلك الوقوع فى أى دعوة للمعاداة للسامية باصدار أحكام عامة وشاملة على بنى اسرائيل ووصف خصائص ثابتة لهم بل يعنى حكما شرعيا طالما أن سلوك بنى اسرائيل قائم على ما هو عليه • لذلك جاءت معظم هذه الاوصاف فى السور والآيات المدنية عند تأسيس الدولة ووصف سلوك الجماعات والافراد كمواطنين فى الدولة حرصا على أمنها وسلامتها • ولا ينطبق الحكم على من يغير سلوكه وموقفه

كما فعل أنبياء بنى اسرائيل والمسيح وأتقياء اليهود مثل أهل الكهف ، وكل من يرفض ادعاءات بنى اسرائيل فى الاختيار الالهى مثل المصلحين اليهود وفى عصر التنوير ، ويكون جزاؤه القتل والتشريد والتعذيب منهم(٣) • ونحن قادرون على الوقوف أمام علماء بنى اسرائيل ، الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان ، معتمدين على كتبهم المقدسة وتراثهم الدينى وأبحاث علمائهم ونتائج دراساتهم • ولكننا لم نشأ الاعتماد على ذلك هنا نظرا لاننا نكتب لجماهير الامة لاسلامية معتمدين على تراثها وكتابها الذى مازال لديهم مصدرا للفهم والتصديق •

٥ — لا يعنى ذلك دعوة الى الحرب ، فذاك متروك لجيوش المسلمين ، وحكام العرب ، وقادة الامة • انما الهدف هو الحرص على وعى الامة ، وعلى شرعية نظرتها للعالم ، وعدم تزييف وعينا القومى سواء فى الحاضر أو فى المستقبل • ليست الخطورة فى أن تهزم الامة عسكريا ولكن الخطورة فى أن يضيع وعيها ، وأن تصيب الهزيمة روحها(٤) • والعلماء ورثة الانبياء ، وأعوذ بالله من علم لا ينفع ، والساكت عن الحق شيطان أخرس • مهمتنا مهمة فقهاء المسلمين فى الدفاع عن مصالح الامة ، والحرص على روحها ، والدفاع عن براءة وحيها • فلسنا فقهاء السلطان ، أو فقهاء الحيض والنفاس(٥) •

---

(٣) أنظر مقدمتنا وترجمتنا لسبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسية ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٧ •

(٤) أنظر مقالنا : اجهاض العقول ، الفكر المعاصر ، العدد الثانى ، القاهرة ١٩٨٠ • وأيضا الجزء الاول : الدين والثقافة الوطنية •

(٥) الامام الخمينى : جهاد النفس أو الجهاد الاكبر ، اعداد وتقديم د. حسن حنفى • القاهرة ١٩٨٠ •

مهمتنا التصـــدى لقضايا الامة المصـــرية وعلى رأسها الاســـتعمار والصهيونية والتخلف الاجتماعى والقهر السياسى •

٦ — مهمتنا هو ايجاد الصورة الاخرى لبنى اسرائيل بعـــد أن حاولت أجهزة الاعلام تغييرها ، وأصبح بنو اسرائيل نموذج التحديث لمجتمعاتنـــا فى زرعهم للصحـــارى ، وتشـــييدهم للمستعمرات والمدن الجديدة ، وتأسيسهم للصناعات ، وعلمهم وثقافتهم وخبرتهم وقدرتهم وعبقريتهم • بل ويتعدى الامر الى وصف شرفهم وأمانتهم واخلاصهم ووفائهم وصدقهم وكرمهم وشجاعتهم وعفتهم • وحاول البعض منـــا حتى تغيير صورة اليهودى فى التاريخ بأنه لم يعد ذلك الاحدب الظهر ، المتوس الانف ، الاخنف الصوت ، الاعمش العين ، المرابى العجوز ، شيلوك الادباء ، بل انسان معتدل القامة ، حسن المظهر والصوت ، انسان مثل باقى البشر ، دمث الاخلاق ، يعرف معنى الحب والوفاء • واستمرت أجهزة الاعلام فى مدح القدس الموحدة والخدمات الجديدة فى القدس الشرقية من نظافة وطرق ومياه وكهرباء فى حين كان العرب يتبولون على حوائط القدس القديمة ؛ فى مواجهة هذا الاعـــلام تهدف هـــذه الدراسة الى اعطاء صورة بنى اسرائيل فى القرآن الكريم حتى تعرف الامة أى الصورتين أصدق — والحق أحق أن يتبع •

٧ — ولم استعمل الحديث الشريف تأييدا للقرآن حتى لا يعترض أحد الادعياء برواية الحديث ، وســـنده ، ودرجة صحته ، وتضـــيع القضية فى مماحكات العنعنة ؛ هذا بالاضافة الى أنه لا يوجد شىء فى الحديث لا يوجد أصله فى القرآن • والاعتماد على القرآن وحده هو الرجوع الى الاصل أولا وهو أوعى وأشمل وأكمل • أو أن يفسر أحد

وقائع التاريخ النبوى وأقواله بصراعه مع اليهود وتحويل الاحكام العامة الى ظروف ومناسبات طارئة خاضعة لمجريات الاحداث وتقلبات الزمن • كما لم أشأ الاشارة الى وقائع التاريخ سواء فى حياة النبى أو الصحابة أو فيما بعد • فالوقائع لابد أن تكون شاملة غير منتقاه سلفا بناء على غاية المؤرخ وهدفه • كما أنها تخضع للتفسير والتأويل • وقد يأتى من هو أعلم منا بالتاريخ وبالتالى تصعب مجاراته فى كثير مما يختار • وكثيرا ما يختار المؤرخ وقائع دون أخرى أو يؤول الوقائع على هواه • والتاريخ فى نهاية الامر لا يكون حكما شرعيا ، فلا يمكن الانتقال من الفرع الى الاصل ، أو من الواقع الى الفكر • والتاريخ أيضا مد وجزر وان كان اليهود قد عرفوا عصرهم الذهبى فى الاندلس أيام الحكم العربى الاسلامى ولم يعانوا من الاضطهاد الا فى الغرب من مسيحيى الغرب وان كان العرب الآن هم الذين يدفعون الثمن •

٨ — ولا يهمنا فى تفسير الآيات القرآنية الرجوع الى الوقائع التاريخية المحددة والتى كانت وراء أسباب النزول • فذلك يهدف الى ضبط معنى الآيات • ولكن الذى يهمنا هو تقييم هذه المعانى والاحكام والاوصاف مادامت الوقائع متكررة على ما يحدث فى القياس عند علماء أصول الفقه • مهمتنا قراءة أحوال المسلمين المعاصرة فى النصوص ورؤيتهم مآسيهم فيها • وليس صدق التفسير فى نهاية الامر هو مطابقة مضمون النص للواقع التاريخى المحدد فى الحوادث التى نشأت فى عهد الرسول ، وقت نزول القرآن ، بل فى الواقع الحى المتكرر والدائم فى حياة المسلمين • وبالتالى ، تجد الامة نفسها فى القرآن ، ويكون القرآن معبرا عن وضع الامة فى التاريخ • ليس المطلوب اذن أن يقول المتعالمون ان هذه الآية فى وصف بنى اسرائيل

لا تعنى ما آرمى اليه بل تعنى شيئا آخر تاريخيا محددا فان عزل النص عن واقع المسلمين وحبس طاقاته الكامنة التى يمكن أن يولدها فى نفوسهم لهو خوف وجبن وتميع وحرص على الدنيا يأبى فقهاء المسلمين من الوقوع فيه .

٩ — فان قيل : ان مقاومة الصهيونية والصراع مع اسرائيل أقوى وأعتى من أن تتم المواجهة معه عن طريق بيان أوصاف بنى اسرائيل فى القرآن حتى بعد تعميمها واطلاقها على سلوك اسرائيل ، قادة وشعبا . فالصهيونية حركة سياسية عنصرية توسعية استيطانية قامت فى القرن الماضى وقت نشأة الحركات القومية والنزعات الرومانسية وبالتالى لا يمكن مقاومتها الا بحركات سياسية مشابهة ، حركات تحرر ومناهضة للاستعمار ، وكما قامت على العدوان فانها لا ترد الا بالقوة . وهذا صحيح علميا وتاريخيا أمام مجامع العلماء والرأى العام المستنير . لا ينكره الا مكابر أو صاحب هوى . ولكن الذى يهمنا هو الحرص على الوعى القومى لشعوبنا الاسلامية ، وتقوية مناعتها ضد تسرب الصهيونية الى أعماقها بعد أن ظهروا فى أجهزة الاعلام على أنهم أولاد العم ، الاصدقاء الذين يفون بوعودهم ، وبعد أن أصبحت عند البعض منا بعد أن تم تزييف وعيهم القومى ، نموذجا للتحديث فى زراعة الصحراء ، وصناعة الماس ، وتربية الكتاكيت . أما أسباب قوتهم الاخرى من عقائد وتضحية وتجنيد للجماهير فهى غائبة عنا . مهمتنا اذن شحذ وعينا القومى واستعمال الوحى كحصن حصين لنا ضد مخاطر الصهيونية والاعتراف بها والتعامل معها ، وغض النظر عن أطماعها بدعوى ضعف الحيلة والمهادنة المؤقتة .

١٠ — وهذا نداء الى علماء الامة الاسلامية وفقهائها للتكاتف

والاتحاد من أجل الوصول الى حكم شرعى واحد • فقد أخطىء وأصيب • فان أخطأت فأرجو تصويبى ، وان أصبت فأرجو تكاتف الجميع من أجل حماية وعى الامة والحرص على روحها وتاريخها ووحيها • فهى مسئولية أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ ، وقضية ليست حكرا لاحد لانه موضوع يعم به البلوى ويمس كل مسلم ، وتتشرد بسببه الملايين • وحتى لا تأتى أجيال بعدنا ، تكون ضحية للصهيونية وتوسعها وأطماعها وانتشارها كنموذج للتحديث لمجتمعاتنا ، ونتحول نحن الى حضارات متحفية فى تاريخ البشرية ثم تتساءل : أين كان علماء المسلمين وفقهاء الامة ؟

ثانيا : الكفر بالحق :

يتناول القرآن بنى اسرائيل ، وهو اللقب الغالب كما يتناول اليهود وهو الاستعمال الاقل كما يشير اليهم ضمن أهل الكتاب ، ويصفهم بصفات دائمة أقرب الى الطبيعة والجبلة بعد أن تكررت أفعال الكفر والنفاق والعصيان •

وأول صفة لبنى اسرائيل هو الكفر بالحق وتجاهله وعدم الاعتراف به والتسليم والاذعان له • فهم شعب لا يعترفون بأية حقوق ، وبالتالى لا يسلمون بأية حقوق • ومن ثم يكون انتظار اسرائيل أن تسلم فى يوم من الايام بحقوق شعب فلسطين هو انتظار سيطول الى يوم القيامة •

فأول مظاهر الكفر بالحق هو الكفر بأنبيائهم وعدم تصديقهم لهم

مع أن الحق الذى يأتى به الانبياء ، حق مطلق من الله ، ليدعو الى التصديق المباشر والاذعان التام .

فهم أولا لا يصدقون أنبياءهم ولا يؤمنون بهم « ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (٣ : ١١٠) . عصوا كل الانبياء نوح وابراهيم وموسى وعيسى وصالحا . فلقد أمرهم صالح بترك الناقة دون عقرها ولكنهم عقروها . (١١ : ٦٤ — ٦٥) ويركز القرآن على عصيانهم الانبياء الاربعة الكبار .

لقد أنذرهم نوح قبل أن يحل بهم العذاب (٧١ : ١ — ٢٨) . وأمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته من أجل أن يغفر الله لهم ويطيل عمرهم ولكنهم لم يسمعوا دعواه . بل كلما دعاهم نفروا منه وهربوا ووضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا ، واستكبروا . دعاهم نوح سرا وعلانيـة ، ووعدهم بكل النعم المادية والمعنوية ، الاموال والبنين والجنات التى تجرى من تحتها الانهار . كما وعدهم المغفرة . دعاهم نوح الى النظر فى حال الدنيا وما فيها من تغير وتطور ولكنهم عصـوا ، واتبعـوا البـاطل ، ومكروا وتشـبثوا بآلهتهم ، وخدعوا الناس وظلموهم . وكان عقابهم الغرق بعد أن دعا نوح الله ليدمرهم كلية واستئصالهم من على وجه الارض . حتى امرأة نوح وامرأة لوط قد خانتـا وكأن الانبياء وحدهم منبنى اسرائيـل هم الاتقياء . « كذبت قبلهم قـوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنـون وازدجر . فدعى ربه انى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمـر قد قـدر » (٥٤ : ٩ — ١٢) .

كذب بنو اسرائيل نوحا (٥٠ : ١٢) ، وقالوا عنه أنه مجنون فنصره الله عليهم . قوم نوح قوم فاسقون (٥١ : ٤٦) ، وقوم سوء « انهم كانوا قوم سوء » (٢١ : ٧٧) . لقد اتهموه بأن به جنة وبأنه بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم ولو شاء الله لانزل ملائكة (٢٣ : ٢٣ — ٢٨) ولكذبهم قوم نوح أيضا لانهم لا يصدقون بشيء . فالنبى لا يتبعه الاراذل من القوم وبنو اسرائيل يستكبرون (١١ : ٢٥ — ٤٩).

وقد اعتبروا أنفسهم من نسل ابراهيم ، وأرادوا أن تكون النبوة فى ذريته وكأن النبوة ميراث خاص بهم . « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » (٢ : ١٢٤) . فالنسل هو العمل الصالح وليس الدم أو الوراثة . وابراهيم هو أبو الانبياء وأول المسلمين . وكل من ينتسب اليه لا يكون يهوديا ولا نصرانيا بل حنيفا مسلما . « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (٢ : ١٣٥) . بل ان أنبياء بنى اسرائيل كلهم مسلمون لانهم يدعون الى عبادة الله وحده والاخلاص لطاعته والى التقوى والعمل الصالح « أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون » (٢ : ١٤٠). فالجدل حول ابراهيم جدل عقيم لانه سابق على التوراة والانجيل . فابراهيم هو أول المسلمين الذى استطاع أن يستدل على التوحيد بعقله ويصل اليه بفطرته « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم

فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين • ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين » (٣ : ٦٥ — ٦٨) • ان ايمان ابراهيم هو الذى يعطى الامن والاطمئنان فى حين أن جدل قومه له لا يدل الا على الخوف الدفين • « وحاجه قومه قال اتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى ، وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون • وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا • فأى الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون » (٦ : ٨٠ — ٨١) •

وبالرغم من أن موسى قد أنجاهم من عذاب فرعون وطغيانه الا أنهم عصوه وطالبوه بعبادة أصنام مشابهة لاصنام الشعوب المجاورة • « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوما تجهلون • ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون • قالوا أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين » (٧ : ١٣٨ — ١٤٠) • وكانت عبادتهم للعجل فى غياب موسى قمة عصيانهم وعدم ادراكهم للتوحيد • « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا له خوار • ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا » (٧ : ١٤٨) • يستضعفون الانبياء ، ويقوون عليهم ، ولا يرهبون الله • « ولما رجع موسى الى قومه غضبان آسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم • وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الاعداء

ولا تجلعنى مع القـوم الظالمين ••• ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحـياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين » (٧ : ١٥٠ — ١٥٢) • وأن ما فعل موسى لقومه لانجائهم من فرعون لم يفعله نبى لقومه (٧٩ : ١٥ — ٢٦) • ومع ذلك عصوه وآذوه • « واذ قال موسى لقمه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون انى رسـول الله اليكم ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهـم ، والله لا يهدى القـوم الفاسقين » (٦١ : ٥) •

وان صدقوا أنبياءهم فانهم لا يصدقون من يأتون بعدهم مثـل عيسى ومحمد • « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمـن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم • قـل فلم تقتلوا أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » (٢ : ٩١) • فالايمان بالانبياء واحد لا يتجزأ ، ومن يؤمن بالبعض دون البعض الآخـر فان ذلك يطعن فى ايمانه الاول • لذلك يقول المسلمون « لا نفرق بين أحد من رسله » (٢ : ٢٨٥) • هذا الايمان بالانا والكفر بالآخـر يكشف عن أنانية وعنصرية تجعل بنى اسرائيل غير قادرين على الاعتراف بالآخرين وحقوقهم •

ويكفرون أيضا برسالة المسيح وبما أنزل الله عليه من كتـاب • « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون (٣ : ٥٠) • وقد أتت رسالة المسيح لصالحهم تخفيفا للتوراة وليحل لهم بعض ما حـرم عليهم • ومع ذلك كفروا به ولم يصدقوا للحق لانهم ليسوا أهل حق ، ولا يعترفون بحقوق أحد سواهم • « وقفينا على آثارهم بعيسى بن

مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين » (٥ : ٤٦) . وهم يكفرون بعيسى بل ويفترون عليه وعلى أمه مريم ، وقد أتى عيسى مصدقا لما بين أيديهم من التوراة . « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه . ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما . وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا » (٤ : ١٥٦ — ١٥٩) . لم يصدقوا بعيسى وبشارته بالرغم من البينات التى أتى بها واتهموه بالسحر . « واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام ، والله لا يهدى القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٦١ : ٦ — ٩). لقد خاصموا عيسى وجادلوه وتكبروا عليه . وقد أتى ليبين لهم ما كانوا فيه يختلفون .

وهم يكفرون بمحمد وقد أتى مصدقا لما بين أيديهم من التوراة والانجيل « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (٢ : ١٠١) . مع أن الوحى الذى نزل لهم على محمد والذى يصدق

ما معهم من وحى نزل على موسى أوجب للتصديق اذا كان الايمان لديهم ايمانا شاملا كاملا دون تفرقة بين الرسل • ولكن بنى اسرائيل اعتبرت انزال الوحى عليهم وارسال الانبياء لهم ميزة خاصـة بهم ينفردون بها على غيرهم من الشعوب • فهم أول الكافرين بالوحى الاسلامى وبالقرآن بالرغم من تصديقه لما معهم من كتب سماوية • « وآمنـوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون » (٢ : ٤١) • فايمانهم بالوحى ايمان أنانى خالص • يصدقون ما أنزل اليهم ويكفرون بمـا أنزل الى غيرهم • « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل » (٣ : ٣) • وعدم الايمان بالوحى الاسـلامى ليس له عذر ويستوجب اللعنة ومسخ البشر لان الايمان بآخر الرسالات نتيجة طبيعية للايمان بأوائلها • « يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » (٤ : ٤٧) •

وقد أتت رسالات الانبياء على فترات حتى يتعود بنو اسرائيل على الايمان درجة فدرجـة وحتى لا يكون لهم عذر فى النهـاية • « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسول يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير واللـه على كل شىء قدير » (٥ : ١٩) ومع ذلك فانهم يستعجبون من ذلك ، ويتناسون الوحى السابق • « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا الله لعلكم ترحمون • أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ••• » (٦ : ١٥٦ — ١٥٧) •

وبالرغم مما يبدو بين اليهود والنصارى من تحالف واتحاد ضد المسلمين الا أنهم فيما بينهم يناهضون بعضهم بعضا ، وكل منهم لا يعترف بالآخر ، ويكفره ولا يؤمن بما انزل الله له . « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . (٢ : ١١٣) . اجتمعوا معا على عداوة المسلمين ونهب ثرواتهم والاستيلاء على أراضيهم ، وضياع همتهم ، والقضاء على وعيهم مع أن المسلمين وحدهم هم الذين يعترفون بهم ، ويسلمون بما أنزل الله لهم . كل فريق منهم أنانى لا يحب الا نفسه ، وبالتالى استحالت الوحدة الداخلية بينهما . كل منهم لا يرى أبعد من حدود أنفه ، ولا يقدر على الخروج من جنسه وعنصره وجلده ولونه . ومن ثم وقعت الحروب بينهما ، ورأى كل فريق بقاءه فى استئصال الفريق الآخر ، وهذا هو أحد الجذور التاريخية للعنصرية الغربية المتمثلة فى الاستعمار والصهيونية .

ولا تنفع معهم البيانات والآيات والبراهين لان كفرهم بالحق كفر جبلى طبيعى ملى . « سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب » . (٢ : ٢١١) .

وبالرغم من كل ما لديهم من آيات يشاهدونها فانهم يكفرون بها وبما يثبتها . « يا أهل الكتاب لم تكفرون بلأيات الله وأنتم تشهدون » (٣ : ٧٠) . والذى يكفر بالآية فانه يكفر بكل شىء ويكون كالاعمى

وأضل سبيلا لانه قضى على وسائل المعرفة لديه فيعيش كالحيوان الاعجم • « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٣ : ١١٢) • والعجيب أن الكفر بآيات الله لا يمكن انكاره لان الله شاهد على كل شيء • « قل يا أهل ألكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما تعملون » (٣ : ٩٨) •

وبالرغم من معرفتهم بالوحى معرفة حسية الا أنهم يكفرون به • « والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم • الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » (٦ : ٢٠) • وهم بكفرهم يخسرون أنفسهم لان الانسان لا يستطيع أن يعيش الا مدركا للحق متمثلا له •

وهم يتركون ما ينزل على الانبياء ويأخذون ما تتلوه الشياطين • أى أنهم يتركون الحق ويأخذون الباطل • وبالتالى فهم غير قادرين على الاختيار بينهما بل تدفعهم طبيعتهم الى ترك الحق وأخذ الباطل • « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت • وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر » (٢ : ١٠٢) يستبدلون بالوحى السحر ، وبالحق الاسطورة • فالانبياء لم تأمر بما تفعله الصهيونية حاليا •

ويضر بنى اسرائيل أنفسهم بالكفر وتركهم رسالات الانبياء وأخذهم تعاليم الشياطين • فيتعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم (٢ : ١٠٢) • وبالتالى فانهم سبب عداء الشعوب لهم •

وكل ضرر يلحق بهم هم سببه ، لانهم لا يتعلمون ولا يسلمون الا بما يضرهم .

وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت أى بالظلم والعدوان . ويروجون للكفر ضد الايمان . « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعنه الله فلن يجد له نصيرا . أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا (٤ : ٥١ — ٥٣) .

ثالثا : عصيان الحق :

ويظهر الكفر بالحق عمليا فى مظاهر عصيانه ومخالفته ومنها :

١ — الجهل التام بالحق واستبدال الباطل به « وقالت اليهود عزير ابن الله ... ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ... » (٩ : ٣٠) . ومن ثم يستحيل اقناعهم بالحق ، والحق عندهم لا يخطر على بال . بل ان مهمتهم هو وضع الباطل فى مقابل الحق حتى يشوشون به عليه . لن يجدى معهم اقناع أو افهام . بل ان مهمتهم اطفاء نور الله ومحو الحق « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٩ : ٣٢) .

٢ — فان عرفوا الحق فانهم يكتمونه ولا يعلنونه للناس وكأن معرفة الحق جريمة لابد من التستر عليها لان الاعتراف بالحق يدمغ كفرهم ، ويكشف نفاقهم ، ويدحض سلوكهم ، ويبين للناس

عصيانهم . « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ : ١٤٦) . فهم يعرفون الحق معرفة عيانية تقوم على الحس والمشاهدة ، طبقا لطبيعتهم المادية . ومع ذلك فانهم يتكتمون عليه ، ومن يكتم الشهادة فانه آثم قلبه . « وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » (٢ : ١٤٤) . فهم يعلمون الحق ولكن لا يعترفون به ولايظهرونه حتى لا تدحض أعمالهم ، وتظهر عورات سلوكهم . لذلك أتى القرآن ليكشف عما كانوا يخفونه . « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (٥ : ١٥) . ويقومون بذلك عمدا وكتابة اخفاء للقراطيس . « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » (٦٠ : ٩١) . ومن ثم يبدلون كلام الله . « فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم » (٧ : ١٦٢) .

٣ — فاذا عرفوا الحق وأعلنوه فانهم يكذبون على الرسل ، ويزيفون رسالاتهم ، ويكذبون على الله ، ويزيفون كلامه .

٤ — فاذا عرفوا الحق وأعلنوه وزيفوه فانهم بذلك يلبسون الحق بالباطل والباطل بالحق حتى يضيع الحق فى غمرة الباطل . « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » (٢ : ٤٢) . ويكون الخلاف بينهم وبين باقى الشعوب هو

خلاف على الحق ولبس على المصلحة ويضيع الوقت فى البحث عنه وتخليصه من الباطل . « ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (٣ : ٧١) .

٥ ــ فاذا أظهروا للناس بعض الحق فانهم يحرفونه حتى يتم التمويه على الناس يحرفون نصوصه ، ونطقه ، ومعانيه « وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (٣ : ٧٨) . يحرفون الكلم عن موضعه عمدا على غير معناه . « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وأنظرنا لكان خيرا لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (٤ : ٤٦) . يسيئون نطق الكتاب حتى يفيد غير معانيه « يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا أنظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم » (٢ : ١٠٤) . ويكون التحريف كتابة باليد ، « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (٢ : ٧٥) . يكتبون بأيديهم ويقولون من عند الله ، « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » (٢ : ٧٩ .)

٦ ــ فاذا أظهروا الحق فانهم يؤمنون ببعضه ويكفرون

بالبعض الآخر حتى لا تكتمل الحقائق وتظهر كلها أمام الناس • وذكر الحقائق الى المنتصف هو نوع من الكذب كمثلنا المشهور فيمن قول « ولا تقربوا الصلاة » وحتى يختاروا من الكتاب ما يتفق مع هواهم ، ويرفضون ما يختلف معه « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » (٢ : ٥٨) •

ويحتجون بالاعذار لتبرير الكفر • ومن هذه الاعذار الغباء ، وعمى القلب ، وهو عذر أقبح من ذنب • فأى انسان يعترف بظلام قلبه فانه ينكر انسانيته • « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » (٢ : ٨٨) • فهم يعترفون بصدأ قلوبهم وبعدم قدرتهم على فهم الحق والاذعان اليه وهو فى الحقيقة تراكم لعصيانهم • « وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (٤ : ١٥٥)• والحقيقة أن قسوة قلوبهم هى السبب « وجعلنا قلوبهم قاسية » (٥ : ١٣) لانهم لا يشعرون بغيرهم من البشر ، ولا يعترفون بوجودهم ، ولا يعرفون معنى الانسان • « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة • وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون» (٢ : ٧٤) •

وأحيانا يحاجون المؤمنين ويجادلونهم من أجل نصرة الباطل على الحق وما ينفع معهم جدال « فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم•

فان أسلموا فقد اهتدوا • وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » • (٣ : ٢٠) ، فالوسيلة الوحيدة للمصالحة هو الاسلام لله والتوحيد للواحد ، وتمثل ما يتطلبه التوحيد من تخل عن العنصرية والعدوانية ، وما يتطلبه من العمل الصالح، وما يقتضيه من مساواة بين الشعوب •

ويرفضون الحق حكما بينهم وبين الناس ، لانهم لا يعتبرون الحق مقياسا لسلوكهم • « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » (٣ : ٢٣) • وبالتالى لا تنفع معهم محاكم دولية أو لجان تحكيم أو وساطة ، ولا تفلح معهم مفاوضات أو اقناع أو دعوة لهم للاعتراف بالحق أو الاذعان له • « قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين » (٥ : ٦٨) • ولا تعامل معهم الا بالتحكيم ، تحكيم كتاب الله أو الاعراض عنهم « فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المقسطين • وكيف يحكمونك ، وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ••• ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٥ : ٤٢ — ٤٤) •

وهم سيئو النية كثيرو السؤال ، ليس من أجل المعرفة بل

من أجل التلكؤ والتباطؤ فى تنفيذ الاوامر الالهية ، لا يصدعون للامر الالهى لانه الحق بل يلجؤون الى اللجاجة والتلكع ، ويتضح ذلك من قصتهم مع موسى وذبح البقرة ، « واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا : أتتخذنا هزوا ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قال ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟ قال أنه يقول أنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال أنه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قال أدع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون ، قال أنه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون » (٢ : ٦٧ — ٧١) ، فيسألون عن البقرة أولا فاذا ما تحدد عمرها يسألون عن لونها ، فاذا ما أجيب عنه بطريقة واضحة سئل عن ماهيتها حتى تصعب الاجابة ، فأجيب عن الماهية بوظيفتها أى بطريقة حسية عملية مرئية حتى لا يكون لديهم حجة ، وهو بالضبط موقف المفاوض الاسرائيلى الذى يكثر من السؤال ويتمحك فى الحق وهو يعلمه ، حتى يضيع جوهر الاشياء ويقع الجميع فى متاهات لا مخرج منها .

وقد نزلت التوراة للحكم بها ، « أنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والاحبار بما أستحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ... » (٥ : ٤٤) .

وقد كانت العقوبات لديهم للردع حتى يتعودوا على العدالة المطلقة والقصاص من النفس • « وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس، والعين بالعين ، والانف بالانف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص • فمن تصدق به فهو كفارة له • ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٥ : ٤٥) • « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم • منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » (٥ : ٦٦) •

والحق واحد ولكنهم يختلفون فيه طبقا لمشاربهم ومآربهم، ونظرا لتضارب أهوائهم وتعارض مصالحهم • فضاعت وحدة الحق ، وتحولوا الى شيع متنافرة • « ان الدين عند الله الاسلام ، ما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم • ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » (٣ : ١٩) • والطبيعى أن الانسان مادام قد علم الحق فانه لايقع الاختلاف حوله الا أن بنى اسرائيل علمت الحق بعد أن أعطاهم الله اياه ، ولكنهم اختلفوا فيه نظرا لتضارب أهوائهم ، واختلاف مشاربهم • « ولقد بوأنا اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم • ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (١٠ : ٩٣) ، وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم • ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، ان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » (٤٢ : ١٤) • « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه • ولولا كلمة سبقت من ربك

لقضى بينهم وانهم لفى شك منه مريب » (٤١ : ٤٥) • فعلى الرزق والمادة والنعم يتفقون ، وعلى العلم والحق يختلفون • « ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الامر ، فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم • ان ربك يقضى بينهم يوم القياماة فيما كانوا فيه يختلفون » (٤٥ : ١٦ — ١٧) • وقد أتاهم القرآن ليتضى على خلافهم ، ويعودون الى وحدتهم من خلال وحدة الحق • « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (٩٨ : ١ — ٥) • ثم تحول هذا الخلاف الى عداوة وايقاظ لنار الحرب والعدوان • « وألقينا بينهم العدواة والبغضاء الى يوم القيامة • كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الارض فسادا ، والله لا يحب المفسدين • ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم » (٥ : ٦٥) • وعدوان اليهود الغربيين على اليهود الشرقيين واحتقارهم لهم معروف ومشهود • ويؤكد ذلك أيضا المجتمع العسكرى الاسرائيلى وقيامه على الحرب ومكانة المؤسسة العسكرية فيه •

فاذا ما آمنوا بالحق بعد كل هذه المحاولات لطمسه وضياعه وايهام الناس بعكسه وهو الباطل فان ايمانهم يتصف بالآتى :

١ — هـو ايمـان وقتى لا يدوم لهم لانهم ينـوون الـكفر ويضمرون الغـدر • « وقالت طـائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنـوا وجه النهـار واكفروا آخره لعلهم يرجعون» (٣ : ٧٢) •

٢ — هـو ايمـان تنقصـه الجدية ، ويتخذونه مجرد لعبا وهزوا ، يطالبون الايمـان فاذا مـا جاءهم ليؤمنـوا بـه تراجعوا لانهم لا يطيقـون الايمـان ، ولا يستطيعون مواجهـة الحـق أو الثبـات عليه • « ولما جاءهم كتـاب من عنـد الله مصـدق لمـا معهم وكانوا من قبل يسـتفتحون على الذين كفروا ، فلما جـاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٢ : ٨٩) •

٣ — ومجتمعهم مجتمع مغـلق ، لا يثقـون الا به ، ولايكسرون حصـاره • فاليهـودى لا يكـون يهوديا الا اذا كان يهـوديا عن يمينـه ، ويهوديا عن يسـاره ، ويهوديا أمـامه ، ويهوديا خلفـه ، « ولا تؤمنـوا الا لمن تبع دينكم » (٣ : ٧٣) • فهم ذو شخصيتين ، شخصـية علنيـة مع غيرهم وهى شخصـية مزيفة ، وشخصـية سرية مع أنفسـهم وهى الشخصية الحقيقية • « واذا لقـوا الذين آمنـوا قالوا آمنـا واذا خـلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بمـا فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلـون • أولا يعلمون أن الله ما يسرون وما يعلنون » (٢ : ٧٦ — ٧٧) •

٤ — وهـو ايمـان يقوم على الهـوى والمصـلحة وليس على الاقتنـاع والتصديق • « أفكلما جـاءكم رسـول بما لا تهـوى

« يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق .. » ، (٤ : ١٧١) . فالغلو فى الدين لا يدل على زيادة الايمان بل يدل على الكفر الدفين والتستر عليه بالايمان . « قل يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل السبيل » (٥ : ٧٧) .

وهم فى نهاية الامر لا يفهمون ايمانهم ، ولا يعقلون كتابهم ، ويفصلون مضمونه عن عملهم ، وتكون معرفة الحق النظرى فى جانب والسلوك العملى المخالف له فى جانب آخر ، ويكونون كالحمار يحمل أسفارا . « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » (٦٢ : ٥) أو على أكثر تقدير يسقطون من أنفسهم على الكتاب ، ويتمنون مايريدونه منه . « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم ألا يظنون » (٢ : ٧٨) .

وهم منافقون ، يؤمنون بأفواههم وليس بقلوبهم « يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » (٥ : ٤١) . ينافقون حتى يخدعون المؤمنين . « يقولون أن أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٥ : ٤١) . ومن مظاهر النفاق سماعهم للكذب ، وتحريفهم كلام الله ، « ومن الذين هادوا سماعون للكذب ، سماعون لقوم

أنفســكم استكبرتم ، ففريقــا كذبتم وفريقا تقتلون » (٢ : ٨٧) . يمنعهم الاستكبــار من التصــديق . والاستكبــار هو التعالى على الحــق لدرجــة الانانية والزهــو والخيلاء . وهــو ما يســـمى بلغة اليوم التمركز على الذات أو العنصرية . لذلك يكذبون الانبيــاء أو يقتلونهم حتى لا يوجد أمامهم شهداء على الحق .

٥ — وهم يتخــذون الاحبـــار أربابا من دون الله بطــاعتهم دون الله . « ما كان لبشر أن يؤتيــه الله الكتاب والحــكم والنبــوة ثم يقــول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربــانيين بمــا كنتم تعلمون الكتــاب وبما كنتم تدرســون . ولا يأمركم أن تتخــذوا الملائكة والربانيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعــد اذ أنتــم مســلمون » (٣ : ٧٩ — ٨٠) . فمقياس الوحى هو التحرر مــن عبــادة البشر وطــاعتهم الى عبــادة الله وحـــده وطـــاعته . « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الهــا واحدا لا اله الا هو ، سبحـــانه عمــا يشركون » (٩ : ٣١) .

٦ — وهم يصـــدون عن سبيل الله كل من آمن به ، يبغــونها عوجــا ، ولا يريدون الايمــان لاحد حتى لا ينكشف زيفهم وحتى يظل العــالم كله فى كفر ونكران . « قل يا أهل الكتاب لم تصــدون عن ســبيل الله من آمن تبغونهــا عوجا وأنتم شـــهداء ، وما الله بغــافل عما تعملون » (٣ : ٩٩) .

وهم يغالون فى الايمــان مزايدة منهم على كفرهم وتغطيــة له

آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه » (٥ : ٤١) • ومن مظاهر النفاق كتمان الحق فى قلوبهم • « واذا جاؤوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون » (٥ : ٦١) •

وهم أنانيون يحسدون الآخرين على ايمانهم • « ود كثير من أهل الكتاب لويردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (٢ : ١٠٩) • يريدون أن يتخلوا عن ايمانهم ويعودون الى الكفر مثلهم • « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما • فمنهم من آمن بربه ، ومنهم من صد عنه ، وكفى بجهنم سعيرا » (٤ : ٥٤ — ٥٥) • بل انهم لايرجون أن ينزل الله على غيرهم من الشعوب أى وحى حتى ينفردوا بهذه النعمة دون سواهم • « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٢ : ١٠٤ — ١٩٥) • يأمرون غيرهم بالبر ، وينسون أنفسهم وهم أحق بالدعوة والتوجيه • « أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (٢ : ٤٤) فاسرائيل تطلب من غيرها السلام وهى تود الحرب ، وتطلب لنفسها الامن وتهدد غيرها ، وتستحوذ على الارض وتطلب من غيرها التخلى عنها •

وهم يشترون الدنيا بالآخرة ، ويؤثرون الحال على المآل ،

ويشـــترون بآيات الله ثمانـــا قليلا • « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيـــا بالآخرة فلا يخفف عنهم العـــذاب ولا هم ينصرون » (٢ : ٨٦) • وذلك عندما يؤمنـــون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض الآخر الذى لا يوافق هواهم ، وعندما يتركون الوحى الى تعاليم الشيطان• « ولبئس ما شروا به أنفســـهم لو كانوا يعلمون » (٢ : ١٠٢) • وعندما يرفضون التصـــديق بالقرآن الذى يصـــدق ما معهم فانهـــم أيضـــا يشترون بآيات الله ثمنـــا قليلا • « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون » (٢ : ٤١) •

وقد أدى حبهم للدنيـــا الى انكـــار البعث والحياة بعد الموت • « ان هؤلاء ليقولون : ان هى الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنا ان كنتم صـــادقين » (٤٤ : ٣٤ — ٣٦) • وقـــد كان الصـــــدوقيون منهم بالفعل ينكرون البعث حتى ظهور المسيح• ولم يؤمن البعض منهم به الا بعد الاسر البـــابلى وظهور الاخرويات فى حـــالات الضـــنك والقهر والعـــذاب « أيعدكم أنكم اذا متـــم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجـــون • هيهـــات هيهات لما توعدون • ان هى الا حياتنـــا الدنيا نموت ونحيـــا ومـــا نحن بمبعـــوثين » (٢٣ : ٣٥ — ٣٧) • وقـــد بين الله لهم بمثل حسى بعث المـــوتى • ومع ذلك لم يؤمنـــوا به ، وحـــاولوا اخفاء الجســـد ! « واذ قتلتم نفســـا فادارءتم فيهـــا والله مخرج ما كنتم تكتمـــون • فقلنـــا أضربوه ببعضهـــا ، كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته لعـــلكم تعقلون » (٢ : ٧٢) • وحقيقة الايمان بالآخـــرة هو الخشوع فى الدنيا • « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهـــم اليـــه راجعـــون » (٢ : ٤٦) •

ويأكل أحبارهم أموال الناس بالباطل ، وهم رؤساؤهم ، ونموذج سلوكهم • « يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » (٩ : ٣٤) • فهم لا يعترفون بحقوق الناس ، ولا يتمثلون قيمة أو مبدأ للسلوك ، يبغون المادة ، الذهب والفضة • لذلك أصبحوا فى التاريخ تجار ذهب ومصوغات ، ورجال أعمال وصيارف وبنوك • ويتمثل أكل أموال الناس بالباطل فى الربا• « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » (٥ : ١٦١) قد عرف اليهود بأنهم مرابون ، يستغلون ضنك الناس لزيادة ثرواتهم •

ويأكلون الحرام « أكالون للسحت » (٥ : ٤٢) • ولا يعرفون الا جشع المال ، « وترى كثيرا منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعلمون • لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » (٥ : ٦٢ — ٦٣) •

وقد أسقط بنو اسرائيل صورتهم على الله فتصوروا الله بخيلا مثلهم ، « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا ، بل يده مبسوطتان ، ينفق كيف يشاء ، وليزيدن كثيرا منهم ، ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا » (٥ : ٦٤) •

رابعا — الجحد بالنعم •

وبنو اسرائيل جاحدون بنعم الله • فهم كافرون بالحق

النظرى وكافرون بالحق العملى . وكما لم تنفع الآيات والبراهين معهم كذلك لم تنفع النعم المحسوسة التى أعطاها الله لهم .

ومظاهر النعم كثيرة . فقد نجاهم الله من عذاب فرعون ومن استئصال شأفتهم من على وجه الارض بذبح ذكورهم واستبقاء نسائهم فيستحيل النسل والتكاثر . « واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (٢ : ٤٩) . وهم مهددون بالاستئصال باستمرار ما لم يسمعوا كلام الله ويذعنون لاوامره . فالله أبقاهم من الفناء ، ونجاهم من العذاب ولكن اسرائيل كفرت بهذه النعمة وجحدت بها . وما فعله فرعون بها تفعله اسرائيل بغيرها من الشعوب محاولة استئصالها كما تفعل حاليا بشعب فلسطين . ولقد نجى الله اسرائيل من عذاب فرعون ومن استكباره وجبروته واستعلائه . « ولقد نجينا اسرائيل من العذاب المهين . من فرعون انه كان عاليا من المسرفين » (٤ : ٣٠ — ٣١) . واسرائيل تفعل نفس الشىء مع غيرها .

كما أنقذ الله بنى اسرائيل من الغرق فى البحر بعد أن تبعهم فرعون وجنوده « واذ فرقنا بكم البحر ، فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » (٢ : ٥٠) ، واسرائيل الآن تقضى على غيرها فى المخيمات وتحت وابل من الرصاص وبين ألسنة النيران .

ثم بعثهم الله من بعد موتهم حتى يشكروا الله بالرغم من أنهم ينكرون البعث والحياة الاخرى ، « ثم بعثناكم من بعد

موتكم لعلكم تشـكرون » (٢ : ٥٦) • ولا تشكر اسرائيل مومـا تم العفو عنهـا ورغب الناس فى نسـيان آثامها والعيش معها •

وقد أعطـاهم الله من النعم المـادية الكثير : الراحة والسـكن والظـل الوفير ، والطعام والشراب والغذاء الكثير • « وظللنـا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسـلوى ، وكلـوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسـهم يظلمون » (٢ : ٥٩)• ولكن يبـدو أن بنى اسرائيل قد ظلموا أنفسـهم بالرغم مما لـديهم من أمن واطمئنـان فاتخذوا ذلك وسيلة لبث عدم الامن والاستقرار فى نفـوس الغير •

وزاد لهم الله على الطعـام الشراب • « واذا استسقى موسى لقـومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشر عينا • قـد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ، ولاتعثوا فى الارض مفسـدين » (٢ : ٦٠) • ولكن يبدو أنه فى مقـابل الماء عثـوا فى الارض مفسدين ، وفى مقـابل الرزق وخيرات الله يفسدون فى الارض بالبغى والعدوان •

وأتاهم الله النبـوة ، وأنزل عليهم الكتـاب حتى يهتـدوا • « واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » (٢ : ٥٣) • وهى هبة لا تقـدر بثمن ، يعتز بها صـاحبها ، وتوجه الى الطـاعة لا الى المعصـية • « واذ قال موسى لقـومه ياقوم اذكروا نعمـة الله عليكم اذ جعـل فيكم أنبيـاء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحـدا من العـالمين » (٥ : ٢٥) • بل وأعطـاهم الله الدولة ،

ولكنهم بعصيانهم فقدوها ودمروها • بل انهم بدلوا كلام الله ، ورفضوا التوبة والاستغفار ، ورفضوا الطاعة والامتثال لاوامر الله • « واذ قلنا أدخلوا هذه القرية فكلوا فيها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين • فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » (٢ : ٥٨ — ٥٩) •

ثم عفا الله عنهم ، ونسى آثامهم ، وغفر ذنوبهم • « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » (٢ : ٥٢) • ولكن يبدو أن اسرائيل لا تعرف معنى العفو أو مقابلته بالشكر • ومهما نسى العرب من مآسيها فانها تعيد فتذكرهم بذنوبها بارتكاب الكثير منها •

وليس الوحى خاصا ببنى اسرائيل « وان من أمة الا خلا فيها نذير » (٣٥ : ٢٤) • بل هو فضل من الله • « أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب للكافرين عذاب مهين » (٢ : ٩) • والهدى هدى الله يؤتيه من يشاء « قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم • قل أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم » (٣ : ٧٢) • ليس الوحى ميزة لشعب على حساب شعب آخر بل ان الوحى معطى للناس جميعا • « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » (٥٧ : ٢٩) •

ومع ذلك جحدت اسرائيل بهذه النعم كلها ، ولم تشكر الله عليها ، ولم تقابل هذه النعم بطاعة الله وتنفيذ أوامره والايمان برسله والتصديق بكتبه • فقتلوا الانبياء وكذبوا الرسل ، وعبدوا العجل ، وبدلوا قول الله ، وقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، وأنكروا البعث والحياة الاخرى ، ولم يتناهوا عن المنكر ، واعتدوا فى السبت ، وجبنوا فى القتال •

فقد أعطى الله لهم ما شاؤوا من خيرات الارض على مستوى طلبهم : البقول ، والفول ، والعدس ، والبصل ، والقثاء مستبدلين الذى هو أدنى بالذى هو خير • « اذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها ، وبصلها • قال أستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير • أهبطوا مصر فأن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٢ : ٦١) • فهم شرهون ، لا يكتفون بطعام واحد بل يريدون جميع أنواع الطعام سواء الموجودة لديهم أم الموجودة عند غيرهم من الشعب خاصة عند جارتهم مصر • أعطاهم الله الوحى ولكنهم يستبدلون به خيرات مصر • وكان جزاء كل من يطمع فى خير مصر الذلة والمسكنة وغضب الله • تركوا الوحى ، وقتلوا الانبياء ، وعصوا أوامر الله ، واعتدوا على جيرانهم • فالاستثمار المشترك فى سيناء ، ورغبتهم فى مياه مصر ومحاصيلها . كل ذلك لا يستجاب له بل ويعاقبون عليه •

فما أن غـاب عنهم موسى حتى ظهر كفرهم وكأنهم لا يؤمنـون الا فى حضـور الرقيب ، فعبدوا العجل • « واذا واعدنا مـوسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » (٢ : ٥١) • ان الثقل الطبيعى والارتكـان الدائم الى الارض جعل بنى اسرائيل يرجعون الى الوثنيـة باستمرار فهم لا يتزحزحون عن المـادة ، ولا يتركون الارض • « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخـذتم العجل من بعـده وأنتم ظالمون » (٢ : ٩٢) • فهم فى حـاجة الى رقيب من نبى حتى يحـدث التوازن فى شعورهم ويذكرهم بالله • ولكن الايمـان لا ينشأ طـوعا واختيارا من أنفسـهم فى قلوبهم ، وبمحض ارادتهم ، وببرهان عقـولهم ، وبتمثلهم للخير • ومن ثـم فان يقظـة العـرب ضرورية حتى لا تركن اسرائيل الى الارض وتستحوذ عليهـا • « واذا قال موسى لقومه ياقوم انـكم ظلمتم أنفسـكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسـكم • ذلك خير لكم عند بارئكم فتـاب عليكم انه هو التواب الـرحيم » (٢ : ٥٤) •

وقد بلغت ماديتهم وحسيتهم أقصى حـد فى طلبـهم رؤية الله جهـارا : « واذا قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهـرة فأخـذتكم الصـاعقة وأنتم تنظرون » (٢ : ٥٥) • وكل هـذه المطـالب تعبر عن طبيعـة حسية واحدة • طلب كتاب ، عبادة العجل أو طلب رؤية الله عيانا ، « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتـابا من السـماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقـالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصـاعقة بظلمهم • ثم اتخذوا العجل من بعد ما جـاءتهم

البينـات فعفونا عن ذلك ، وآتينـا موسى سلطـانا مبينا » (٤ : ١٥٣) • فاسرائيل تطلب المستحيل المادى ، وكان جزاؤها على طالبها العقاب والردع • وبالتـالى فطلب الارض العربية مستحيل ، وطلب التوسـع مستحيل ، وطلب اقامة المستوطنات مستحيل ، ولا يقابل ذلك كله الا بالردع والصواعق •

وشيمة بنى اسرائيل العصيـان والعدوان وجزاؤهم اللعنـة والغضب من الله • « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسـان داوود وعيسى بن مريم ، ذلك بمـا عصوا وكانوا يعتدون • كانـوا لا يتناهـون عن منـكر فعلـوه لبئس ما كانوا يفعلون » (٥ : ٧٨ — ٧٩) • ولم يأمروا بالمعروف أو ينهون عن المنكر ولم يذكروا بعضهم بطـاعة الله ، أمتثـال أوامره واجتناب نواهيه •

ويتمثل العدوان والعصيـان فى عدم امتثالهم لقوانين السـبت والطعـام •فقد اعتدوا فى السبت ولم يراعوه ، « ولقد علمتم الذين اعتـدوا منكم فى السبت فقلنـا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناهم نكالا لما بين يديهـا وما خلفها وموعظة للمتقين » (٢ : ٦٥ — ٦٦) • وقد أخـذ الله منهم ميثـاقا ألا يعتدوا فى السبت ولكنهم نقضـوا الميثاق : « قلنا لهم لا يعتـدوا فى السـبت ، وأخذنا منـهم ميثاقا غليظا » (٤ : ١٥٤) • وقـد شرع الله السبت لهم لتعويدهم على طاعته وامتثـال أوامره • والحقيقة أن الحياة أقـوى من السبت ، وان منفعة الانسـان وخيره يتحققان فى السبت ، « واسـالهم عن القرية التى كانت حـاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم

حيتـانهم كذلك نبلوهم بمـا كانوا يفسقون » (٧ : ١٦٣) • كمـا شرع الله السبت لهم نظـرا لاختلافهم فيـه وتحقيقـا لوحـدتهم ولكنهم ظلوا على خـلافهم ، « انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفـون» (١٦ : ١٢٤) •

أما بالنسـبة لقـوانين الطعـام فقد كان كل الطعـام حـلا لبنى اسرائل ولكنهم زيادة منهم فى النفـاق ومزايدة منهم فى مظاهر الايمـان حرموا على أنفسـهم بعض الطعام • ولكن طبيعتهم المادية لم تستطع الصـبر عليه • « كل الطعام كان حـلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسـه من قبل أن تنزل التوراة • قل فأتـوا بالتـوراة فاتلوها أن كنتم صـادقين • فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون » (٣ : ٩٣ — ٩٤) • وجزاء على هذا الظلم والبغى حرم الله عليهم ألوانا من الطعـام عقابا لهما وردعـا لهم وتطويعا لارادتهم • « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصـدهم عن سبيل الله كثيرا » (٤ : ١٦٠) • فالاصل فى الاشيـاء هو التحليل ولكن التحريم أتى لهم تربية لنفوسـهم وتحريرا لوعيهم من أسر المـادة ، « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم • ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون » « ٦ : ١٤٦» •

وهم ليسوا أهل قتـال ، لايريدون الموت والاستشهاد فى سبيل

الله ، نظرا لانهم يؤثرون الدنيا على الآخرة . « ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى اذا قالوا لنبى لهم أبعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . قال : هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » (٢ : ٢٤٦) . فهم يطالبون بالقتال لاستدراك الانبياء فاذا جاءت المعركة ولوا الادبار . ويقبلون سبب القتال نظرا وهو الاخراج من الديار ، ولكنهم لا يجاهدون فى سبيله وكأنهم يقبلون الظلم والطرد من الديار عملا . فاذا ما واجهوا غيرهم نكصوا وولوا الادبار وتراجعوا . « وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا . فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟ قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم أن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، أن فى ذلك لآية لكم أن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه الا قليلا منهم . فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله ، وقتل داود

جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » (٢ : ٢٤٧ — ٢٥١) • وهنا تبدو مقاييس اسرائيل فى تصورها للملك وهو الملك الغنى أى ذو المال الوفير اسقاطا من أنفسهم فى حب المال فى حين أن مقاييس الملك النبى هما العلم والقوة • ومع ذلك أعطاهم النبى آية حسية وهو التابوت الذى به العهد تحمله الملائكة وسطهم • وفى أول امتحان فى الحرب لم تستطع اسرائيل طاعة النبى فى عدم الشرب من النهر • فاذا ما ظهر العدو تراجعت اسرائيل وخافت ، ودب الرعب فى قلبها • ليست اسرائيل اذن بالدولة الحربية ، وليس جيشها بالجيش الذى لا يقهر ، وليس رجالها هم أشجع الرجال • وانتصاراتها على غيرها لم تتم لقوتها بل لضعف الآخرين •

فاذا ما حدث النزال وتمت المواجهة فانهم يولون الادبار • « وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون » (٣ : ١١١) • بل انهم حتى فى دخولهم الارض المقدسة التى يزعمون أن الله قد وعدهم بها يولون الادبار • « يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين • قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون • قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا أن كنتم مؤمنين • قالوا يا موسى لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا أنا هنا قاعدون • قال رب انى

لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننــا وبين القوم الفاسقين • قال فانهــا محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين » (٥ : ٢١ — ٢٦) • فهم لا يدخلون أرضــا بهــا شعب • ولا يقدرون على مواجهة الشعوب الكــامنة فى الارض ، ويتركون المواجهة لله وللنبى • يقومون بتهجير عرب فلســطين حتى تظل خاوية لهم • ولكن لا أرض بلا جهد ، ولا نصر بلا حرب ، لذلك ظلت اسرائيل تائهة بين الشعوب بلا أرض •

واذا حاربوا فانهم لا يحاربون الا داخل حصون مشيدة يخشون المواجهة والنزال • « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ، مــا ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيــدى المؤمنين ، فاعتبروا يأولى الابصار • ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار • ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب »(٥٩ : ٢ — ٤) • فهم جبناء فى القتال يحاولون تغطية رعبهم الداخلى بالحصون المشيدة • « لانتم أشــد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون • لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »(٥٩ : ١٣ — ١٤) • فهم يخشون المسلمين أكثر من خشيتهم الله • والله أخرج أهل الكتاب من ديارهم وهم يظنون أنهم لن يخرجوا وظنوا أن حصونهم تمنعهم • فأتاهم الله بغتة من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب • كتب

الله عليهم الجلاء من الارض جزاء عصيانهم له • فاذا كانوا لا يعترفون بأن هناك قوة فوقهم فقد أجلاهم الله وأراهم قوته • ومن ثم فان ردهم الى حجمهم الطبيعى أمر الهى •

خامسا : نقض الميثاق :

وأكبر نعمة أعطاها الله لبنى اسرائيل هو الميثاق ، ميثاق الايمان والطاعة ، ميثاق الصلاة والزكاة ، وطالبهم بالوفاء به وذكر نعمه • « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، واياى فارهبون » (٢ : ٤٠) • فذكر النعمـــة والوفاء بالعهد مرتبطان والا كان الجحود والكفران • وهو عهد مشروط وليس عهدا مطلقا كما تدعى الصهيونية الآن ، « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » أى أن اسرائيل لو أوفت بعهدها من جانبها فى الطاعة والاخلاص فان الله يفى بعهده من جانبه • ولكن اسرائيل لا تذكر النعمة ، وتكفر بها ، ومهما أعطى لها من اعتراف ورضى بهـــا من قبول فانها تظل جاحـــدة كافرة ، ومهما يعطى لها من أموال فانها تطلب المزيد وتتنكر لمن يعطونها • اسرائيل لا تفى بعهد ، ولا تبقى على كلمة ، ولا تحرص على وعد ، ولا ترعى قانونا ، ولا تلتزم بمعاهدة • ومن ثم فطريق المعاهدات معها مسدود ، والحديث عن الشرعيـــة الدولية معها لا يؤدى الى شىء • اسرائيل لا تخشى الا من هو أقوى منها « واياى فارهبون » ، ولا تعلم الا لغة القوة والرهبة • لا تخشى الله ولا تتقيه بالرغم من نداء الله « واياى فاتقون » ، ونداء الله لها بأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتركع وتسجد ، « وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واركعوا مـــع الراكعين » (٢ : ٤٣) ، وأن تصبر على الطاعة حتى يتم ترويضها « واستعينوا

بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين » (٢ : ٤٥) • ليس الميثاق كما تقول الصهيونية ميثاق الغنم والنعم والنسل والارض والمعبد ، ميثاق الحظ والهبات بل هو ميثاق الطاعة والاخلاق • « واذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون » (٢ : ٨٣) ، وليس عبادة المال والطاغوت ، وترك الفقراء واليتامى والمساكين ، وتشريد الشعوب خارج أوطانهم ، « واذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكوا دمائكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون• ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ، وأن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم • أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون • أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » (٢ : ٨٤ — ٨٦) •

والميثاق ميثاق حكمة ونبوة وليس ميثاق أرض وغنم • « واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن بـه ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا • قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين • فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »(٣ : ٨١ — ٨٢) •

والميثاق من أجل التبيان والاعلان وليس لاجل التكتم والاخفاء ،

« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » (٣ : ١٨٧) .

ولكن اسرائيل نقضت الميثاق ، ميثاق اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والايمان بالرسل وتأييدهم ، وايثار الله على ما سواه ، « ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منه اثنى عشر نقيبا وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين »(٥ : ١٢ — ١٣) . وكان جزاؤهم لعنة الله عليهم ، قسوة قلوبهم ، نظرا لتحريفهم كلام الله ولنسيانهم أوامره ونواهيه ، باستثناء البقية الصالحة منهم . لقد نكص بنو اسرائيل على أعقابهم وتولوا بعد أن عقد الله معهم ميثاق الخير والفضيلة والعمل الصالح . « واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين »(٢ : ٦٣ — ٦٤) .

نقضوا الميثاق بكفرهم بآيات الله وبقتلهم الانبياء وباعتدائهم فى السبت ، « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا ، وقلنا لهم لا تعتدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق ،

وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (٤ : ١٥٤ — ١٥٥) • والميثاق ثقيل ثقل جبل الطور ، ولكنه يقضي بالطاعة سجدا لله ، فالارتفاع بالعهد اعلانه خفض الجباه ، « ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون • وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » (٥ : ٧٠ — ٧١) • فنقضهم الميثاق نتيجة لعماهم وصممهم ، لا يرون آيات الله ولا يسمعون كلامه •

ونقضوا ميثاق الايمان بعبادتهم العجل ، « واذا أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور • خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »(٢ : ٩٣) • فبدلا من الحرص على الميثاق وطاعته سمعوه وعصوه ، وعبدوا العجل من قلوبهم • ذهب العجل لديهم أفضل من طاعة الله والوفاء بعهده ، « فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي • قالوا ما أخلفنا بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري • فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسي • أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا » (٢٠ : ٨٦ — ٨٩) • غضب منهم الانبياء وتأسفوا على حالهم • ولم يروا سببا للعصيان الا تسرعهم الى الغنم سعيا وراء الذهب ، « ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري • قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى • قال يا هارون

ما منعك اذا رأيتهم ضلوا • ألا تتبعن فعصيت أمرى • قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى • قال فما خطبك يا سامرى ، قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت من أثر الرسـول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى • قـال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه ، وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » (٢٠ : ٩٠ — ٩٧) •

والاختيار الالهى لاسرائيل ليس اختيارا عشوائيا لا مبرر لـه وليس اختيارا عن جهل ولكن اختيار عن علم مسبق وببرهان مبين ، « ولقد اخترناهم على علم على العالمين • وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين »(٤٤ : ٣٢ — ٣٣) • وهذا الاختيار أحد مظاهر نعم الله عليهم • « يـا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليـكم وانى فضلتكم على العالمين »(٢ : ٤٧) • والفضل هنا ليس لعنصر أو جنس بل هو تكريمهم بالوحى وبنصرهم وتأييدهم ضـد الطغيان • ومن ثم فان عصيانهم للوحى وطغيانهم على غيرهم يذهب فضلهم • وتكبرهم واستعبادهم للشعوب يقضيان على أسباب تفضيلهم • ويتكرر نـداء القرآن لهم ، « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمـتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العـالمين ، واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شـيئا ولا يقبل منها عـدل ، ولا تنفعها شـفاعة ولا هم ينصرون » (٢ : ١٢٢ — ١٢٣) • فالتفضيل اذن مشروط بتقوى الله فى الدنيـا حتى تتم النجاة فى الآخرة • وهدفه هو تربية الجنس البشرى ممثلا فى اسرائيل حتى تتحقق المسئولية الفردية طبقا لقانون الاستحقاق •

لا يفضل الله شعبا على شعب • وليس له أبنـــاء ولا أحباء الا بمقدار تمثلهم للفضيلة وبمقدار طاعتهم له ، « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء »(٥ : ١٨) • فلا توجد « علاقة شخصية » بين الله والانسان الا العمل الصالح ، « قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليهم بالظالمين • قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون »(٦٢ : ٦ — ٨) •

وكما يدعى بنو اسرائيل أنهم أبناء الله وأحباؤه يدعون ان الله لن يعذبهم ولن يدخلهم النار بل سيرسلهم الى الجنة قذفا ، « قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين • ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ، والله عليم بالظالمين • ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه عن العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون • قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين • من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عـــدو للكافرين »(٢ : ٩٤ — ٩٨) • والذى يضمن الجنة لنفسه فانه يتمنى الموت حتى يفوز بها ، وهذا ليس حال بنى اسرائيل لانهم يعضون على الحياة بالنواجذ حبا للدنيـــا وليس خوفا من عذاب الآخرة • فبالرغم من أن بنى اسرائيل تجعل الجنـــة

لانفسهم والنار لغيرهم فانهم لا يتمنون الموت ليحصلوا على ما يريدون ويحرصون على الحياة ، يود كل منهم لو يعمر ألف سنة حتى ينهل من الحياة الدنيا • ولن يمنعه ذلك من العذاب • لذلك استنكر بنو اسرائيل ملائكة الموت ولعنوهم لانهم يقبضون الارواح ، وعداوة الملائكة عداوة لله ، « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان يهودا أو نصارى ، تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ١١١ — ١١٢) ، وفرق بين التمنى والواقع • ان من مظاهر أنانيتهم أن الجنة لهم وحدهم والنار لغيرهم فى حين أن الجنة ثواب على الاعمال الصالحة والنار عقاب على أفعال السوء لاى فرد ومن أى شعب • وأحيانا يتواضعون ويضعون أنفسهم فى النار أياما معدودة : « وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة ؛ قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون • بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » (٢ : ٧٩ — ٨١) • فالثواب والعقاب مشروطان بالاعمال ، « ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون • فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »(٣ : ٢٤ — ٢٥) • بل أن لعنهم فى الدنيا بنقضهم الميثاق يجعل عذابهم مؤكدا ، « اذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا • قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون • فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون • فلما عتوا عن

ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب • ان ربك لسريع العقاب ، وأنه لغفور رحيم » (٧ : ١٦٤ — ١٦٧) • فمقياس الثواب والعقاب هو العمل الصالح ، « ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » (٩٨ : ٦) •

وكانت النتيجة أيضا العذاب فى الدنيا والتيه والتشتت والضياع • « وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون • فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا • وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون • والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، انا لا نضيع أجر المصلحين • واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٧ : ١٦٨ — ١٧١) •

سادسا : استحالة المصالحة •

ما دامت هذه أصاف بنى اسرائيل فانه يستحيل عقد الصلح معهم أو موالاتهم أو اتخاذهم بطانة أو تلقيبهم بالاصدقاء الاوفياء أو بأولاد العم • فلن تؤمن بنو اسرائيل بغيرها من الشعوب ولن ترضخ لحقوق غيرها • تستحيل مصالحة بنى اسرائيل فهم ينكثون بالوعود ، وينقضون اليوم ما يعاهدون عليه بالامس • لن يؤمنوا بحق أحد سواهم • ولن

ترضى اسرائيل عن غيرها من الشــعوب حتى تحيلها الى عبيد لهم يرضخون لها ، « ولن ترضى عنك اليهــود والنصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (٢ : ١٢٠) • لن ترضى اسرائيل الا بصهينة جميع الشعوب والقضــاء على هويتهم والتخلى عن مبادئهم والتنازل عن شخصيتهم • تود اسرائيل اخراج كل شعب من دينه ، « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون » (٣ : ٦٩) • تبغى اسرائيل اخراج كل الشــعوب من دياناتهــا وحضاراتها حتى يضيع الحق كلــه ولا تبقى الا اسرائيل ومطامعها ، « يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله • ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » (٣ : ١٠٠ — ١٠١) •

ولن تصدع اسرائيل لحقوق غيرها مهما قدم لها من حجج وبراهين ومهما عرض عليها من آيات بينات ، « ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن ان الظالمين » (٢ : ١٤٥) • فالعلاقة الطبيعيــة بين اسرائيل وغيرها من الشعوب هى علاقة التضاد والتناحر ، وبالتــالى تستحيل المصالحة لاستحالة توحيد المآرب والاهداف • والصراع بينها وبين غيرها هو صراع الحق ضد الباطل ، والخير ضد الشر ، والعلم ضد الظن ، والوحى ضــد الهوى ، والايمان ضد الكفر •

ولذلك يحذر القرآن من اتخاذ بنى اسرائيل أوليـاء للمسلمين . « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتوله منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (٥ : ٥١) . فاليهود والنصـارى أولياء بعض ، ولن ينصر النصارى المسلمين على حساب اليهود ، ولن ينصر اليهود المسـلمين على حساب النصارى . الاتفاق بين اسرائيل والغرب أكثر من الاختلاف بينهما ، والاختلاف بين المسلمين من ناحية واسرائيل من ناحية أخـرى أكثر من الاتفاق بينهما . فالاتفاق والاختلاف فى المبادىء والعقـائد والنظريات أولا قبل أن يكون فى المصالح الوقتية ، « يأيها الذين منوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين . واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلـك بأنهم قوم لا يعقلون . قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنـا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبـل وان أكثركم فاسقون . قل هل أنبؤكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سوء السبيل » (٥ : ٥٧ — ٦٠) . لن يرضى اليهود والنصارى عن المسلمين الا بعد أن يترك المسلمون ويوالدون اسرائيل والغرب ويصبحوا تابعين لهم داخلين فى أحلافهم ، مروجين لبضائعهم ، متمثلين لثقافاتهم . لن يحترموا ثقافات غيرهم ودياناتهم وقومياتهم وتراثهم وعقليتهم بل يسخرون من سلوكهم وثقافتهم وحضـارتهم . مع أن الله قد مسخ اليهود والنصارى وجعلهم قردة وخنازير أى أنهم ليسوا نموذجا للتحدى أو نمطا يحتذى به أو أسوة تتبـع . يحرم القرآن موالاة اليهود والنصارى ويكفر من يوالونهم من المسلمين ،

« ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون • ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون » (٥ : ٨٠ — ٨١) •وكيف يوالى المسلمين من يعادونهم ويودون القضاء عليهم دينا ودنيا ، « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهـود والذين أشركوا » (٥ : ٨٢) •

لذلك يحذر القرآن من اتخاذ بنى اسرائيل بطـانة للمسلمين ، « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر • قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون • هـا أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا ، واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور • أن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وان تصبكم سيئة يفرحـوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، ان الله بما يعملون محيط » (٣ : ١١٨ — ١٢٠) • يحرم القرآن اتخاذهم أصدقاء يوثق بهم أو حلفاء تبدو البغضاء من تصريحاتهم وأقوالهم واهاناتهم للعرب وللمسلمين ولاهل مصر ، كنانة الله فى الارض • وما تخفى صدورهم أعظم ، يعبرون عنه فى كتاباتهم بما فيها من عنصرية وغرور • فكيف يحبهم المسلمون وهم لا يحبون أحدا ؟ وكيف يبغى المسلمون معهم السـلام وهم يبغون الحرب ؟ يفرحون بكل مصيبة تحل بالمسلمين ويحزنون لكل خير يأتيهم •

ان المصالحة الحقة لا تأتى الا بناء على تسليم اليهود بالحـق

المستقل عنهم ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » (٣ : ٦٤) • المصالحة الحقة تتم بناء على الاتفاق على عبادة الله وحده ، وليس عبادة الطاغوت أو المال ، والاخلاص له وليس الايمان أول النهار والكفر آخره أو الايمان فى العلن والكفر فى السر أو الايمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر • كما تقوم على المساواة بين الشعوب أمام اله واحد ، وألا يعتبر شعب نفسه فوق الجميع ، له حق الحياة والوجود وليس أمام الآخرين الا الموت والفناء •

سابعا : البقية الصالحة •

هذه الاوصاف التى أطلقها القرآن على بنى اسرائيل تصدق على الاغلبية منهم ، على أكثرهم وليس على الاقلية منهم ، وهى الاقلية المؤمنة التى تعلم الحق وتعمل به والتى تذكر أحيانا الاغلبية بكفرها وعصيانها ، « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (٣ : ١١٠) • لذلك يشير القرآن الى « فريق منهم » وليس الى مجموعهم أو الى « طائفة منهم » وليس اليهم كلهم أو « من الذين هادوا » وليس كل الذين هادوا أو « ومن الذين أوتوا الكتاب أو « الذين كفروا من بنى اسرائيل » وليس المؤمنون منهم • هذه الاحكام الكلية والجزئية تفصل بين الاغلبية الكافرة والاقلية المؤمنة • وأحيانا يكون الحكم مستثنيا للاقلية من الكفر « الا قليلا منهم » • وقد تبلغ الاقلية أمة « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٧ : ١٥٩) أو « وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » (٧ : ١٦٨) •

وأحيانا تبلغ الاقلية رجلا أو رجلين « قال رجلان من الذين يخافون ... » • هذه الاقلية هى التى تصدت للعنصرية الاسرائيلية القديمة والحديثة والتى آمنت بالرغم من كفرهم ، وأطاعت بالرغم من عصيانهم، وهم الحنفاء الذين رفضوا القبلية العبرانية ، والذى كان ابراهيم منهم ، والذين خرج منهم أخيرا محمد • فالحنفاء يؤمنون بالله ويخلصون له ويطيعونه ويعملون الخير ، ويتقون الله ، ويعيشون على الفطرة . ويحترمون الآخرين ، ولا فضل لعربى على عجمى لديهم الا بالتقوى والعمل الصالح • وهم من المحدثين كل من يرفض العنصرية اليهودية من أمثال فلاسفة التنوير الذين أرادوا جعل اليهود مثل غيرهم من البشر وليسوا منفصلين عنهم •

وقد استغل اليهود هذه الاقلية أسوء استغلال عندما جعلوا الاكثرية تفعل ما تشاء من كفر وعصيان وأن الله سيغفر لها من أجل الاقلية • فتركت الاكثرية لنفسها الحبل على الغارب تعلق أخطاءها على تقوى الاقلية ، وتنتظر خلاصها من خلال ايمان الاقلية • اذ يكفى أن يكون منهم مؤمنا واحدا حتى يتم خلاص الجميع من خلاله • وبالتالى ضاعت المسئولية الفردية وانتشر الكفر والفسوق والعصيان فى حين أن ايمان الاقلية كما يصفه القرآن لا يعفى من عتاب الاكثرية التى لعنها الله وضرب عليها الذلة والمسكنة وغضب منها ولفظها وخلدها فى النار •

ويصف القرآن هذه البقية الصالحة بالايمان والعمل الصالح ، « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم لا خف عليهم

ولا هم يحزنون » (٢ : ٦٢) • فهم المؤمنون سواء كانوا مسلمين أم يهود أم مسيحيين أم صابئة ، مؤمنون بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، الايمان بالله أى التوحيد ، واليوم الآخر أى رفض التكالب على الدنيا ، والعمل الصالح أى رفض الاختيار المسبق • وليس المهم هو اليهودى المنتسب الى الشعب اليهودى بل المهم هو بماذا يؤمن وماذا يعمل ؟ هل يعتبر نفسه فوق الجميع أم مساويا لغيره من الشعوب ؟ هل يعتدى على غيره أم يعترف بوجودهم ؟ « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥ : ٦٩) • ولا يساوى القرآن بين الاكثرية والاقلية ، « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، أولئك من الصالحين ، ما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين » (٣ : ١١٣ — ١١٥) • فالاقلية مؤمنة تقية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر على عكس الاكثرية من بنى اسرائيل التى كانت لا تتناهى عن منكر تفعله ، ولا تسارع فى الخير وتقترف اثم العدوان • ويستثنى القرآن هذه الاقلية من أهل الكتاب ، « وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ، ولا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، ان الله سريع الحساب » (٣ : ٩٩) • وهم الذين يتصفون بنقيض صفات بنى اسرائيل والذين يؤمنون ويعملون ويصلون ويزكون • « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سيؤتيهم أجرا عظيما » (٤ : ١٦٢) •

عبد الناصر وقضيه الصلح مع إسرائيل

مقـــــدمة :

أولا : الموضوع والمنهج والغاية •

يبدو أن أقسى ما يمر بجيل ما هو أن تهتز قناعاته ، وتثار الشكوك حول مبادىء نضاله ، وينقلب فى تصوره للعالم وفى وجدانه من الضـد الى الضد • وتكون القسوة على هذا الجيل المخضرم عندما ينقسـم الى شطرين ، الشطر الاول خلقه بيديه ، وناضل من أجله ، واستشهد فى سبيله ، ومازال قادرا على العطاء ، تملؤه امكانيات الاستمرار • والشطر الثانى مفروض عليه ، أتاه دون أن يتوقع ، أدخل اليه كجسم غريب فيه • والاخطر من ذلك أن يجعله يندم على ما فات ، فما خلقه بيديه فى شطره الاول كان وهما خادعا ، سرابا بعيد المنال ، حلما لا يتحقق ، وما أدركه بشطره الثانى كان واقعا حسيا ملموسا ، ادراكا لبدنه وحياته ، لغذائه وكسائه ، لكسبه وغناه ، وما كانت الآخرة لتغنى عن الدنيا شيئا • وذلك هو حال جيلنا ، على الاقل فى مصر ، الذى انقلب مشروعه القومى من معاداة للاستعمار والصهيونية والرجعية ونضال من أجل الحريـة والاشتراكية والوحدة الى تحالف مع الاستعمار ، وتسليم بالصهيونية ، وترسيخ للرجعية ، وقضاء على الحرية ، والاعلان بأن الرأسمالية لم

نشر هذا البحث فى كتاب « قضايا عربية » بعنوان « عبد الناصر وما بعد » ، سبتمبر ١٩٨٠ كبديل عن عدد أكتوبر ١٩٨٠ •

تعد جريمة ، واحتجاب مصر . وبالتالى أصبح جيلا مشطورا الى شطرين ، ينتابه الذهول لهول ما يرى ، يهاجر ويعارض ويصرخ فى الخارج ، أو يئن ويكتم صوته فى الداخل ، أو يعيد تكوينه بطريقة ما . فقد يكون هو المسئول عما حل به .

والحجة التى يسمعها هى الآتية ، وما الجديد فى هذا ؟ ألم يكن ما يحدث الآن نتيجة طبيعية للماضى ؟ لطالما عارضنا الصهيونية فحاربتنا، وتوالت علينا ثلاث هزائم ، وأصبحت اسرائيل أمرا واقعا . فكيف لا نعترف بمن يحتل الارض ، ويهدد بالتوسع والعدوان ؟ لقد اعترف العالم أجمع بدولة اسرائيل شرقا وغربا ، والواقع أكثر ثباتا من المنى والاحلام ، وظل مشروعنا القومى يتقلص يوما بعد يوم ، من تحرير لفلسطين كلها ، الى اقامة دولة علمانية يتعايش فيها جميع الاديان ، الى ازالة آثار العدوان ، الى تكوين دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس العربية ، الى الحكم الذاتى ، الى غزة فقط أى سلسلة من التنازلات لم تنته بعد . الى متى هذا الرفض الخاسر ؟ ولماذا لا نقبل الممكن اليوم ، أى شىء ونحصل عليه ونتمسك به . ونجعل ذلك بداية طريق طويل لمزيد من المكاسب حتى ولو كان الثمن باهظا : اعتراف، وصلح ، ومفاوضة ! ويكون الامر أكثر خطورة عندما يقال : وما الغريب فى هذا التحول التاريخى وقد كان جمال عبد الناصر مؤسس نهضة مصر الحديثة ورائد القومية العربية ، وزعيم الامة ومحقق وحدتها والذى مازالت الجماهير تهتف باسمه بصوت عال فى العالم العربى ، وبصوت مكتوم فى مصر ، هو الذى بدأ هذا الطريق خاصة بعد هزيمة العرب فى يونيو — حزيران ١٩٦٧ — وقبوله مشروع روجرز ، وعدم رفضه لمبدأ

التعايش السلمى مع اسرائيل اذا ما انسحبت من الاراضى المحتلة وعادت الى حدود ٥ يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، وحديثه عن الحل السلمى ، واعتماده على قرارات الامم المتحدة والشرعية الدولية ، وبدايات غزله مع أمريكا ، وضيقه من الروس ، ورغبته فى تحرير النظام الداخلى فى مصر من قبضة الدولة على مظاهر النشاط الاقتصادى خاصة ؟

ومن ثم يكون السؤال بالنسبة لنا هو الآتى : هل اهتزت قناعات جيلنا وثارت الشكوك فى وجداننا عن هذه المبادىء التى كانت مسلمات فى وعينا القومى وعليها قام أكبر مشروع سياسى حديث منذ محمد على فى القرن الماضى ؟ هل هناك تراجع فى موقف عبد الناصر من قضية الاستعمار والصهيونية وطابعها العدوانى التوسعى العنصرى أم أن هناك مبادىء أساسية لم تتغير حتى فى أحلك فترات الهزيمة التى كان الغرض منها فرض الصلح بالقوة على العرب والاعتراف باسرائيل ؟ هل كان يتصور الصراع بين القومية العربية والصهيونية صراعا جوهريا أساسيا ، لا بقاء لاحدهما الابفناء الآخر ، فالتناقض بينهما مبدئى لا مرحلى ، جوهرى لا عرضى أم أنه صراع مؤقت يعكس ميزان القوى المحلية والدولية ، ليس له أولوية مطلقة على باقى أشكال النضال العربى مثل التنمية والوحدة ؟ هل كان عبد الناصر ، بحديثه عن التسوية الممكنة ، والتعايش السلمى ، والحل السياسى ، وبقبوله مبادرة روجرز فى آخر عام من حياته ينوى حقيقة الصلح مع اسرائيل أو الاعتراف بها أو التفاوض معها ؟ ألم يعط مشروع روجرز الحد الادنى من المطالب العربية : ازالة آثار العدوان ، وأعطى اسرائيل كل ما تتمناه من اعتراف ، وصلح ، ومفاوضة ، ومرور فى الممرات المائية بما فيها قناة

السويس ؟ ألم يقبل ناصر مفاوضات غير مباشرة عن طريق مهمة السفير يارنج المبعوث الدولى وممثل الامم المتحدة أو بمباحثات الدول الاربع الكبرى ، أو باتفاق القوتين العظميين ، أو حتى بالحديث عن « صيغة رودس » عام ١٩٤٩ ؟

مهمة هذا البحث اذن هو الاجابة علي هذا السؤال . ليس بهدف الهجوم على شخصيات عربية فى موطن الحكم أو خارجه ، حية أو متوفية بل لتحليل مواقف تاريخية فى جيلنا . فما حدث لا خزى فيه ولا عار منه لانه أصبح واقعا لا يمكن تجنبه ، تتوارثه الاجيال ، وتعى دروسه ، ويكون جزءا من خبراتها . وبالرغم من كونها موضوعات مكررة ومعروفة مثل الطابع العدوانى لاسرائيل ، تحالف الاستعمار والصهيونية ، اسرائيل كرأس جسر للاستعمار ، حقوق شعب فلسطين ، قرارات الامم المتحدة ، مأساة ١٩٤٨ ، العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ ، قضايا التسليح الا انها هى التى شكلت الموقف العام ، وحددت عناصر الاجابة على هذا السؤال : عبد الناصر وقضية الصلح مع اسرائيل . فالتكرار بالنسبة لنا قد يكون تثبيتا لاقناعاتنا وابرازا لعناصر موقف جيل بأكمله .

ولا خوف أيضا من الوقوع فى الخطابة السياسية . فهى على كل حال قد شكلت مفاهيم جيلنا ورؤيته للصراع . وقد لعبت دور الايديولوجية لدى الجماهير العربية نظرا لغياب ايديولوجية نظرية محكمة بديلة . وقد كانت خطب عبد الناصر ، وتصريحاته ، وأحاديثه ، ومؤتمراته الصحفية احداثا فى عالمنا العربى وعلى الصعيد الدولى مثل خطاب تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦/٧/٢٦ أو مؤتمره

الصحفى العالمى فى ١٩٦٧/٥/٢٨ قبل الهزيمة بأسبوع واحد • لذلك اعتمدنا أساسا على هذه المادة لتحليل رؤيته لقضية الصلح مع اسرائيل •

ورؤية الزعيم تكشف عن بواعثه ، وتبنى دوافع قراراته السياسية وليست مجرد موضوع نظرى لا صلة له بالاحداث السياسية • فالسياسة هى البواعث ، والبواعث هى التى توجه الرؤية ، وتبين « الحالة النفسية » • فالسياسة أحيانا ايحاء وبث فى الروع وهو ما يسمى باللغة النووية « سلاح الردع » • الخطابة السياسية ليست مجرد «ديماجوجية» بل هى قناعات وجدانية لجيل بأكمله بالرغم مما يشوبها من حدة الانفعال ونقص التصور النظرى(١) •

ويمكن معالجة الموضوع بطريقتين :

الاولى تتبع مراحل فكر عبد الناصر وتطور مواقفه بالنسبة لقضية الصلح مع اسرائيل • ويتضح ذلك من سلسلة المعارك المتتالية التى خاضها فى جملة نضاله السياسى ضد الاستعمار والصهيونية

---

(١) اعتمدنا على المجلدات الخمس التى نشرتها وزارة الارشاد القومى ، مصلحة الاستعلامات ، القاهرة بالجمهورية العربية المتحدة بعنوان « مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر » الاول ١٩٥٢ — ١٩٥٨ ، والثانى ١٩٥٨ — ١٩٦٠ ، والثالث ١٩٦٠ — ١٩٦٢ ، والرابع ١٩٦٢ — ١٩٦٤ ، والخامس ١٩٦٤ — ١٩٦٦ . وقد نشر الاهرام ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، مجلدين بعنوان وثائق عبد الناصر ، خطب ، أحاديث ، تصريحات ، الاول ١٩٦٧ — ١٩٦٨ والثانى ١٩٦٩ — ١٩٧٠ وسميناها السادس والسابع سهولة للاحالة . واقتصرنا على رقم المجلد والصفحة .

والرجعية • كان البعض منها داخليا مثل ربطه بين الصهيونية والشيوعية ابان أزمة مارس فى مصر ١٩٥٤ والصراع على السلطة ، ولكن الاكثر منها كان خارجيا مثل ربطه أيضا بين الصهيونية والشيوعية ابان خلافه مع « قاسم العراق » فى ١٩٥٩ • ولكن المعارك الاساسية كانت فى محاولة الصهيونية الوقيعة بين الثورة والغرب لمنع اتفاقية الجلاء فى ١٩٥٤ ، ومعركة كسر احتكــار السلاح وصفقة السلاح التشيكى فى ١٩٥٥ ، والعدوان الاسرائيلى على غزة فى ١٩٥٥ ، والعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ الذى جعل ناصر يربط بين الصهيونية والاستعمار ، ويكشف عن طبيعتها العدوانية • ثم معاركه من أجل الوحدة فى ١٩٥٨ ، ومناهضة الصهيونية للقومية العربية ، وتأييدها للانفصال فى ١٩٦١ • ثم معاركه من أجــل التقدم السياسى والاجتماعى وبناء الاشتراكية ومقاومة الرجعية لاعادة البناء الداخلى للامة العربية قبل دخولها معركة التحرير ، تحرير شعب فلسطين من العدوان الصهيونى • ثم معارك تحويل مياه نهر الاردن فى ١٩٦٤ ، وسياسة مؤتمرات القمة ، ومحاولة اقامة دفــاع عربى مشترك ، وابراز الكيان الفلسطينى • ثم محاربة الصهيونية كحركــة تحرر مضادة ، وحصارها فى آسيا وافريقيا ودول عدم الانحياز فى ١٩٦٤ • ثم معركته ضد ألمانيا وتسليح اسرائيل وتعويضها والاعتراف بها فى ١٩٦٥ ، والوقوف أمام دعوة الصلح التى ألقى بها بورقيبة فى ١٩٦٥ ثم الشاه والدعوة الى الحلف الاسلامى فى ١٩٦٦ • وأخيرا صموده بعد هزيمة يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، ورفض المفاوضات المباشرة ، والصلح ، والاعتراف ، ورفضه الحلول الجزئية ، وربط ذلك كله أولا وآخرا بقضية فلسطين وحقوق شعب فلسطين •

والثانية ، وهى التى اخترناها ، بناء الموضوع ذاته بصرف النظر

عن المواقف التاريخية ، وجعله تصورا ثابتا ودائما حدد رؤية عبد الناصر ، كان الدافع وراء قراراته يقوم أولا على بيان المبادىء الاساسية والتناقضات الجوهرية بين القومية العربية والصهيونية ، بين الاستعمار والتحرر ، بين العدوان وحقوق شعب فلسطين ، بين الرجعية والتقدم • ثم يبنى ثانيا النتائج المنطقية والحقائق الفعلية المترتبة على هذه المبادىء الاساسية مثل استحالة الصلح والاعتراف والمفاوضة مع الكيان الاسرائيلى • وادانة كل محاولة لتحقيق هذا الهدف مثل دعوة الشاه أو بورقيبة أو اعتراف ألمانيا باسرائيل أو تحقيق الهدف السياسى من عدوان يونيو — حزيران ١٩٦٧ •

ثانيا : المبادىء الاساسية والتناقضات الجوهرية •

لم تكن منطلقات عبد الناصر الاعتبارات العملية فى رؤيته لقضية فلسطين مثل الرخاء ، وتوفير الغذاء ، وزيادة المدخرات ، وذلك كله لشعب مصر الذى أضنته الحروب ، وأنهكته المعارك ، وأفقرته ميزانية التسليح • بل كانت منطلقاته مبادىء أساسية فى غاية الوضوح والبداهة، تؤيدها الحوادث ، وتثبتها الوقائع ، ويمكن التحقق من صدقها فى التاريخ • هذه المبادىء تحتوى فى ذاتها على تناقضات جوهرية لا حل لها الا الصراع مثل القومية والعنصرية ، التحرر والاستعمار ، التقدم والرجعية ، فلسطين واسرائيل • لا بقاء لاحدهما الا بنفى الآخر • ويظهر ذلك على النحو الآتى :

١ — الجريمة العنصرية :

يرى عبد الناصر أن مجرد ذكر فلسطين يعيد الى ذهن كل عربى

والى ذهن كل انسان أكبر جريمة دولية ارتكبت فى تاريخ الانسانية كلها • لقد شهد التاريخ من حين الى حين توسع دولة أو انتقاص أراضيها • ولكن لم يشهد التاريخ مثل هذه المحاولة لاحلال شعب بأكمله محل شعب آخر ، واقصاء قومية بأكملها وزرع قومية أخرى بديلة عنها • وطرد وتشريد جنس ووضع جنس آخر مكانه • فحلت الصهيونية محل القومية العربية فى فلسطين ، وقامت اسرائيل دولة ملفقة على عدة أجناس مختلفة ، يتكلمون لغات متباينة ، بدعوى الجنس الواحد • كانت جريمة الاعتداء على مقدسات الامم والافراد ، تلك المقدسات التى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو المساس بها • ان قضية فلسطين نقطة سوداء فى حضارة القرن العشرين • ولا تعادلها الا جريمة العنصرية البيضاء فى جنوب أفريقيا ، كلاهما استعمار استيطانى وزرع لاجسام غريبة لدى شعوب أخرى • ومن هنا أتت مناصرة جميع حركات التحرر فى افريقيا وآسيا للقضية الفلسطينية(٢) •

وكان وعد بلفور عام ١٩١٧ فى تصور ناصر بداية الطريق نحو نهاية فلسطين • كانت فلسطين أكثر من زميل فى حلف • وكانت تحت الانتداب البريطانى وتحت كنفه ورعايته ، مسئول عنها أمام عصبة الامم • ومع ذلك سلمها الاستعمار ، وباع شعبها • لقد خلق الاستعمار اسرائيل ، ومكنت بريطانيا اليهود من الهجرة الى فلسطين • كان اليهود أيام وعد بلفور لا يمثلون أكثر من ٥٪ من مجموع السكان • ومع ذلك وعدهم

---

(٢) جـ ١ ص ٢٨١ فى ١٩٥٥/٧/٢٣ ، ص ٨٧ فى ١٩٥٦/٢/١٣ .

بفلسطين العربية . وبدأت العصابات الصهيونية فى تشريد الشعب ، شعب فلسطين ، حتى اغتصبوا الارض بالرغم من قتال شعبها دفاعا عن وطنه ، وأهدرت آدمية الاهل وقومية الشعب تحت سمع وبصر الامم المتحدة ، وبموافقة بعض الدول الكبرى ارضاء للمنظمات الصهيونية . وفى مقابل ذلك لم تطرد الشعوب العربية أى يهودى بينها ، بل كان لليهود عصرهم الذهبى فى الاندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى بين العرب ، لم تطرد مصر أى يهودى أثناء العدوان الثلاثى لانه يهودى بل لانه انجليزى أو فرنسى . ومن ثم فاسرائيل دولة عنصرية لا تعترف بأية قومية أخرى ، ولا تسلم بحقوق أى شعب آخر . ويظهر ذلك من سلوكها الانانى حتى انها لتعتقد أن تفكير الناس جميعا ينصرف اليها ، وأنه لا يوجد من الامور والمشاكل ما هو أعظم أو أكبر منها ، وهى مشكلة فريدة من نوعها تختلف عن مشكلة برلين . فبرلين لا خلاف عليها ، مقسمة أو غير مقسمة ، محتلة أو غير محتلة . أما مشكلة فلسطين فقد طرد شعب من أرضه وأغتصبت أملاكه وحل محله شعب آخر فى حين بقى الشعب الالمانى كما هو سواء فى برلين الشرقية أو فى برلين الغربية لم يتزحزح عن أرضه .

وينتهى ناصر الى النتيجة الآتية « لن ننسى فلسطين أبدا ، ولن ينسى العرب المؤامرات التى دبرت للقضاء على القومية العربية فى فلسطين ، مؤامرات الصهيونية والاستعمار . ان آلام شعب فلسطين المشردين وعذابهم كفيل وحده بأن يقضى على كل حجة تساق للدفاع عن اسرائيل أو تبرير عدوانها المتكرر . لا مساومة اذن على الجريمة

العنصرية ولا اعتراف بمن ارتكبوها »(٣) .

٢ ــ الطبيعة العدوانية :

ومنذ بدايات الحركة الصهيونية تظهر طبيعتها العدوانيـة فى طرد شعب فلسـطين واحلال شعب آخـر بدلا عنه ، وتكرار العدوان على الشعوب العـربية دون أى التزام بقرارات الامم المتحدة . وكانت قمة العدوان فى الغارة الوحشـية على قطاع غزة التى دبرها بن جوريون فى ١٩٥٥/٢/٢٨ والتى وصـفها رجال الامم المتحدة بأنها اعتـداء وحشى بربرى للحصـول على كميات من الاسلحة من فرنسـا . كانت هـذه الغارة نقطة تحول فى تاريخ الثورة المصرية ، وناقوس الخطـر وبداية التفكير فى « التوازن فى المنطقـة » الذى كان يعنى بالنسـبة للغرب حفظ ميزان القوى باستمرار لصـالح اسرائيل . لم يـأت العدوان من جانب مصر كما تقـول وثيقة « المخابرات البريطانية » فان جميع الظواهر تدل على أنـه ليس لمصر أية نوايا للعـدوان . وان مصر لقليلة الثقة فى أن الحكومة الاسرائيلية سوف تنتهج سياسة سلمية . لقد صرح بن جوريون فى أنه قتل ٢٩ من رجال مصر فى الاعتداء على غزة حتى يثير الخوف فى نفوس المصريين كمـا أراد بيجين أن يثير الخوف فى نفوس الفلسطينيين فى مذبحـة دير ياسين . ثم كان أكبر دليل على طبيعة العدوانية للصهيونية العـدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ ثم عدوان ١٩٦٧ .

---

(٣) ص ص٢٨٧ ــ ٢٨٨ فى ١٩٥٥/٢/١٩ ، ص ٢١٦ فى ١٩٥٤/٩/١٣ .

لذلك كانت قضية التسليح قضية جوهرية من أجل الدفاع عن الأمة العربيـــة . فلا يقابل العـــدوان الا بالدفاع ، ولا تقابل القوة الا بقوة مثلها . فمصر ترد بالقوة على كل اعتداء لاسرائيل بالاعتماد على ميثاق الضمان الجماعى العـــربى . ومن ثم كانت قضية كسر احتكار الســـلاح قضية جوهرية فى أول الثورة المصرية حتى تتمكن مصر من الدفـــاع عن نفسها ورد العدوان . فعقدت صفقة الاسلحة التشيكية بعد الغارة على غزة وفى نفس الســـنة والتى كانت بداية للتعاون فيما بعـــد مع المعسكر الشرقى . وكانت انجلترا تمد اسرائيل بالسلاح وتمنعـــه عن العرب أثناء حرب فلسطين . فاسرائيل تتسلح بواسطة من خلقوها حتى تصـــبح سيفا مسلطا على العرب . ثم أخذت اسرائيل أسلحة من فرنسا وبلجيكا وكندا وأخيرا امريكا ليعادل مجموع ما يأخذه العرب من أســـلحة . فلما اعتمدت مصر على السلاح الشرقى قال الغرب أنه ســـلاح شيوعى . والحقيقة أن هذا التسليح الشامل لاسرائيل يجعلها أكثر قدرة على التوسع والعدوان . بل ان اسرائيل تحاول امتلاك القنبلة الذرية فى حـــين أن مصر قد وقعت على معاهدة منع انتشـــار الاسلحة النووية حتى تشمل اسرائيل الكبرى فلسطين والاردن والســـعودية واليمن والخليج العربى كله وســـوريا ولبنان وجزءا من العراق حتى نهر الفرات وصحراء سيناء كلها حتى قنـــاة السويس .

ويأخذ العدوان الصـــهيونى فى تصور ناصر طابعا توســـعيا ، ويعتبر فلسطين ركيزة أولى للانتشار حتى يتحقق الحلم الصـــهيونى ، « من النيل الى الفرات » . والذى يتتبع خريطة اسرائيل منـــذ ١٩٤٨

حتى الآن يجد اتساع رقعة الدولة ، توسعوا على حســاب المنطقة المنزوعة السلاح ، ثم مضايق تيران بعــد العدوان الثلاثى ، ثم احتلال أراضى ســيناء والضفة الغربية والجولان وغــزة فى عدوان ١٩٦٧ ٠ وقد أثبت عدوان ١٩٦٧ أن القضية ليست فلسطين بل التوســع وتحقيق الحلم الصهيونى ٠ لقد كانت محزنة فى اسرائيل عندما انســحبوا فى مارس ١٩٥٧ من غزة ، وكان بن جوريون يبكى ومعــه نوابه لانهم كانوا قــد ضموا قطاع غزة الى اسرائيل ، واعلنا أن غزة تمثل الجزء الباقى من فلسطين العربيــة وهو حق اسرائيل ٠ أراد الاســتعمار اختبار قوة مصر ومحاصرة جيش مصر بين فكى كماشة فى ســيناء فى ١٩٥٦ فدفعوا باسرائيل للقيام بالمهمة ٠ هاجمت اسرائيل الحــدود المصرية التى أعلنت مع الاســتعمار فى « التصريح الثلاثى » ضمان سلامة الدول العربية واسرائيل ثم دفن هــذا التصريح فى بورسعيد ٠ واثر عدوان ١٩٦٧ قال ديان وزير دفاع اسرائيل لشــباب حزب العمل : لقد صنع آباؤنا حدود ١٩٤٧ ، خطة الامم المتحدة للتقسيم ، وصنعنا نحن حدود ١٩٤٩ ، وصنعتم أنتم حدود ١٩٦٧ ، وسيحدد جيل آخــر الحدود الذى ينبغى أن تكون فيه ٠

وبالتالى تمثل اسرائيل بالنسبة للامة العربيــة خطرين : الاول ، تعرض الشعب الفلسطينى للابادة والطرد من بلاده ، وحرمانه من ممتلكاته ووطنه ٠ والثانى التوسع الاقليمى بحيث تستطيع اسرائيل توطين ملايين من المهاجرين من أوربا الشرقية والاتحــاد السوفيتى حتى تستولى على مزيد من الارض وعلى مصادر الحياة ٠ ثم تأتى الهجرات المتتالية كما صرح بن جوريون بأنه يأمل أن يصــل عــدد المهاجرين ليس الى الآلاف بل الى عشرات الالاف ٠ فتفتح الهجرة

من البلاد الشرقية ، وترفع قيود الهجرة من الاتحاد السوفيتى ، والهجرة من شرق أوربا قادرة على احضار ما بين ٢٥٠ — ٣٠٠ ألف يهودى ، ومن الاتحاد السوفيتى ٣٫٥ مليون يهودى . فاذا كانت اسرائيل قد أحضرت مليونا من المهاجرين فى العشر سنين الماضية ، فانها تأمل أن تحضر ما بين مليون ومليونين فى العشر سنوات القادمة . وبالاضافة الى الاقتصاد المنهار ، وبثلاثة أرباع ميزانية الدولة من الخارج لا يسع اسرائيل الا التوسع على حساب مزيد من التشريد للامة العربية(٤) .

٣ — صنيعة الاستعمار :

لقد نشأت اسرائيل — فى تصور عبد الناصر — فى كنف الاستعمار ، واحتلت وغزت وتوسعت كحليف للاستعمار . كان لبريطانيا الانتداب فى فلسطين ولكنها سلمت فلسطين لليهود ، وساعدتهم على الحصول على السلاح . يستعمل ناصر التعبيرات التى أصبحت شعارات وعنوانا لتصورنا لاسرائيل « رأس جسر » للاستعمار ، « مخلب قط » ، « الطعم الحقير » ، « الكلب الامين » . فبعد أن وعد الاستعمار العرب التخلص من الاتراك نكث بوعده ، وعملت بريطانيا على تقسيم البلاد العربية لبث الفرقة بينها . وكشف العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ ذلك بوضوح عندما استخدم الاستعمار اسرائيل فى هذا العدوان لتكوين رأس جسر له على البلاد لتهديد العرب ، وتفتيت

---

(٤) ج ٣ ص ١١٤ — ١١٥ ، ص ١٤٠ ، ص ٥٠٣ فى ٦١/٨/٢٦ .
ج ٢ ص ٢٩٣ — ٢٩٥ فى ١٩٥٩/٢/٢١ .

القوميـــة العربية حتى يرتمى العرب فى أحضان الدول الاستعمارية ويطلبوا منها الحماية ضـــد اسرائيل • فبعد أن خرجت قوات الاحتلال من مصر بدأت اعتداءات اسرائيل على الحـــدود حتى ننضـــم الى الاحـــلاف ونطالب الدول الاستعمارية بحمايتنا ضد اسرائيل ، فندخل فى حلف بغداد ، فيخرج الاستعمار من الباب ويعود من النافذة(٥) • وعلاقتها بالاستعمار علاقة ابتزاز واســـتغلال ، تدعى الصهيونيه أنها مهددة كى تستحوذ على أكبر قدر ممكن من المال من الدول الاستعمارية • وبالتالى تخضع أوربا للصهيونية كما هو واضح فى مذكرات وكتابات قادتهم ، وكأن الصليبية القديمة مازالت تكشف عن جذورها فى الوعى الاوربى ، وكأن أوربا تريد التكفير عن أخطائها بالنسبة لليهود فآثرت التسليم بمطالب الصهيونية على حساب العرب • ولم تكن الصهيونية فى فلسطين وحدها بل كان وراءها النفـــوذ الصهيونى فى العـــالم ، والاستعمار العالمى بالمال والتأييد والمساعدة • فاسرائيل لا تمثـــل للمصريين أو للعرب أو للكتلة الاسيوية الافريقية وللضمير العـــالمى عدوانا اجراميا أو عسكريا ضدها فى هذه المنطقة من العالم فحسب بل تمثل شيئا آخر وهو السيطرة على شعوب المنطقة كلها من خلال هذه الدولة العنصرية المزروعة ، تمثل ضغطا أجنبيا على العرب • لقد صورت الصهيونية فى نيويورك قلب أمريكا أن العرب هم المعتدون وأن اسرائيل هى الضحية • والحقيقة أن اسرائيل هى المغتصبة وأن شعب فلسطين هو الضحية •

وبعد الاستعمار البريطانى ، اعتمدت الصهيونية على الاستعمار

---

(٥) ج ٢ ص ٥٥٠ فى ٥٩/٧/٢٨ ، ص ١٣١ — ١٣٢ فى ١٩٥٨/٥/١٥ •

الامريكى بعد الحرب العالمية الثانيـــة بعد أن ظهرت أمريكا كقـــوة استعمارية أولى تخلف الاستعمار البريطانى العتيد • فالنفوذ الصهيونى فى أمريكا له تأثير كبير ، ويقف حائلا بين العـــرب وأمريكا ومن ثم « فانه من العبث أن ينشـــد العرب عون أمريكا لان الساسة الامريكيين يضعون فى اعتبارهم أصوات اليهود فى الانتخابات الامريكية • وانى على يقين بأن الولايات المتحـــدة لا تستطيع أن تفعل أى شىء بالنسبة للشعوب العربية » • يتحدث الصهاينـــة فى أمريكا فى مجلس الشيوخ عن الحرية ، حرية الشعوب ، ولكنهم لا يعنون حرية الجـــزائر أو حرية فلسطين أو حرية عمـــان أو حرية جنوب أفريقيا • يتحدثون عن حرية الملاحة لانها تخـــدم أغراض الاستعمار والصهيونية • ولا يتحدثون عن حرية شعب فلسطين • فلتحـــرر أمريكا من الصهيونيـــة ولتحرر صحافتها من نفوذها أولا(٦) •

وبالتالى لن تقدر أمريكا أن تفعل للعـــرب أى شىء بل انها تحاول ادخال المنطقة العربية فى الاحلاف حتى تواجه مصر اسرائيل وحدها « لم أدرك أن اسرائيل مسألة حيوية للدول الغـــربية الا قبيل ذهابى الى مؤتمر باندونج فى العام الماضى • فالغرب يريد حمـــاية اسرائيل قبل كل شىء • ولو نجحت خطة الغرب لاصـــبح العالم العربى باسره متجها بنظره الى الشمال ، ومصر وحدها لاسرائيل » •

ولن تتحسن العلاقات بين مصر وأمريكا حتى توقف أمريكـــا انحيازها لاسرائيل « وليس يجدى فى ذلك أن نبدى النوايا الطيبـــة

---

(٦) ج ١ ص ٣٨١ فى ١٩٥٥/٧/٢٠ ، ج ٣ ص ٢٤٧ فى ١٠/١٠/ ١٩٦٠ •

من ناحيتنا أو من ناحيتكم وانما الحقائق العملية هى وحدهـا التى يعتد بها » . فالعرب راغبون فى علاقات المودة مع الولايات المتحدة . ولكنهم ينتظرون أن يعاملوا نفس المعـاملة التى تحظى بها اسرائيل . ان السياسة الامريكية سـائرة فى تحقيق هدفها ، وهو أن يتصـور الناس هنا فى المشرق العربى أن أمريكا عاجزة عن تحقيق أى غرض فى صالحهم . كما أن من أهدافها تحويل الانظـار عن اسرائيل وتوجيهها نحـو خطر شيوعى مفتعل على سوريا ، وتفتيت الاجماع العربى على أن اسرائيل هى مكمن الخطـر وليست الشـيوعية . وتتركز أهداف السياسـة الامريكية تجاه العالم العربى فى تصـفية مشكلة اسرائيل على أسـاس الامر الواقع أى تحويل خطوط الهدنة مـع اسرائيل الى خطوط دائمة واهدار حقوق شعب فلسـطين . وبالنسبة لاسرائيل كانت أهـداف أمريكا تحويل الانظـار الى بعض الدول العربية الحليفة ، وأخيرا ربط الدول العربية فى نطـاق واحد مـع اسرائيل تقوم فيه أمريكا بدور التوفيق والتنسيق فى جميع النواحى العسكرية بحيث أن اسرائيل لم تعـد فى الحقيقة عدوا للدول العربية بل زميلا لهم فى حلف مثـل مشروع ايزناهور ومشروع الدفـاع عن الشرق الاوسط الذى رفض فى ١٩٥١ وأيام حلف بغداد(٧) .

ويربط عبد الناصر بين الصهيونية والشيوعية . فالاسـتعمار واحد بصرف النظر عن مصـدره ، من الغرب أو من الشرق . وقـد

---

(٧) ج ١ ص ٤٦٠ فى ١٩٥٦/٣/٢٦ ، ج ٣ ص ١١٧ فى ٢١/٣/١٩٦٠ ، ص ٤٢٤ فى ٥٥/١٠/٦ .

ظهر هـذا الربط فى أوج معركته مع الشيوعيين فى ١٩٥٤ فى مصر وفى ١٩٥٩ فى مصر والعـراق • فالشيوعيون فى رأى عبد الناصر أكبر عون الصهيونية • كما تعمل الصهيونية على ايجاد تنظيمات شيوعية تخدع الناس تحت بعض الاسماء الخلابة البراقة مثل الحرية والديمقراطية • وتخـدر الناس بكلام معسول عن المساواة ورفع مسـتوى العامل والفلاح والاخذ بيد الفقـير • وكان يمول أكبر منظمة شيوعية فى مصر كوربيل الصهيونى • ويستعملون طرقا معينة للتضليل كى يمكنـوا الصهيونية العالمية من احتلال وادى النيل وجزءا من العراق وجزءا من المملكة العربية السعودية • وهم لذلك يثيرون بعض الشغب وينسبونه الى الشعب باسم الشـيوعية وهم فى الحقيقة جماعة صهيونية قامت بعمل حرائق فى بعض المدن والمنشآت الوطنية •

ويتهم ناصر اسرائيل بأنهـا تشاطر الشيوعيين فى موقفهم عن قصـد أو عن غير قصد حينما تسعى للحيلولة دون الوصـول الى تسوية سلمية لمشكلة قناة السويس التى دامت ٧٢ عاما وعقد اتفاقية جـلاء قوات الاحتلال البريطانى عن قناة السويس فى ١٩٥٤ م فقد عقـد الشيوعيون والصهيونيون عزمهم على تعطيـل التسـوية لان الاضطرابات فى العـالم العربى لا تخدم الا العناصر الهـدامة • وقـد ثبت فى مصر أن كلا الفريقين قد دبرا مؤامرة لحـرق مكتب الاستعلامات الامريكى بالقاهرة لان الكفـاح المسلح هو الطـريق لمحاربة الاستعمار •

كما عمل كلا الفريقين لهدم القومية العربية وبالتالى كانا حليفيين للرجعية والاستعمار • اذ يحـارب الشيوعيون فى العراق القوميـة

العربية ويتركون محاربة الصهيونية • وقاسم العراق فى رأى ناصر حليف للشيوعيين والبريطانيين والصهيونيين • كان هذا الموقف فى بداية الثورة المصرية وابان معركتهـا ضد خصومها • فاذا كانت الصهيونية تستعمل الافكار الاشتراكية أحيانا للانتشـار فان الشيوعيين ليسوا حلفاء للصهيونية • ويستعمل ناصر العداء الشعبى للصهيونية ويوجهه ضد الشيوعية التى تبناها خصومه السياسيون • ومع ذلك فان هـذا الربط بين الصهيونية والشيوعية لا يمثل عنصرا جوهريا فى تصـوره للصهيونية بدليل أنه لما سئل عنـه بعد انتهاء معركته مع قاسم لم يجب عنه نظرا لانتهاء الموضوع بانتهاء المعركة(٨) •

٤ — التحالف مع الرجعية :

وكانت مأساة ١٩٤٨ أكبر دليل على أن الرجعية العربيـة أكبر حليف للصهيونية • فقد كان الفساد والغدر والخيانة من أهم أسباب الهزيمة الاولى فى فلسطين • لم يحارب الجيش ، وراح ضحية الغـدر والخيانة والهدنة ، وخسر العرب الحرب نتيجة للانهيار والفسـاد السياسى الذى كان نتيجة للفسـاد الاجتماعى • لقد باع الملك عبد الله العرب وفلسطين الصهيونية واسرائيل • فكان قائدا للجيوش العربية • أمر بالانسحاب من اللد والرملة ، وقبل الهدنة ، حفاظا على العرش • وكان البعض الآخر يدخل المعركة بلا دبابات مع أن العرب كانوا يملكون المال • وكان باستطاعة الفلسطينيين شراء الطائرات •

---

(٨) جـ ١ ص ١٢٥ فى ١٩٥٤/٤/١٩ ، ص ١٨٧ فى ٥٤/٧/٢٩ ، ص ٢٢٠ فى ١٩٥٤/٩/١٣ ، جـ ٢ ص ٧٠٣ فى ١٩٥٩/١٢/١٣ ، ص ٤١٠ فى ٥٩/٤/٢٥ .

ثم أخذ البعض الآخر فيما بعد يؤيدون فلسطين بالخطب المنمقة وبتسمية اسرائيل « اسرائيل المزعومة » حتى يتأثر العرب وتنبعث الطمأنينة فى نفوسهم • ويصيح ناصر « اتجهوا الى العمل لانقاذ فلسطين » • سلم الاستعمار اليهود فلسطين ولم يفعل العرب شيئا ، انخدعوا وراء الكلام المعسول ، وضللهم زعماؤهم حرصا على مآربهم الشخصية ، ولم يستعملوا سلاح البترول •

وأراد الاستعمار أن يشطر العالم العربى شطرين • فأقام اسرائيل لقطع كل المواصلات البرية بين مصر والدول العربية شرق السويس • كان منطق الاستعمار فى زرع اسرائيل هو تمزيق الوحدة الجغرافية للعالم العربى من ناحية وأن يقيم لنفسه وسط العالم العربى من ناحية أخرى قاعدة يهدد منها الشعوب العربية وحتى يأمن مخاطر الوحدة العربية ، وليفصل بين عرب آسيا وعرب افريقيا ويقضى على القومية العربية ابتداء من القضاء على فلسطين(٩) •

لذلك كانت معارك التحرر العربى — كما يرى عبد الناصر — تهدف كلها الى تحرير فلسطين • فاذا كانت فلسطين قد ضاعت فى ١٩٤٨ بفعل الخيانة والغدر والتحكم واحتكار السلاح ، واستطاعت العصابات الصهيونية اغتصاب فلسطين ، وهزمت سبع جيوش عربية بسبب الخيانة ، خيانة الملوك ، وفساد النظم بالرغم من البيانات عن تحرير فلسطين فان كل معارك العرب اليوم من أجل القضاء على الاستعمار

---

(٩) ج ٢ ص ٢٨١ — ٢٨٢ ، ص ٨٧ — ٨٩ فى ١٩٥٣/١٢/١٣ ، ص ٢٥٣ فى ٦٠/١٠/١٢ ، ص ٢٣٢ فى ١٩٦٠/٩/١٧ •

وأعوانه والاجراء وخدام الاستعمار • بل ان معارك العرب ضد الطائفية والانفصالية والانقسامية كلها من أجل تحرير فلسطين لان اسرائيل تعلم أن الوحدة العربية والقومية العربية خطر عليها • فمن أجل فلسطين حارب العرب فى ١٩٤٨ فاكتشفوا قوتهم وضعفهم ، قوتهم فى الوحدة والشرف وضعفهم فى الفرقة والغدر • كان شعور العرب فى فلسطين انه لابد من الثورة السياسية والثورة الاجتماعية حتى تنتصر الثورة العربية • ويعبر عبد الناصر فى فلسفة الثورة عن تمزقه وهو يعيش بخياله فى مصر حيث كان الحكام فى ذلك الوقت والانتهازيون يتاجرون بالقضية ، ويشترون الاسلحة الفاسدة • ويجمعون المال • كان القتال فى القاهرة وليس فى فلسطين • لذلك كانت الثورة المصرية رد فعل علي مأساة فلسطين • وكما يتضح ذلك من « فلسفة الثورة » عندما كان يسرح خيال الضباط الاحرار فى مصر ، بؤرة الفساد السياسى والاجتماعى فى ذلك الوقت ، للقضاء على عملاء الاستعمار والخيانة ، والقيام بثورة سياسية واجتماعية فى مصر • « ولكى نكسب معركة فلسطين لابد من كسب معركة التحدى السياسى والاقتصادى والعسكرى » • فعلى ربى فلسطين ، وفى سهولها ووديانها ، وفى خضم مأساتها ، وفى معترك الخيانة والغدر والفساد ظهرت حركة الضباط الاحرار ، وتجمعت عناصر الثورة • وبدأ المتطوعون يقتفون أثر البطل أحمد عبد العزيز ، كان أغلبهم من الضباط الاحرار • وكان كمال الدين حسين أولهم • واستشهد عدد منهم • فبفضل مأساة ١٩٤٨ وقضية فلسطين بدأت بواكير اليقظة العربية(١٠) •

---

(١٠) ج ١ ص٧٣٠ فى ١٩٥٧/٩/١٧ ، ج ٣ ص ٢٩٣ فى ١٠/١٩/

ونتيجة لذلك تحالفت الصهيونية مع الرجعيـة لضرب حركـة التحـرر العربى ، والقضـاء على الثورة العربيـة وانهاء التجـربة الاشتراكية فى مصر . فقد كان ناصر يرى أن التحرر العربى مقدمـة لتحرير فلسطين ، وأن كل ثورة عربية هو رصيد لقضية فلسطين . فكما أيقظت قضية فلسطين الوعى العربى فان الوعى العربى ، ردا للدين ، ووفاء بالجميل ، يكون شرطا لتحرير فلسطين . قد يأخذ ذلك وقتـا طيلا ، وقد لا يسعف الاستعمار لا ينتظر . لذلك حاول الاستعمار أن يجهض الثورات العربية قبل أن تكتمل لتصفية المقاومة العربية من الداخل ، لقد أدركت اسرائيل خطورة الثورة العربيـة عليهـا اذا ما نجحت فى اجراء التحول العظيم وانتقلت من التخلف الى التقدم لانها تدرك أن التقدم هى القاعدة التى يمكن للامة العربية أن تخوض عليها المعركة ضدها . ظنت اسرائيل الثورة انقلابا عسكريا ولم تدرك انها تغيرا ثوريا وحركة تحرر عربى . كما ان اسرائيل كانت تخشى تقـدم الشعب السورى وقوته وان ينهض صناعيا واجتماعيا لانه حين يتقدم سيكون أشد خطورة عليها . ويذكر ناصر فى ١٩٥٦ مقالا فى المجلـة العسكرية الاسرائيلية بعنوان « الى دمشق » فيقول : اذا أردنا أن نهزم العرب فليس أمامنا الا أن نتجه الى دمشق . وان الغلطة الكبرى التى ارتكبها الصليبيون حينما احتلوا البلاد العربية هـو عدم احتـلال سوريا كها واخضاعها للصليبيين ، وهى الغلطة التى مكنت العرب من

=
١٩٦٠ ، ص ٢٦٩ فى ٦٠/١٠/١٦ ، ج ٥ ص ٢٢٩ فى ١٩٦٥/٣/٩ ، وايضا « فلسفة الثورة » ص ٥٥ — ٦٣ وزارة الارشاد القومى ، مصلحة الاستعلامات ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

الاتحاد والتخلص من الاستعمار الصليبى • وقالت صحيفة اسرائيلية ان الخطر ينبعث من سوريا لان بها المقومات الكبرى للتطور الاجتماعى السريع •

ان تخلف العرب ،هو الذى يضمن لاسرائيل البقاء على الارض العربية الى الابد • وان الخطر الاسرائيلى يتلاشى حتى قبل المعركة العسكرية اذا تمكنت الامـة العربية من أن تخلص نفسـها من التخلف الذى فرضه الاستعمار عليهـا والذى تحاول الرجعية أن تفرضه بعد الاستعمار(١١) •

وتمثل اسرائيل فى تصور عبد الناصر احـدى محاولات تمزيق الصف العربى ، وبث الفرقة بين العرب • فقد زرعت اسرائيل حتى تفصل المشرق العربى عن المغرب العربى ، واحتلت النقب حتى لا يمكن لعرب المشرق الاتصال بعرب المغرب • تسعى اسرائيل لتفريق كلمة العـرب والحيلولة بينهم وبين أن يجتمعوا ويتفقوا ويستفيدوا من تراث بلادهم وما فى مركزهم الجغرافى من منعة • لذلك ظهرت قضية فلسطين فى فكر ناصر بصورة ملحة أيام الوحـدة بين مصر وسوريا فى ١٩٥٨ — ١٩٦١ • وهى الفترة التى بلغت فيها القومية العربية الذروة وأثنـاء قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وأثناء رحلاته الى الاقليم الشمالى ووجوده فى حمص ، وحلب ، وحماة ، ودمشق •

كما انزعجت اسرائيل من تفجر الثورة العربية فى اليمن ومساندة

---

(١١) ج ٤ ص ٥٥١ فى ١٩٦٤/٣/٢٥ •

الثورة العربية فى مصر لها لان تحرك الشعب العربى فى كل مكان كما صرح بن جوريون معناه تطويق اسرائيل • فقد كانت الجنود تهتف عائدة من اليمن : فلسطين •• فلسطين(١٢) •

لذلك عادت اسرائيل الوحدة العربية وهللت للانفصال ، لانها تعلم أن وحدة الامة العربية تهدد وجودها ذاته لانها قامت على أنقاض هذه الوحدة • بل ان اسرائيل كانت وراء الانفصال ، ووجهت نداءات الى شعب غزة للثورة على مصر من أجل تسليمها للملكة الاردنية وبالتالى الى الاستعمار والصهيونية • لقد ضاعت الوحدة والامل لتحرير فلسطين بفعل الطابور الخامس وعملاء الرجعية • فالاستعمار والصهيونية والرجعية تود كلها التخلص من الوحدة العربية • تدافع اسرائيل عن خصوم مصر وتهاجم ناصر ، وتؤيد الانفصال وتهاجم الوحدة •

كانت الغاية النهائية من انشاء اسرائيل ضرب القومية العربية بمضمونها الثورى فى معاداة الاستعمار والتخلف والرجعية والصهيونية، وهى القوة التى بدأ يعمل لها الاستعمار حسابا لاول مرة فى التاريخ • فالصهيونية والقومية العربية على طرفى نقيض مثل الاستعمار والتحرر ، فى وجود اسرائيل ضعف للقومية العربية ، وفى وجود القومية العربية نهاية لاسرائيل • القومية العربية هى اذن الدرع الواقى ضد اسرائيل وأطماعها • ويعترف عبد الناصر بأنه قبل الغارة على غزة فى ١٩٥٥/٢/٢٨ لم يشغل نفسه كثيرا بخطر اسرائيل • وكان يعتبر خطر اسرائيل مشكلة

---

(١٢) ج ١ ص ٣٨١ فى ١٩٥٥/٧/٢٠ .

السباق مع الوقت لبناء الوطن . كان خطر اسرائيل فى حقيقة أمره هو ضعف العرب . ولولا هذا الضعف لما قامت اسرائيل لتغتصب من الوطن العربى بقعة من أقدس بقاعه وأطهر أراضيه . فاذا استطاع ناصر بناء مصر ، هذه الارض الكبيرة التى يحلم ببنائها فان خطر اسرائيل يتلاشى . كانت مأساة فلسطين هى الصحوة الكبرى التى نبهت العرب الى محاولة القضاء على القومية العربية . فوجود اسرائيل وفكرتها تهديد للقومية العربية فى فلسطين من أجل القضاء عليها كلية فى هذه المنطقة . فبعد أن انهارت الدولة العثمانية ، حاولت أوربا تحقيق أطماعها فقسموا البلاد العربية بين فرنسا وبريطانيا . وحاول الاستعمار حينئذ القضاء على القومية العربية فزرعوا الصهيونية وقامت اسرائيل لتقضى على القومية العربية فى فلسطين كمقدمة للقضاء على العرب من النيل الى الفرات بداية بالهجرة ثم التوسع . وبالتالى أشعلت معركة فلسطين نار القومية العربية ، وقالت احدى صحف اسرائيل أنه أثناء احتلال ملوك أوربا لفلسطين وقع خطأ كبير لان القوات الصليبية لم تحتل العقبة وتفصل سوريا عن مصر . فلا مجال مطلقا لان تتحد سوريا مع مصر لان قيام اسرائيل بهذا الوضع لن يمكن التقاء القوى فى مصر مع القوى فى سوريا ، ولن يمكن القومية العربية من أن تجتمع لتتغلب على اسرائيل كما تغلبت من قبل منذ ١٢٠٠ سنة على العدوان الاوربى وعلى جميع ملوك أوربا(١٣) .

---

(١٣) ج ١ ص ٦٩٠ — ٦٩١ فى ١٩٥٧/٧/٢٣ ، ج ٣ ص ٩٨ فى ١٩٦٠/٣/٤ .

ثالثا : النتائج المنطقية والحقائق الفعلية .

ينتج من هذه المبادىء الاساسية والتناقضات الجوهرية السابقة عدة نتائج منطقية يدركها العقل ببداهته وهى فى نفس الوقت حقائق فعلية ووقائع يشاهدها الحس ، وتصدقها التجربة ، يراها كل منصف متجرد عن هواه . كلها تجعل الصلح مع اسرائيل بطبيعتها العدوانية التوسعية وبجرائمها العنصرية فى فلسطين ، وبتحالفها مع الاستعمار والرجعية ، تجعله مستحيلا حتى ولو تم فرض تسوية بالحرب كما حدث بالفعل بعد عدوان ١٩٦٧ . فلا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضة قبل ازالة آثار العدوان واسترداد حقوق شعب فلسطين وتطبيق قرارات الامم المتحدة حتى يقوم السلام على العدل . وكل دعوة للصلح أو للاعتراف كما حدث أيام الشاه وبورقيبة وألمانيا تهدف الى تحقيق أطماع الصهيونية والاستعمار فى المنطقة . وكل فرض للصلح وللمفاوضات المباشرة أو غير المباشرة هو تسليم للعدوان . ولكن الامكانيات العربية وحدها وقدرات الامة العربية وحدها هو الطريق الى الحل العادل الشامل .

١ — شروط الصلح المستحيل :

يرفض ناصر أى حديث عن التسوية السلمية أو اقرار السلام فى الشرق الاوسط ، قبل تحقيق شيئين : الاول ، ازالة آثار العدوان ، وانسحاب اسرائيل من جميع الاراضى العربية المحتلة ، والعودة الى خطوط ما قبل الخامس من يونيو — حزيران ١٩٦٧ : سيناء ، وغزة ، والجولان ، والضفة الغربية ، والقدس الشرقية ، وأى حديث عن التسوية قبل ذلك هو استسلام للعدوان ، ومكافأة على الاعتداء . ويرفض

ناصر فى أية تسوية رجوع سيناء منزوعة السلاح باستثناء ثلاثة عشر كيلو مترا على الجانبين فى سيناء والنقب ، فسيناء تمثل ٣٠٪ من مساحة مصر • كما يرفض أى تعديل فى الحدود بين اسرائيل والدول العربية ، فالضفة الغربية ٧٠٪ من الاراضى الاردنية ، والجولان ١٥٪ من الاراضى السـورية •

والثانى ، استرداد حقوق شعب فلسطين كما أقرتها الامم المتحدة بقراراتها العديدة والتى لم تنل حظ التنفيذ والتى تنص على حق شعب فلسطين فى العودة الى وطنـه والتعويض عن ممتلكاته • ان موقف مصر فى رأى ناصر ثابت لا يتغير ، وهو رفض عقد أية معاهدة صلح مـع اسرائيل الا بعد أن تقـوم اسرائيل باحترام قرارات الامم المتحدة وتنفيذها ، وبعد أن تحترم شروط الهدنة التى تنقضهـا كل يوم • ولكن اسرائيل ما برحت تتحدى الامم المتحدة ، وتواصل غاراتها الوحشية على القرى الامامية التى أثارت سخط الرأى العام العالمى • ان أية مفاوضات مـع اسرائيل يجب أن تكون لاقرار حقوق شعب فلسطين على أساس قرارات الامم المتحدة التى تنص على رجـوع اسرائيل الى الحدود التى تضمنها مشروع التقسيم الاصلى وأن تدفع تعويضات للعرب وتسمح بعودة الراغبين منهم الى ديارهم وتدويل القدس • ومع ذلك فاسترداد حقوق شعب فلسطين ليس فى حاجـة الى مفاوضات بل الى تنفيذ قرارات الامم المتحدة بشأن فلسطين فى ١٩٤٧ وفى ١٩٤٩ • ان حدود اسرائيل المتفق عليها هى حدود مشروع التقسيم فى ١٩٤٧ ، « ليس الامر اذن هو حرب أو سلام ، خطر أو أمان بل هناك طريق ثالث وهو الطريق الى المنطق والحق وطبـائع الاشياء ، وذلك هو طريق ميثاق الامم المتحدة وقراراتها ، ذلك هـو

الطريق المفتوح » • بل ان ناصر يرفض وجود دويلة فلسطينية نتيجة لتفاوض الفلسطينيين مـــع اسرائيل • « فذلك مســتحيل ولا يمكن للفلسطينيين أن يوافقوا عليه • فهم يعرفون أن مثل تلك الدولة ستكون ضعيفة وتحت سيطرة اسرائيل • انما البديل أن تقوم دولة لا تقــوم على أساس دين واحد بل تكون فيها كل الاديان ، ويعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود معا كما عاشوا من قبل قرونا طويلة • ربما يحدث ذلك فى الاجيال القادمة • أما الزعماء الحاليون فهم قصيرو النظر ، ولكن بعض الاسرائيليين يفكرون الآن على نحو آخر • فالاخاء لا يكون على حساب الحقيقة •

لقد طالما ناقش الغرب حق اسرائيل فى الوجود ، وحقها فى الامن ، وحقها فى الحدود المعترف بها ولكنه لم يناقش على الاطلاق حقــوق الشعب الفلسطينى •

وبالتالى فان اقرار السلام بالشرق الاوسط رهن باحترام استقلال البلاد العربية والاعتراف بحقوق شعب فلسطين • ولن يكون هنــاك سلام فى الشرق الأوسط طالما غابت حقوق شعب فلسطين »(١٤) •

ليست المسألة اذن مسألة حل عسكرى ولا تسوية سلمية بــل

---

(١٤) جا ص ٥١ فى ٥٣/٨/٢٢ ، فى ١٩٥٥/١١/١٢ ،ص ٤٣٣ — ٤٣٤ فى ٥٥/١١/١٨ ، ص ٤٥٥ — ٤٥٦ فى ١٩٥٦/٢/٢٧ ، ص ٧٧٤ فى ١٩٥٨/١/٢٧ ، ج ٣ ص ١ — ٢ فى ٣/٨/ ١٩٦٠ ، ج ٦ ص ٣٣٨ فى ١٩٦٨/٣/٤ •

مسألة عدوان وقع على شعب • وردا على سؤال : كيف تأملون فى حل نزاعكم مع اسرائيل نهائيا بالمفاوضات السلمية أو بالحــرب ؟ وعلى سؤال : لماذا تريدون القاء اليهود فى البحر ؟ ألا يمكن قبول الامر الواقع والاعتراف باسرائيل أم أن الحرب هى الحل الوحــيد ؟ شرح ناصر أبعاد الجريمة العنصرية التى تمت فى فلسطين ليكسر بها حدة الدعاية التى أغرقت بها الصهيونية شــعوب العالم مبينا أن مشكلة فلسطين لم يحدث مثلها فى التاريخ • فقد كانت بريطانيا قائمة على الانتداب فى فلسطين ، وكان الشعب الفلسطينى يمثل ٩٠٪ أو أكثر من سكان فلسطين والاسرائيليون ١٠٪ • فبتحالف الاستعمار والصهيونية على طرد شعب فلسطين من فلسطين واعطاء البلاد لاسرائيل لاقامة دولة مبنية على الدين كيف يمكن الاعتراف بالامر الواقع على هــذا النحو ؟ هناك أكثر من مليون عربى طردوا من فلسطين ، سلبوا أملاكهم ، وتعرضوا للعدوان ، وتعرض أولادهم ونساؤهم للقتل لانهم طردوا تحت الارهاب فى ١٩٤٨ • ثم اتخذت الامم المتحدة قرارات عن طريق مجلس الامن تنص على عودة الفلسطينيين الى بلادهم ، وتعويضهم عن أملاكهم التى اغتصبت • فضرب بهذا الكلام عرض الحائط بل ان الامم المتحــدة قررت أيضا فى آخر ١٩٤٨ تكوين لجنة للتوفيق بين العرب واسرائيل واجتمعت فى لوزان وكانت تتكون من الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا وتتبع الامم المتحدة • بعد اجتماع واحد رفضت اسرائيل حضــور اللجنة ، وأعلنت أنها لن تســمح لاى فلسطينى بالعودة الى وطنه • وفى اسرائيل اليوم ٢ر٦ مليون اسرائيلى بالاضافة الى ٢٠٠ ألف عربى يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية فى مناطق مقفلة خاضعة للحكم العسكرى • هناك تمييز عنصرى ضدهم • لا يستطيعون أن يعملوا فى

الاعمال التى يريدونها أو أن يتحركوا من مكان الى مخر • هل يرضى الانجليز أو الامريكيون أن يحدث ذلك فى بلادهم والى مواطنيهم وأن يحل آخرون محلهم على بقعة من وطنهم ؟ وينتهى ناصر قائلا « اننا نعتقد أن السلام لا يمكن أن يقوم الا اذا كان قائما على العدل ••• واذا كان هناك من يريد أن يتحدث عن السلام فى الشرق الاوسط فليس له أن ينسى العدل فى الشرق الاوسط والسلام الذى لا يقوم على العدل معناه التهديد باستخدام القوة » (١٥) •

ولم يتنازل عبد الناصر عن منع مرور السفن الاسرائيلية بقناة السويس وربط ذلك بقضية فلسطين • ولم يتزحزح عن ذلك قيد أنملة منذ بداية الثورة المصرية وهى فى أوج انتصاراتها حتى هزيمة يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، « اسرائيل لن تمر من قناة السويس ، وفلسطين جزء من الامة العربية » • لقد رفضت اسرائيل القيام بالتزاماتها وتنفيذ قرارات الامم المتحدة بشأن حقوق شعب فلسطين ، العودة أو التعويض• فلم تقبل اعادة اللاجئين الى أوطانهم كما لم تعوضهم عن ممتلكاتهم • فمسألة حرية الملاحة بقناة السويس هى مسألة فلسطين برمتها • فاسرائيل تريد الحصول من العرب على كل شيء ولا تريد أن تعطى العرب شيئا • وقد حدث أن أرادت اسرائيل اختبار صلابة الجمهورية العربية المتحدة وتحدى ارادتها فأرسلت سفينتين للحدود فاحتجزهما ناصر فى بورسعيد ورفض تفريغ شحنتيهما لانهما ملك لشعب فلسطين ، وجزء من تعويض ممتلكاتهم التى استولت عليها اسرائيل • وبعد

---

(١٥) ج ٤ ص ٤٥٨ — ٤٥٩ فى ١٩٦٣/١٠/١ •

عدوان ١٩٦٧ رفض ناصر أن تفتح قناة السويس للملاحة الدولية طالما أن هناك جنديا أجنبيا فى أرض عربية • لن نستخدم قناة السويس الا اذا جلت القوات المتدية عن الاراضى التى اعتدت عليها واسترد ناصر مضايق تيران التى حلت فيها قوات الامم المتحدة منذ العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ • وأغلق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية لانه مياه اقليمية عرضه ثلاثة أميال والمياه الاقليمية ستة أميال • ولقد كان مرور علم العدو أمام قواتنا أمرا لا يحتمل فضلا عن دواعى أخرى تتصل بأعز أمانى الامة العربية • وان اتفاقيات القسطنطينية فى ١٨٨٨ حول حرية الملاحة فى الممرات المائية لا تنطبق على مصر لان مصر فى حالة حرب مع اسرائيل • وان أى لجوء الى محاكم العدل الدولية لهو تعد على السيادة المصرية • « ولن نسمح لاسرائيل مهما كان الثمن ومهما كانت التكاليف أن تمر فى قناة السويس • ان المرور فى قناة السويس جزء لا يتجزأ من قضية فلسطين الاصلية وليس جزءا من ازالة آثار العدوان »(١٦) •

٢ ــ ادانة محاولات الصلح :

وقد أدان عبد الناصر كل محاولات الصلح مع اسرائيل أو الاعتراف بها وهى الدعوات التى روجها شاه ايران السابق والحبيب بورقيبة فى أوج صراعه مع عبد الناصر داخل العالم العربى أو التى حاولتها ألمانيا الغربية والتى دفعت عبد الناصر بقطع علاقته معها

---

(١٦) جـ ٣ ص ١٨٢ فى ١٩٦٠/٥/٧ .

والاعتراف بالمانيا الشرقية • وكل دعوة من هـذا النوع انما تهدف الى تحقيق أطماع الاستعمار والصهيونية وتثبيت لاركان الصهيونية •

كانت أول دعوة للصلح مع اسرائيل دعوة الرئيس بورقيبة فى ١٩٦٥ • فبالرغم من قبول عبد الناصر الدعـوة الى تونس للاحتفال بذكرى جلاء الفرنسيين عن بيزرت وتغليبا لوحـدة العمل العربى ، وبالرغم من رد بورقيبة الزيارة لمصر أدلى بتصريحات عن فلسـطين صدمت الامـة العربية فى مرحلة كانت القضية الفلسطينية فيها تمر بمرحلة حاسمة : تجمـع استعمارى صهيونى لتصفية قضية فلسطين ، تزويد اسرائيل بالسـلاح • مع أن بورقيبة وافق فى مؤتمر القمـة العربى الاول على اعتبار قيام اسرائيل هـو الخطر الاساسى الذى أجمعت الامـة العربية على دحره • كما وافق على مقررات مؤتمر القمة العربى الثانى الذى حدد الهدف العربى بأنه هدف نهـائى ، وهو تحرير فلسطين من الاستعمار • كما ارتبط بقرارات عدم الانحياز فى أكتوبر ، وأعلن تأييده لاسـتعادة حقوق الشعب الفلسطينى ، وتأييد الشعب العربى الفلسطينى فى كفاحه ضد الاستعمار والصهيونية •

وفجأة طالع بورقيبة العـالم العربى بتصريحات : التعـايش السلمى مع اسرائيل ، التفاوض مع اسرائيل ، الاعتراف باسرائيل ، مطالبة الدول العربية بالتعـاون مع اسرائيل ، اقامة علاقات اقتصادية بين العرب واسرائيل • وقال أنه لما ذهب الى الاردن وزار اللاجئين فى أريحا اكتشف الحل : الاعتراف باسرائيل والتعايش معها • وقـدم عدة حجج أهمها أن قضـية فلسطين ظلت سبعة عشر عاما بلا حـل فتعفنت ولا مخرج لها من كفنها الا بالاعتراف باسرائيل ! وانه أراد

أن يخدم العـــرب بتحريك القضية ! ويرد ناصر على ذلك بأن هـــذا الكلام لا يخدم العرب بأى حال من الاحوال . صحيح أنه يحـــرك القضية ولكن لصالح اسرائيل . فاسرائيل تأخذ هذا الكلام وتعرضه على الدول الافريقية والاسيوية التى أيدتنا فى مطالبنا بالنسبة لقضية فلســـطين كى ترجع عن تأييدها بسبب أن رئيس عربى تبنى وجهـــة نظر اسرائيل . كما ادعى بورقيبة أنه يود احراج اسرائيل حتى تعترف هى بحق شعب فلسطين بعد أن اعترف العرب بها . ويرد ناصر على هذه المداخلة بمؤتمر لوزان فى ١٩٤١ فى اللجنـــة التى كونتها الامم المتحدة « لجنة التوفيق » لتنفيذ قرارات الامم المتحـــدة : جلست اسرائيل فى اللجنة الى أن قبلت عضوا فى الامم المتحدة ثم غادرتهـــا ورفضت تنفيذ القرارات . كما رفضت اسرائيل تنفيذ مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ التى تنص على ضرورة تنفيذ قرارات الامم المتحدة . ويقدم بورقيبة حجة ثالثة بأن هذا الاعتراف يولد ضغطا على اسرائيل . ويرد ناصر بأن الدول العربية لم تضغط على اسرائيل ، ولم تمنـــع الدول الغربية مساندتها السياسية والعسكرية لاسرائيل . كما لم تضغط أمريكا على اسرائيل منذ ١٩٤٩ حتى الآن بل أعطتها كل ما لديها من امكانيات لاستمرار بقائها فى الوجود . ويدعو بورقيبة للتفاوض والجلوس مع اسرائيل حتى تضيع حجتها بأن العرب يرفضونها . كما يدعو الى التعايش معهـــا والتعامل الاقتصادى معها والاعتراف بهـــا . ويرد عبد الناصر بأن ذلك كان دائما مطلب اسرائيل . وقد صرح بن جوريون بأنه مستعد للتفاوض مع أى قائد عربى بلا قيد أو شرط . وكل عام تطالب اسرائيل فى الامم المتحدة بالتفاوض مع العرب . لقد تبنى بورقيبة اذن موقف اسرائيل دون أن يأخذ شـــيئا للعرب . لقد خرج بورقيبة عن الاجماع

العربى ، وأصبح منفذ خطط الصهيونية والاستعمار فى المنطقة • واتبع سياسة الانتهازية واللعب بقضايا المصير • وأراد أن يبيع القضية بلا ثمن • فقد الثقة فى قوته وفى قوة الامة العربية ، وأراد للعرب أن يكونوا أذيالا للغرب ، ولا قيمة لشعب يكون تابعا لاحد • يمثل طابورا خامسا داخل المجموعة العربية ، والافضل له أن يظل خارجها لا داخلها • لا يريد الجامعة العربية ، ويريد أن يظل خارجها لان الجامعة لا فائدة منها • ان الجامعة العربية أداة توحيد وتنسيق للجهود العربية وليس من مصلحة العرب تمزيقها • وكانت النتيجة أن « انعزل بورقيبة ، انعزل شعبيا عن الامة العربية » •

ان قضية فلسطين لا تقبل المساومات أو التجارة بها • قد كان هدف الدعوة للصلح ضرب القوى الثورية وتصفيتها ، والقضاء على وحدة العمل من أجل فلسطين ، والتشكيك فى القيادة العربية الموحدة • اذا كانت الدول العربية فى الماضى فى رأى ناصر قد تهاونت فى حقوق شعب فلسطين فلانها كانت أيضا خاضعة للاستعمار • ولكن تحررت الدول العربية الآن • والدعوة للصلح تدعو العرب لليأس من الحاضر بعد ما بدأت القضية الفلسطينية تتحرك ، وبعد ما ظهر الكيان الفلسطينى ، وبعد ما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية تعمل • كانت خطة الاستعمار والصهيونية دائما تصفية قضية فلسطين • ولا يمكن أن تصفى قضية فلسطين الا بتصفية شعب فلسطين(١٧) •

---

(١٧) جـ ٥ ص ٢٨١ — ٢٨٥ فى ١٩٦٥/٥/١ ، ص ٣٦٨ — ٣٦٩ فى ١٩٦٥/٧/٢٢ ، ص ٤٠٢ فى ١٩٦٥/٨/٢٩ ، ص ٤٣٦ فى ١٩٦٥/١١/١٨ ، ص ٥١١ — ٥١٢ فى ١٩٦٦/٢/٢٢ ، ص ٥٣٢ — ٥٣٣ فى ١٩٦٦/٣/٢٢ • جـ ٦ ص ٣٥ فى ١٩٦٧/٢/٤ •

أما الشاه فقد أعلن فى ١٩٦٠ اعترافه باسرائيل • فقطعت مصر علاقاتها السياسية معه بالرغم من وجود علاقات بين مصر وبعض الدول الاخرى المعترفة باسرائيل ومنها أمريكا والاتحاد السوفييتى • وذلك لان الشاه يتاجر بالدين ، ويضلل المسلمين باسم الاسلام • كان الشاه قد اعترف باسرائيل فى ١٩٥٠ ثم جاءت حكومة مصدق فى ١٩٥١ وسحبت اعترافها ، وأغلقت القنصلية الاسرائيلية فى طهران • ولكن بعد عودة الحكم الرجعى فى ١٩٥٣ عادت العلاقات التجارية والثقافية ، وفتحت الوكالة اليهودية فرعا لها فى طهران • وفتحت دولة اسلامية من دول حلف بغداد كل مجالات العمل مـع اسرائيل ، وتساعدها ضد الوطن العربى حتى أصبحت طهران فى عهد الشاه قاعدة اسرائيلية •

وقد كان الغرض من ذلك هو ادخال المنطقة كلها فى نظم دفاعية موالية للغرب بما فى ذلـك اسرائيل • فقد نشرت جريدة « هاعام » أنه قد تم توقيع اتفاقية سرية بين اسرائيل وايران فى ١٩٦١ فى مطار طهران ، وكان بن جوريون وهو فى طريقه الى بورما قد مر على طهران • ونشر الخبر فى ١٩٦١/١٢/٦ • ثم عرف السر بعد ذلك من الزيارة فى ١٩٦١/١١/٦ بالرغم من أن الصحف الايرانية ادعت أن السبب كان تعطيل المحركات • والحقيقة أن الزيارة كانت مرتبة ، واشترك فيهـا رئيس أركان حرب الجيش الايرانى وممثل ايران فى الحلف المركزى لدراسة دور اسرائيل فى النظم الدفاعيـة لبلدان الحلف المركزى • وضرورة تعزيز التعاون الاقتصادى والسياسى والعسكرى بين البلدين •

كان الغرض اذن من تسوية الامور بين العرب واسرائيل هو قيام نظم دفاعية عن المنطقة تشترك فيها اسرائيل والدول العربية وأمريكا •

وقد رفض ناصر ذلك كله لان العالم العربى يرفض سياسة الاحلاف، ويرفض الدخول فى مناطق النفوذ • وطالما وقف أمام حلف بغداد ، وحلف ايزنهاور للدفاع عن الشرق الاوسط • فاسرائيل تشطر العالم العربى شطرين • ينبغى لمصر والبلاد العربية أن تحصل على مواصلات برية وحيوية لتجارتها ورخائها ولنظمها الدفاعية من أجل الدفاع عن الشرق الاوسط • هذا الدفاع الذى يقع على كاهل شعوب المنطقة وحدها• وسيواصل العرب مشروعاتهم الدفاعية بصرف النظر عن اسرائيل • ان العرب قادرون على مقاومة سياسة « الضغط من أجل الصلح » ، وقادرون على الدفاع عن بلادهم بالتعاون فيما بينهم فى ميثاق الضمان الجماعى العربى فى حالة أى اعتداء يقع عليهم(١٨) •

وقد حاولت ألمانيا اقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل والاعتراف بها والتهديد بقطع المعونات الاقتصادية عن العرب اذا هم قاموا بالرد عليها • ويسمى ناصر هذا الاسلوب « أسلوب المساومات » ، وهو أسلوب لا يحقق الاهداف خاصة اذا كانت تتعلق بحرية الشعوب وحقوقها •

« واذا كنا سنعامل ألمانيا بأسلوب المساومات كى تعطينا ماركات أو دولارات فهل نستطيع أن نحافظ على قوميتنا فى العالم • اننا على ثقة بأن ألمانيا تستطيع أن تقول ان الدولة التى تسكت فى هذه

---

(١٨) جـ ٥ ص ٥٠٨ فى ١٩٦٦/٢/٢٢ ، جـ ١ ص ٢٢٠ فى ٥٤/٨/١٣ ، ص ١١٩ — ١٢٠ فى ١٩٥٤/٤/١٩ •

الازمة والتى تخرج على الاجماع العربى نعطيها ٢٠ مليون أو ٣٠ مليون دولارا • ولكن سنأخذ العشرة مليونا ذظير شرفنا ومبادئنا وهيبتنا وكرامتنا ••• لن نساوم فى قضية العرب ولن نساوم فى قضية فلسطين لان المساومات لن ترضى عنها الامة العربية ولن ترضى عنها أبدا • حاولت ألمانيا بهذه الرشاوى الصغيرة تفريق صفوف العرب ، وحاولت بالدولارات تصفية القضية الفلسطينية » • ان خطورة المساومات فى ذهن ناصر — هو التخلى عن المبادىء ، ولما كانت مصر تسير على المبادىء فانها قطعت علاقاتها بالمانيا الغربية بعد اعترافها باسرائيل ، ووضعت أموالها تحت الحراسة ، واعترفت بالمانيا الشرقية بالرغم من تحفظ ثلاث دول وسط الاجماع العربى • لقد قادت مصر الحملة ضد اعتراف ألمانيا الغربية باسرائيل • فاجتمع العرب فى ابريل ١٩٦٤ بالجامعة العربية ، وقرروا انه اذا اعترفت ألمانيا باسرائيل أو اذا أقامت لها تمثيلا قنصليا فانهم سيتخذون من ألمانيا موقفا شديدا يتناسب مع اللطمة التى توجهها للعرب • وحينما اجتمع رؤساء الحكومات العربية من ٩ — ١٢ يناير ١٩٦٥ قرروا أن يواجهوا ألمانيا اذا استمرت فى تقديم السلاح الى اسرائيل أو اذا اعترفت باسرائيل • كما اجتمع سفراء الدول العربية فى ديسمبر ١٩٦٤ فى بون وقرروا أن تتخذ الدول العربية موقفا شديدا مع ألمانيا اذا استمرت فى مد اسرائيل بالسلاح أو اذا اعترفت باسرائيل • ويقول ناصر : « اذن من يقول اليوم اننا قمنا بمواجهة ألمانيا بدون أن نتشاور مع الدول العربية انما يريد أن يموه على العرب ويحول المعركة الى معركة أخرى »(١٩)

---

(١٩) جـ ٥ ص ٢١٣ — ٢١٤ فى ١٩٦٥/٣/٨ ، ص ٢٤٨ — ٢٥٠ فى ١٩٦٥/٣/١٢ .

٣ — رفض التفاوض تحت الاحتلال :

لقد حاولت اسرائيل فرض الصلح على العرب بعد عدوان ١٩٦٧ ٠ وكان قادتها ينتظرون استسلام العرب ٠ ولكن كل صلح فى هذه الحالة — فى رأى ناصر — كان قبولا للعدوان ، واستسلاما لشروط المنتصر ، واعترافا بالهزيمة ، وضياعا للحق ٠ ومن هنا خرجت شعارات ناصر : ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة ، لا صوت أعلى من صوت المعركة ، السلام لا الاستسلام ، السلام القائم على العدل ، ازالة آثار العدوان ، ارادة الصمود ٠ وقد قال بن جوريون انه يريد فرض السلام واجبار العرب على قبول الامر الواقع ٠ وفى رأى ناصر ان فرض السلام يعنى العدوان وشن الحرب على العرب ٠ ان جيش مصر وشعب مصر ليفنيان عن آخر رجل وآخر امرأة لرد العدوان بالعدوان ٠ ولطالما اتخذت اسرائيل الهدنة ستارا للعدوان ٠ واذا كانت هناك مفاوضات فعن طريق لجان الهدنة لايقاف العدوان ٠ لذلك لم تشأ اسرائيل تحديد حدودها حتى يمكنها شن الحرب والتوسع ٠ بل ان الامم المتحدة تنظر الى حدود اسرائيل كخطوط للهدنة لا كحدود فعلية ٠ ان خطر اسرائيل واضح أمام العرب منذ ١٩٥٥ ، وأطماعها فى التوسع لم تعد خافية ٠ ان أية مفاوضات تحت تهديد العدوان مستحيلة ٠ فالعدوان الاسرائيلى على الاراضى العربية وعلى الحقوق العربية قائم ولم تعد بادرة ما توحى بعدول اسرائيل على ما فعلته أو استعدادها للرجوع عنه ٠ والعرب لا يثقون باسرائيل ، وسجلها معهم معروف ٠ لقد كانت الدعوة الى السلام مقترنة دائما فى عرفها بالاستعداد للحرب كما حدث قبل العدوان الثلاثى بأيام قليلة عندما أعلن رئيس وزراء اسرائيل فى الكنيست الاسرائيلى بيانا قال فيه « انه على استعداد

لان يطير لمقابلتى من أجل السلام » • وكان فى ذلك الوقت مشغولا الى قمة رأسه بالتحضير للعدوان الثلاثى المشهور ضد مصر • ان السلام يعنى اتفاقا بين طرفين مستقلين لا بين طرفين أحدهما يحتل الآخر ويهدده بالعدوان • فلا يمكن التفاوض بين من يقوم بالاحتلال وبين من يقع عليه الاحتلال ، كما لا يمكن أن يحل السلام بينهما • ومن هنا كانت مقررات الخرطوم التى أصبحت موضعا للسخرية بعد ذلك بسنوات « لا اعتراف باسرائيل ، ولا صلح معها ، ولا مفاوضة ، ولا تصرف بالقضية الفلسطينية لانها ملك شعب فلسطين »(٢٠) •

ويرفض عبد الناصر سياسة « التسليم بالامر الواقع » وهى سياسة الاستعمار والصهيونية • يقول الاستعمار ان اسرائيل حقيقة واقعة ويرد عبد الناصر ولكن القومية العربية أيضا حقيقة واقعة • فلماذا يعترف الاستعمار بالاولى دون الثانية ؟ ولماذا يسلم بالامر الواقع فى الاولى دون الثانية ؟ ان فلسطين ، وشعب فلسطين، وحقوق شعب فلسطين كل ذلك أمر واضح يجب التسليم به • يقول ناصر فى استقبال القوات العائدة من اليمن « ان السلام الذى لا يمكن أن يكون على الارض العربية سلام غيره هو السلام الذى يعود به الحق الى أصحابه فى فلسطين • ولن نقبل مهما كانت الظروف سلام الامر الواقع • فمثل ذلك السلام ليس سلاما حقيقيا وانما هو عدوان يتستر ضلالا بأردية السلام • ولن تتقبل أمتنا أى ضلال • ان السلام

---

(٢٠) ج ٣ ص ١ — ٢ فى ١٩٦٠/٢/٨ ، ج ٦ ص ٢٩٢ فى ١١/٢٣/ الاولى كتبت فى خريف ١٩٨٧ •

الذى تريده الامة العربية على الارض العربية لا يمكن الا أن يكون سلاما عربيا فى نواياه وفى أهدافه وارادته • ولن تستطيع قوة من القوى أن تفرض علينا ما تسميه سلاما • ان السلام لا تفرضه حرب العدوان • والسلام لا تفرضه قوة الدول الكبرى التى شعرت بنفسها قدرة التدخل فى شئون غيرها من الشعوب • ان على الامة العربية كلها أن تحمى الوديعة الغالية التى قدمتها اليها تضحيات الرجال وجهودهم حتى بالحياة • وحين تجد انحرافا مع الهوى أو انسياقا مع المطامع الاستعمارية أو تلاعبا بالاهداف الكبرى وخصوصا من جانب عناصر تفترض انها من قوى الثورة فانها لا تعتبر ذلك تورطا سياسيا أو حزبيا فحسب وانما تعتبره اساءة الى شرف التضحيات التى بذلها البواسل من الرجال الذين حركوا المد الثورى العربى من جديد بعد نكسة الانفصال « وانى لاثق ساعتها أن الامة العربية اذا غفرت أى شىء فلن تغفر مهما طال المدى أى اساءة الى شرف التضحيات العظيمة فى ميدان القتال »(٢١) •

ويرفض عبد الناصر جميع أشكال المفاوضة ، مباشرة أو غير مباشرة ، بصيغة رودس أو بصيغ جديدة ، لان الجلوس على مائدة المفاوضات مع اسرائيل تعنى التسليم بشروط المنتصر ، وتنفيذ ارادته • لم تقبل اسرائيل تنفيذ قرارات الامم المتحدة وصممت على تنفيذ استراتجيتها المعروفة عنها وهو تحقيق السلم بالقوة أو تحقيق الوصول الى اتفاق بالقوة • فبالحرب يريدون اجبار العرب على توقيع وثيقة

---

(٢١) ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ فى ١٩٦٠/١٠/١٩ ، ج ٤ ص ٣٥٥ فى ١٩٦٣/٥/٢٠ •

استسلام بهدف كسر ارادة الصمود • يريدون المفاوضة من أجل المفاوضة باسم المفاوضة من أجل السلام • والجلوس للتفاوض مع العدو الذى يحتل الارض معناه املاء شروط المنتصر ، لقد أحبطت اسرائيل مهمة يارنج سفير الامم المتحدة الذى عهدت اليه مهمة تنفيذ قرار الامم المتحدة الذى صدر بعد عدوان ١٩٦٧ • وفسرت القرار على أنه ينص على المفاوضة ، المفاوضة على تنفيذ نصوص الاتفاق ، وذلك من أجل تحقيق الهدف السياسى من نصرها العسكرى وهو التفاوض المباشر وتوقيع معاهدة صلح • ولكن اسرائيل لم تستطع حتى الآن أن تحقق هذا الهدف السياسى مع أى من الدول العربية المحيطة بها — هكذا كان يظن ناصر — • ولماذا تنسحب اسرائيل من الاراضى التى احتلتها بعد أن حصلت على نصر عسكرى ساحق على أمل أن تتغير الاوضاع أو الانظمة فى العالم العربى ، وتأتى أنظمة أخرى تقبل أن توقع معاهدة صلح معها ؟ تعلم اسرائيل أن الاحتلال راسخ على قلب كل عربى ، كابوس ثقيل • وقد يؤثر ذلك فى الجبهة الداخلية مما يمكنها بالتعاون مع القوى الامبريالية والاستعمارية من تغيير الانظمة • وطالما ان اسرائيل تعلم أن العرب لم يصلوا بعد الى القوة العسكرية الهجومية الساحقة تظل تسعى الى تحقيق هدفها السياسى من نصرها العسكرى وهو عقد معاهدة الصلح • وحين قبل ناصر العمل من أجل الحل السياسى لم يعن مطلقا بأن ذلك يعنى الاستسلام بل هو الحل السياسى المشرف الذى لا يمكن لاسرائيل أن تأخذ منه بوصة من الارض العربية فى أى بلد عربى • « لا يتقدم العمل السياسى الا بالجبهة العسكرية » • لم يكن ناصر حتى على استعداد لقبول « صيغة رودس » أى المفاوضات غير المباشرة لان ذلك معناه التفاوض على

الاستسلام • وقد رفض الفرنسيون التفاوض مع المحتل أثناء الحرب العالمية الثانية ويقول ناصر « وأنا أرفض أن أكون بيتان فى مصر »(٢٢) •

ولم يستسلم عبد الناصر للضغوط الامريكية من أجل اجـراء تسوية سلمية قبل استرداد حقوق شعب فلسطين • « هؤلاء الذين يتكلمون عن القمح وهم يظنون انهم يبيعونه لنا لكى يسيطروا علينا ، هؤلاء نذكرهم بما فعلنا عام ١٩٥٦ ، واننـــا قبل أن نبنى السد العالى نبنى العزة والكرامة • ونقول لهم انه ليس فى مقدور القمح ولا الذرة التى تأتينا من أمريكا أن تضعفنا عن السير فى طريقنا والوصول الى هدفنا ، وان كل ما فى أمريكا لن يثنينا عن قوميتنا ، وان أهدافنا ثابتة ، وسنسير فيها لتحقيق قوميتنا وتضامننا ووحدتنا واقدامنا ثابتة ، نسالم من يسالمنا ، ونعادى من يعادينا » •

لقد ساعدت الولايات المتحدة اسرائيل بكل الوســائل لتحقيق أهدافها فى الامم المتحدة وخارجها حتى لا يصدر أى قرار وفيه تحديد دقيق بضرورة انسحاب اسرائيل الى مواقع ٥ يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، وأخذت الولايات المتحدة تضغط حتى صدر هذا القرار الغــامض • وهناك محاولات أخرى للضغط على الامة العربية من الولايات المتحدة لوضعنا فى موضع الاذلال ، وفى وضع المهزوم المستسلم حتى نرضخ لشروط اسرائيل ، وتقبل التفاوض معها ، وتقبل عقد معاهدة صلح

---

(٢٢) ج ٢ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ فى ١٩٦٨/٤/٢٩ ، ص ٤٩٤ — ٤٩٥ فى ١٩٦٨/٧/٢٣ ، ج ٧ ص ٢٣ فى ١٩٦٩/١/٢٠ •

معها • والهدف الامريكى اذلال العرب والاستسلام أمام هذه الضغوط(٢٣) •

ومشكلة فلسطين تخص الدول العربية جمعاء ولا يحق لاية دولة عربية أن تنفرد بالتصرف فيها • لذلك كان من أهداف الاستعمار والصهيونية فرض السلام على العرب عن طريق فرض السلام بالقوة على مصر أولا حتى تستسلم فيستسلم العرب ، ويستشهد ناصر بأقوال بن جوريون : « لابد أن يسود السلام مع الجمهورية العربية المتحدة أكبر دولة عربية » ويعلق ناصر : « لانه يشعر اذا استطاع أن يفرض الصلح أو يفرض السلام على الجمهورية العربية المتحدة فان القضية بعد ذلك تكون سهلة وهينة له • وقد اعتدى فى ١٩٥٦ ولكنه لم يستطع أن يفرض السلام أو الصلح وكان الهدف من العدوان فرض الصلح على العرب وفرض التسوية على أساس الامر الواقع • وتبنت اسرائيل سياسة فرض السلام على العرب كسياسة ثابتة ومعنى ذلك الحرب والعدوان مما يثبت أن الحرب لديها هو المعنى الحقيقى للسلام • ان قضية اسرائيل ليست قضية مصر وحدها ولكنها قضية الامة العربية جميعا » •

لذلك كانت المشروعات الامريكية المقدمة كلها تريد أن تحل الموضوع المصرى الاسرائيلى فقط وتأجيل الموضوع الاردنى الاسرائيلى والموضوع السورى الاسرائيلى أى الفصل وتجزئة الحلول بحيث يكون هناك حل منفصل لمصر وحل للاردن وحل لسوريا ، وكلها حلول

---

(٢٣) ج ٣ ص ٣٤٧ فى ١٩٦٨/٣/١٠ .

منفردة • تبدأ بمصر • وقد رفض ناصر هذه الحلول كلها لانها كانت تستهدف اخراج مصر من الموضوع باعتبارها مركز الثقـل السياسى والعسكرى • وبذلك تستطيع الضغوط الاسرائيلية والامريكية أن تحقق ما تشتهيه اسرائيل من ضم أراض عربية جديدة • رفض ناصر تجزئة قضيــة العرب الى عدة قضايا منفصلة ، فالانسحاب يعنى الانسحاب من جميع الاراضى العربية • وقد وضحت الخطة الامريكية فى مشروع روجرز — الذى لم يكن لدى ناصر أى احتمال فى نجاحه نظرا لرفض اسرائيل مبدأ الانسحاب حتى ولو حصلت على الاعتراف والصلح • فبالرغم من أنه ينص على الانسحاب من الاراضى التى احتلتها اسرائيل الى الحدود الدولية التى كانت موجودة لمصر أيام الانتداب فى فلسطين الا أنه ترك تحديد كل شىء فى هــذه المفاوضات يجــرى بين مصر واسرائيل ، وبين الاردن واسرائيل ، وبين سوريا واسرائيل • ومعنى ذلك أنه يضع العرب تحت حق الاعتراض أو حق الفيتو الاسرائيلى خاصة وأن المشروع يورد كلاما عن توحيد القدس دون أن يوضــح الوضع السياسى لها بعد التوحيد • مشروع روجرز يسعى فى حقيقة الامر الى الضغط على العرب ويفتت الوحدة العربية ويجعل الاسرائيليين يتفاوضون من مركز القوة مثل السيف المسلط على رؤوس العرب(٢٤) •

٤ — القوى الذاتية العربية :

يرى عبد الناصر أن القوى الذاتية العربية قادرة على أن تمنع

---

(٢٤) جـ ٣ ص ٢٩٣ فى ١٩٥٩/٢/٢١ ، جـ ٣ ص ١١٣ فى ١٩٦٠/٣/٧ ، ص ١١٧ فى ١٩٦٠/٣/٢١ ، جـ ٧ ص ٣٤٣ فى ١٩٧٠/٤/١٨ •

اسرائيل من تحقيق الهدف السياسى من نصرها العسكرى وتتمثل هذه القوى الذاتية فى الآتى :

● ارادة الصمود ورفض الاستسلام • وقد ظهرت هذه الارادة لدى جماهير ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧ ورفض الهزيمة • يقول ناصر : « ليس يخيفنا أن تكون هناك بقاع غالية من أراضينا تحت احتلال العـدو ولكن يخيفنا أكثر أن تعيش أوطاننا كلها غير منتبهة للخطر المحيط بهـا ، راضية بالاستسلام ، تخلط بينه وبين السلام ، بينما العدو يمضى فى تنفيذ مخططاته العدوانية بغير قتال ، ويحقق ما يريد بغير مواجهة ، وينتصر عليها وهى فى غيبوبة لا تميز فيها بين العـدو والصديق ، بين عزلها عن العالم العربى وجرها الى صلح منفرد مع اسرائيل كما نص على ذلك مشروع روجرز •

● بناء جيش مصر ، وتسليحه ، فما ضاع بالقوة لا يسترد الا بالقوة • لقد حارب العرب فى ١٩٤٨ ، واستشهد منهم الرجال ، وظهر فيهم الابطال وفر العدو ، وبان فى ذلك الوقت المبكر أن جيش العدو ليس بالذى لا يقهر ، وانهم بشر يخافون ، يصيبهم الذعر ، ويفرون من المعارك ، ويتجنبون مواجهة جيش مصر • لم ينهزم جيش مصر فى فلسطين بل قاتل وقاوم • رأى ناصر بعينه كيف كان اليهود ينسحبون منهزمين • ويذكر معركة ١٩٤٨/١٠/٢٦ فى عراق المنشية حين واجهوا اليهود المتفوقين عليهم فى العدة والعتاد ، وناصر ورفاقه فى موقـع محاصر منعزل • ولكنهم تمسكوا بالشرف والواجب والوطن فهزموا المعتدين ، وفر العسكرى اليهودى مذعورا لمجرد رؤية المصريين يقاتلون• فمهزلة ١٩٤٨ لا تقع على عاتق الرجال المقاتلين • لقد اعتمدت اسرائيل

على هذه الخرافة ، هزيمة الجيش المصرى طبقا للمثل المشهور « لا يزال المرء يكذب ثم يكذب ثم يكذب حتى يصدقه الناس ثم يكذب ثم يكذب ثم يكذب حتى يصدق نفسه » . وقد قاتل الجيش المصرى أيضا فى عدوان ١٩٥٦ وحارب فى معركة أبو عجيلة وهو فى أوج الانسحاب ، وقابل العدوان بالعدان ، كما حارب بالقدر الذى سمح له فى عدوان ١٩٦٧ .

● النظم التقدمية فى العالم العربى هى الوحيدة القادرة على التصدى للاستعمار والصهيونية ، فالثورة العربية معادية لكليهما لا تهادن ولا تساوم . لذلك كان الهدف من عدوان ١٩٦٧ هو قلب نظام الحكم فى مصر وسوريا حتى يتم تسليم العالم العربى للنظم الرجعية المتحالفة مع الاستعمار والتى تحرص على مكاسبها قبل حرصها على تحرير فلسطين . ويعترف عبد الناصر بأن ذلك قد يدوم بعض الوقت ولكن الصليبيين مكثوا سبعين عاما . كما كشفت له تجربته الثورية أن فلسطين قد ضاعت فى ١٩٤٨ بسبب هزيمة العرب وليس بسبب انتصار اسرائيل .

● القومية العربية التى حاول الاستعمار وصنيعته الصهيونية القضاء عليها واحلال الصهيونية محلها فى فلسطين العربية . وكما كانت فلسطين أحد أسباب اليقظة العربية فان القومية العربية هى الطريق لتحرير فلسطين . لذلك حرص الاستعمار والصهيونية على تفتيتها ،

---

(٢٥) ج ١ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، ج ٢ ص ٥٣٠ — ٥٣٣ فى ١٩٥٩/٧/٢٦ ، ج ٧ ص ٢ فى ١٩٦٩/٧/٢٣ .

وبث عناصر الفرقة بين البلاد العربية واتهام ناصر بالرغبة فى السيطرة عى العالم العربى حبا فى الزعامة واستيلاء من مصر على باقى البلاد العربية : فكما أيقظت فلسطين الوعى العربى فان الوعى العربى بؤرة القومية العربية هو السبيل لتحرير فلسطين • لذلك شغل ناصر نفسه بقضايا القومية العربية خاصة أيام الوحدة فبرزت قضية فلسطين كرأس للقومية العربية •

● الوحدة العربية التى تجسـد على الصعيد السياسى القومية العربية • لذلك ارتعشت اسرائيل من وحدة مصر وسوريا ، وظنت أن الاوان قد حان لوضعها بين فكى الكماشة • كذلك ارتعدت من القيادة العربية المشتركة ، ومعاهدات الدفاع العربى المشترك لانها تعلم أنها لا قبل لها بحرب على جميع الجبهات ، وبأن العرب قادرون لو أرادوا تجنيد ثلاثة ملايين مقاتل فى مواجهة اسرائيل • وتظل تجربة الجمهورية العربية المتحدة أولى التجارب الرائدة على طريق الوحدة • وفى نفس العام قامت الثورة — يوليو — تموز فى العراق • وتكون الاتحـاد الهاشمى ثم سقط ، ووقفت الوحدة العربية أمام الغرب والشرق ، ومر العرب فى ١٩٥٩ أثناء رحلة ناصر الى سوريا وفى خطابه فى دمشق بأزهى فترات حياتهم •

● القوى البشرية العربية القادرة على العطاء وعلى سد احتياجات المعركة فى الجند والخبرة مهما حاولت اسرائيل فى سياسة التهجير من احضار جميع يهود العالم نظرا لما بينهم من قوميات متنافرة وعنصرية متبادلة ، فى حين أن الامة العربية متجانسة القوى ، قادرة على الحشد والتجنيد لكل متطلبات المعركة • ان البحر البشرى العربى لقادر اذا

ما هاجت أمواجه على ابتلاع أية جزر صغيرة تعترض طريقه أو تظهر على سطحه • وتكون القضية كيف يمكن تحويل الكم العربى الى كيف عربى • بل ان القوى البشرية العربية ذاتها داخل اسرائيل قبل ١٩٤٨ لقادرة على تحويل اسرائيل ذاتها الى دولة يكون أغلب سـكانها من العـرب •

● النفط العربى الذى لم يدخل المعركة حتى الآن فى حياة الزعيم الراحل الا باسلوب تفجير أنابيب التصدير فى معـارك ١٩٥٦ • ولكن طائرات العدو وآلياته تسير بالنفط العربى • والاسطول السـادس الامريكى يحركه النفط العربى • وعائدات النفط مخزونة فى البنـوك الامريكية والصهيونية تستثمر لصالح اسرائيل لزرع الصحراء ، واقامة الصناعات ، وصناعة الاسلحة • لم يحشد العرب الى الآن جميـع امكانياتهم المادية من أجل قضية فسطين • ومازالوا يحاربون بأقل من قدراتهم الفعلية • واسرائيل تحشد كل شىء ، وتجند كل الانصـار ، وتستنفذ جميع الامكانيات بما فيها الامكانيات العربية !

● بروز الكيان الفلسطينى بعد أن حاول الاستعمار والصهيونية تصفية القضية ، وظهور منظمة التحرير الفلسطينية ، وتكوين جيش التحرير فرض على العـالم قضية فلسطين • وتحولت من قضية لاجئين الى قضية شعب له حقوقه السياسية فى تحرير أرضه ، وتكوين دولته ، واختيار نظامه السياسى أى حقه فى تقرير المصير • لذلك حاول الاستعمار تصفية القضية ، وتشريد الشعب ، ومحو الاسم • وكل دعوة للصلح أو للاعتراف كان الهدف منها تصفية القضية • ويشيع الاستعمار أن

فلسطين تخيف العرب أكثر مما تخيف اسرائيل ، والعرب أكثر رفضا لدولة فلسطين من اسرائيل حتى تحدث الفرقة فى صفوف العرب ٠

رابعا : خاتمة : كيف ؟ ومتى ؟

بالرغم من أن الناصرية تمثل لنا نحن فى مصر حلما ما زلنـــا فى يقظته الا أن السؤال الذى يفرض نفسه هو الآتى ٠ اذا كان هـــذا هو موقف عبد الناصر من قضية الصلح مع اسرائيل فلماذا لم تحرر فلسطين وما الذى أخر الزعيم الراحل عن الدخول فى معركة فاصلة كان قادرا عليها بزعامته والثقة التى أولته اياها الامة العربية ؟ ويمكن الاجابة على ذلك على النحو الآتى :

١ ــ بالرغم من أن حركة الضباط الاحرار تبلورت أثناء حـــرب فلسطين فى ١٩٤٨ فقد اندلعت الثورة بالفعل بعد ذلك بأربع ســـنوات الا أن القضية الاساسية فى ذلك الوقت كانت جيوش الاحتلال الرابضة على ضفاف القناة ٠ كانت مصر مستعمرة عسكريا فكان أول ما يشغل بال قادة الثورة الجدد هو جلاء القوات الاجنبية حتى يتفرغوا للتنمية ٠ وكانت احدى حجج بورقيبة التى أقام عليها دعوته للصلح هى : ماذا فعل العرب ؟ وكان رد عبد الناصر : كان العرب مستعمرين يتحررون من الاستعمار مثل فلسطين ٠ وهذا هو الذى أخر معالجة القضية كل هـــذا الوقت ٠ فماذا تستطيع دولة عربية مستعمرة العمل لفلسطين الواقعة تحت أبشع أنواع الاستعمار ؟

٢ ــ كان عبد الناصر يريد انهاء احتلال القوات الاجنبية لمصر وتوقيع معاهدة الجلاء مع بريطانيا سلما ، هذه المعاهدة التى نقـــدها

الشيوعيون والاخوان والوفديون فى مصر وكانت بداية الفرقــة بين التيارات الوطنية التقليدية قبل الثورة والثورة ذاتها ، حتى تتفرغ لعملية البناء الداخلى فى مصر • وكانت حجة ناصر على بعض النصوص المجحفة بمصر فى هذه المعاهدة التى تعطى للغرب حق الرجوع الى مصر فى حالة الحرب لاستعمال قناتها ومطاراتها وأرضها ، انه يريد أن يتفرغ لبناء مصر ، ويريد مساعدة الغرب فى ذلك • وكان نقد ناصر للشيوعيين انهم يتخذون موقف اسرائيل فى رفض معاهدة الجلاء من أجل افساد العلاقة بين مصر والغرب • ومع ذلك رفض ناصر عرض بريطانيا لتمويل السد العالى فى مقابل الصلح مع أسرائيل • فقضية فلسطين مبــدأ لا يمكن المساومة عليه •

٣ ـــ لم يترك الاستعمار لعبد الناصر فرصة لالتقاط الانفــاس وجره الى معارك متتالية فرضتها الظروف ، كل معركة تولد أخــرى وقد أدرك عبد الناصر بالفعل ان محاربة الاستعمار هو فى نفس الوقت محاربة لاسرائيل لانها كما اتضح له « رأس جسر » الاستعمار « ومخلب القط » له •

فجاء العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ والذى تحول بعده عبد الناصر بطلا قوميا ، وزعيما لحركات التحرر فى العالم الثالث كله ثم دخل معارك الوحدة الوطنية فى ١٩٥٨ ، ومعارك الرجعية العربية بعد الانفصــال فى ١٩٦١ ، ومعارك التحول الاشتراكى فى ١٩٦١ ـــ ١٩٦٤ تدعيما للحركة الثورية العربية ، ومعارك الاحلاف العسكرية والحلف الاســلامى فى ١٩٦٥ • وكان آخرها تكالب الاستعمار والصهيونية عليه فى يونيو ١٩٦٧ •

٤ — لما أدرك عبد الناصر أن مأساة فلسطين انما نتجت عن ضعف العرب أكثر مما نتجت عن انتصار اسرائيل فى ١٩٤٨ فان قضية تثوير العالم العربى كانت الطريق الى تحرير فلسطين • كانت اسرائيل تخشى الثورات العربية كلما تفجرت واحدة منها • ولما كانت الثورة المصرية رائدة للثورات العربية فقد عملت اسرائيل على محاربتها كما عمل ناصر على تثبيت أركانها ودعم القوى الثورية كلها فى العالم العربى لتطويق اسرائيل • فقامت ثورة العراق فى يوليو — تموز ١٩٥٨ ردا عى الاعتداء الثلاثى ، وقامت ثورة اليمن فى سبتمبر ١٩٦١ ردا على الانفصال السورى • وقامت ثورة الفاتح فى سبتمبر ١٩٦٩ ردا على عدوان ١٩٦٧ •

٥ — بعد الغارة الاسرائيلية على غزة فى ١٩٥٥/٢/٢٨ أدرك عبد الناصر أهمية السلاح ، ودخل معركة تسليح جيش مصر ، وعقد صفقة الاسلحة التشيكية فى نفس العام • وكان ذلك بداية كسر احتكار السلاح ، والتحول من الغرب الى الشرق كمصدر أساسى للتسليح • وقد كانت سياسة الغرب دائما تسليح اسرائيل بحيث يكون جيشها أقوى من جيوش الدول العربية مجتمعة وهو ما سماه الغرب « ميزان القوى » فى الشرق الاوسط والذى أدرك ناصر معناه ومغزاه • وظل سباق التسلح قائما حتى آخر لحظة من حياة الزعيم الراحل وتدعيم مصر بحائط الصواريخ ضد غارات اسرائيل فى العمق ، واعادة بناء جيش مصر بعد تدمير ٨٠٪ من معداته فى عدوان ١٩٦٧ • بل ان قبوله مشروع روجرز تم وهو يفاوض الاتحاد السوفيتى على صفقات السلاح وبطؤ التسليم ، وتحديد نوع السلاح وكميته كوسيلة ضغط على الاتحاد السوفيتى للحصول على السلاح المطلوب •

٦ — الحروب المتتالية التى أجهضت مصر ، والتى جعلتها كل عشر سنوات أو أقل تعيد بناء جيشها وتبحث عن مصادر جديدة للسلاح فى دول تفرض شروطها ولزعيم يحرص على الاستقلال الوطنى وفى صناعة تتطور يوما بعد يوم • فالعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ لحقه العدوان الاسرائيلى فى ١٩٦٧ • هذا بالاضافة الى حروب مصر الكثيرة اما للدفاع عن نفسها كما هو الحال فى حرب الاستنزاف فى ١٩٦٩ أو للدفاع عن الثورات العربية كما هو الحال فى حرب اليمن أثناء فترة التحول الاشتراكى فى ١٩٦٢ — ١٩٦٤ وكأن الاستعمار أراد لمصر دائما أن تبدأ من الصفر حتى لا يحدث لديها تراكم تاريخى تضيع فيه أشواطها المتعددة حتى تموت سيرا •

٧ — صعوبة التحرك على الساحة الدولية فى مشكلة يصفها العالم بأنها مشكلة لاجئين وتحويلها ابان الثورة المصرية الى « حقوق شعب فلسطين » ، ويعترف باسرائيل بما فى ذلك القوتين العظميين ، الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى ، وفى عالم تسيطر عليه أجهزة الاعلام الغربى بما فيها من نفوذ صهيونى ومصالح دول كبرى لا تسلم بحقوق الشعوب الا اذا هددت مصالحها وفرضت هذه الشعوب نفسها على الساحة الدولية الامر الواقع • لذلك لجأ ناصر باستمرار الى التنويه بقرارات الامم المتحدة المتعددة بالنسبة لحقوق شعب فلسطين • وابتدأت محاصرة اسرائيل فى الساحة الدولية ، وأصبحت قضية فلسطين جزءا من قضايا شعوب آسيا وافريقيا ، واحدى حركات التحرر فى العالم الثالث • فى حين ظهرت الصهيونية كحركة ثورية مضادة ، وحركة عنصرية توسعية ، واستعمار استيطانى له ما يشابهه فى جنوب افريقيا •

٨ ـــ ابراز الكيان الفلسطينى ، وتكون منظمة التحرر الفلسطينية ، وانشاء جيش تحرير فلسطينى للمحافظة على شعب فلسطين ، حتى تكون قضية فلسطين لها جسم وروح • وفى نهاية الامر لن يحرر فلســطين الا أبناء فلسطين فى هذا الخضم الواسع من المساندة العربية والتأييد العالمى • وبالرغم مما كان يحدث بين ناصر والفلسطينيين من خلاف فى وجهات النظر خاصة بعد مشروع روجرز فانه كان خلافا بين رفقــاء السلاح ، خلافا على الوسائل المتبعة وليس على الاهداف ، وبلغة العصر خلافا فى « التكتيك » وليس خلافا فى « الاستراتيجية » • لذلك رفض كل دعوات الصلح مع اسرائيل والمساومة على حقوق شعب فلسطين •

هذا هو صوت ناصر المكتوم وهو يئن فى مضجعه ، ويتململ فى مثواه ، فلعله يعود يوما رنينا مدويا يخرج من صدور الناس فيصم الآذان •

عبد الناصر والحلف الاسلامى

١ ـ الاسلام الامريكى :

لقد كانت لعبة الاستعمار فى المنطقة العربية الاسلامية دائمـا استغلال الدين لصـالحه فى معركته مع النظم الاشتراكية • اذ يعلم الاسـتعمار بناء على مستشاريه وعلمائه الاجتماعيين والمستشرقين أن الدين فى منطقتنا هو تراث الامة ، ومحـرك جماهيرها • وبالتالى فهو يقوم باستعماله من أجل تحقيق أهدافه فى المنطقة وهى :

١ ـ الوقوف أمام الافكار الاشتراكية وانتشـارها فى المنطقة على أساس أنها أفكار تعارض الدين ، يروجها الكفار والملحدون ، مادية لا تتفق مع روحانية الاديان ورسالاتها السماوية •

٢ ـ تفسير الدين تفسيرا رأسماليا بمعنى قصره على الشـعائر والطقوس والعبادات والصلوات والعقـائد وترك النظم السياسـية والاجتماعية والاقتصادية حتى ينشـغل المسلمون عنها فتكون بالتالى نظما موالية للغرب ، تحقق أهداف الاستعمار فى السيطرة على الموارد ونهب الثروات •

(*) كتب هذا المقال بعد معاهدة كامب ديفيد واندلاع الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران فى فبراير ١٩٧٩ من أجل احياء الناصرية والمقارنة بين سياسات مصر فىالستينات وبينها فى السبعينات . والمقال الاول مفقود بعد أن سلم الى احدى المجلات العربية • وهذه صياغة ثانية من المسودة كتبت فى خريف ١٩٨٧ .

ويقوم الاستعمار بذلك فى لحظات التحول التاريخية فى المنطقة مثل ثورة يوليو ١٩٥٢ وما تمثله من استقلال وطنى ، وقضاء على الاحلاف ومناطق النفوذ ، وتأميم مصادر الدخل القومى ، والتحول الاشتراكى ، والاصلاح الزراعى ، والتصنيع ، ومقاومة الاستعمار والصهيونية ، واقامة كتلة عدم الانحياز ، وتأسيس منظمة الشعوب الاسيوية الافريقية . بدأ الاستعمار ذلك من خلال عملائه فى المنطقة خاصة فى مرحلة التحول الاشتراكى ١٩٦١ — ١٩٦٤ .

والآن يعيد التاريخ نفسه بعد أن انحسرت الناصرية بعد موت قائدها فى ١٩٧٠ وتحولت تدريجيا الى ثورة مضادة حتى عادت من جديد بعد اندلاع الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران فى فبراير ١٩٧٩ تعيد الى الناصرية مجدها الاول وتكملها عن طريق بنائها على ثقافة الجماهير وهو الاسلام وعن طريق تعبئة الملايين فى الشوارع فاكتملت لها عناصر النجاح : القيادة الحاسمة ، والاسلام كأيديولوجية ثورية ، وتعبئة الجماهير . أعادت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران الى الناصرية حلمها الاول فى معاداة الاستعمار ، والوقوف فى مواجهة الصهيونية ، والقضاء على محاولات التغريب التى كانت تهدد الهوية الاسلامية فى ايران . واستطاعت الثورة أن تتحدى أعتى الدول الاستعمارية وأقواها عدة عتادا هى الولايات المتحدة الامريكية . فقضية الرهائن ليست فى الحقيقة قضية جاسوسية أو تسليم شاه ، بل هى قضية اثبات الذات ، سواء من الخارج بالحصار البحرى الاقتصادى ، وقطع العلاقات السياسية ، أو الداخلى عن طريق اثارة النعرات القومية والعرقية والطائفية أو تدبير المؤامرات أو اغراء بعض كبار الضباط فى الجيش الذين مازالوا يدينون بالولاء للشاه أو جماعات الطفولة اليسارية خارج

الوحدة الوطنية اذ كثيرا ما يتلاقى الطرفان • اكتشفت الولايات المتحدة سماحة الاسلام ، وأنه دين الحب والاخاء والمساواة • لم يقع هذا الاكتشاف أيام حكم الشاه والسافاك ، وقت الارهاب والتعذيب والقتل• فسماحة الاسلام الآن فى صالح الاستعمار ولم يكن لها وجود أيام الشاه الذى كان يقوم بالدفاع عن مصالح الاستعمار بلا حاجة الى اللجوء الى سماحة الاسلام • وقد حدث ذلك أيضا بعد التدخل السوفييتى فى أفغانستان ، فقد اكتشف الاستعمار فجأة أن أفغانستان بلد مسلم ، وأن شعبه شعب مسلم ، وأن الاسلام فى خطر ، فبدأ يشحذ نفوس المسلمين ، ويقوى من هممهم ضد الاحتلال السوفييتى ، وكأن الولايات المتحدة أصبحت بين عشية وضحاها راعية للاسلام ، وحامية للمسلمين ، وخادمة الحرمين الشريفين ، وكأن شعب فلسطين ليس شعبا مسلما ، وكأن القدس ليس بها مقدسات المسلمين ، وكأن العنصرية فى جنوب افريقيا وفى قلب الولايات المتحدة يرضاها الاسلام ، وكأن الفقر والجريمة والرشوة والفساد والقتل والتسلط مقررات اسلامية ، شريعة تطبقها الولايات المتحدة نصا وروحا • ان المصالحة الحقة لا تأتى الا بناء على تسليم اليهود بالحق المستقل عنهم « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٣ : ٦٤) • والمصالحة الحقة تتم بناء على الاتفاق على عبادة الله وحده وليس عبادة الطاغوت أو المال ، الاخلاص له ، وليس الايمان أول النهار والكفر آخره أو الايمان فى العلن والكفر فى السر أو الايمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر • كما تقوم على المساواة بين الشعوب أمام اله واحد وألا

يعتبر شعب نفسه فوق الجميع ، له حق الحياة والوجـود ، وليس للاخرين الا الموت والفناء .

لقد اكن هدف الاستعمار منذ اندلاع الثورات العربية وصياغة أكبر مشروع عربى قومى حديث منذ صلاح الدين ومحمد على حتى الآن محاصرتها بهدف منع انتشـارها . ولما كان الاسلام على الطريقـة الرأسمالية خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف تمت صياغة الحلف الاسلامى، وهو حلف بغداد القديم ، حيث تدخل فيه السعودية وايران وباكستان فى حلف جديد من أجل عمل نموذج إسـلامى آخر ، يقف فى مواجهة النموذج الثورى العربى . ولما كان وعى الجماهير السياسى ليس قويا وكانت تربيتها الدينية تقليدية كان من السـهل خداعها . ولما كانت النظم العربية التقليدية متفقة فى الاهداف مع الاستعمار فى صد المد الثورى الاشتراكى فى الستينيات وضعت نفسها فى أيدى الاستعمار متكاتفة معه لتحقيق الهدف المشترك .

٢ ـ الاسلام كقناع لحلف بغداد .

ويستخدم الاستعمار الاسلام كقناع يخفى وراءه أهدافه السياسية فى المنطقة . ان التعاون الاسلامى مقبول بل واجب ولكنه يجب أن يكون فعلا لوجه الله ولوجه الاسلام وليس نتيجة لسياسة امريكية انجليزية . الحلف الاسلامى الصحيح يجب أن يخدم الاسلام وليس الاستغلال السياسى (الاجتماعى) ، وأن يعمل علماء الاسلام من مراكز الفكـر الدينى لا أن يدافع عنه الارهابيون وسماسرة الدين . أخذوا الاسلام حجة ووسيلة ليخدعوا بها بسطاء الناس .

الحلف الاســـلامى خديعـــة كبيرة • وكمـــا تصـــدت الثـــورة من قبـــل للرجعيـــة فانهـــا تتصـــدى الآن للحـــلف الاســـــلامى وتكشـــف عن نواياـــاه فان الخديعـــة لا تنطلى على أحـــد ، هـــو حلف جديد يتخذ من الدين اسما وستارا لحلف بغداد • وجدوا لـــه أسما عربيا وسموه حلف بغداد ، وألبسوه عقالا وعباية حتى تختفى انجلترا وأمريكا وراءهما • والحلف الجديد ألبسوه عمة ليسموه الحلف أو المؤتمر أو التجمـــع الاسلامى ، أى شـــاء اسمه اسلامى لخداع المسلمين باسم الدين • ولقد اعترفت الصحف البريطانية نفسها بأن هذا الحلف سياسى أساسا تحت غطاء الدين • لقد قيل فى صحف لندن أن الحلف الاسلامى حلف سياسى وليس حلفا اجتماعيا • قال ايزنهاور لسعود فى ١٩٥٧ على فكرة الحلف الاسلامى ، وتحدث سعود فى هذا الامر فى القاهرة(١) • ومن السهل استنتاج أن هؤلاء عملاء الامريكيين وأدواتهم تحت ستار الدين مدعين أن الحلف عملية دينيـــة وليست عملية سياسية • يدعى فيصل أن الامريكيين ليسوا وراء الحلف ، وأنها فركته الخاصة ، يهدف بها خير المسلمين وخير الدين فى حين أن الانجليز والامريكيين فى السعودية مسيطرون عليها وذلك كفيل أن تكون دعوة فيصل لوجه الله ! ويشاركه حسين فى دعوته بأنه يخدم الاســـــلام

---

(١) ستتم الاحالات باستمرار الى خطب وأحاديث جمال عبد الناصر عن طريق ذكرها على نحو حر وليس نصا نظرا لتكرارها وأسلوبها العامى وتأسيا بطريقة القدماء فى أحد أنواع الشرح وهو العرض الشـــارح أو الشرح العارض ، فالمهم هو المعانى وليس الالفاظ . الاعمال الكـــاملة لخطابات وأحاديث جمال عبد الناصر ، الاجزاء الثلاثة الاولى ، الهيئة العامة للاستعلامات ، وجزءان أخيران ، الاهرام ، خطاب فى عيد الوحدة ٦/٢٢/ ١٩٦٦ ج ٥ص ٥٩٨ ، ص ٥١١ ، ص ١٥٢ .

والمسلمين وهما يخدمان أمريكا وانجلترا والاستعمار • لقد قرر الاستعمار بعد جلائه عن المنطقة العودة اليها من جديد عن طريق العملاء فبدأ الكلام عن الحلف الاسلامى ، والتضامن الاسلامى ، والمؤتمر الاسلامى • ولكن معظم الدول الاسلامية ردت ردودا غير مشجعة لان معظمها يعمل بالسياسة ، ونظمها متحررة ، وتعلم الهدف من الدعوة • ومعروف فى العالم العربى كله أن العملية الغرض منها خداع الجماهير والشعوب العربية(٢) •

يقول فيصل أن الغرض من الحلف مقاومة الالحاد ! وكيف يقاوم الالحاد بالسياسة ولا يقاوم بالدين ؟ الحلف الاسلامى حلف سياسى وليس تكتلا دينيا لان التكتل الدينى يكون من رجال الدين وليس من رجال السياسة • ومن الذى سيقاوم الالحاد فى العالم العربى وفى العالم الاسلامى ؟ شاه ايران وبورقيبة ؟ وماذا يعرف الشاه عن الاسلام ؟ ومنذ متى يدافع بورقيبة عن الاسلام ؟ لقد ألغى بورقيبة أجازة العيد كلها وقصرها على يوم واحد • بورقيبة الذى يتكلم على الاسلام أكبر متنكر للاسلام فى بلده وهو اليوم يدافع عن الاسلام • لقد أصدر فتوى بالافطار فى رمضان ، ولبس العمة اليوم ، وجعل نفسه الشيخ بورقيبة داخل الحلف الاسلامى • كيف يصح الحلف الاسلامى ؟ شاه ايران يبحث فى الشؤون الدينية وهو لا يعلم شيئا عن الدين ، يعارض رجل سياسة وليس رجل دين • وكيف يضم الحلف بورقيبة بفتاويه للافطار فى رمضان والصلح مع اسرائيل ؟ بورقيبة عميل ومدسوس فكيف يتحدث فى الدين أو يناقشه أحد فى الدين ؟

---

(٢) جـ ٤ ص ٦٥ ، الجلسة الخامسة لمناقشة الميثاق ١٩٦٢/٥/٢٨ .

لم تكمل الثورة فكرتها الاولى عن المؤتمر السياسى من خـلال الحج ، فقد قام حلف بغداد فى أوائل ١٩٥٥ وأصبح من المستحيل أن يجتمع المؤتمر الاسلامى كمؤتمر سياسى غير مرتبط بالاستعمار ، يعمل لصالح الاسلام والمسلمين ، ويعمل على التخلص من الاستعمار والاحلاف وعلى اقامة عدالة اجتماعية لانصاف المسلمين فى كل بلد مسلم • ولكن بعد قيام حلف بغداد ، وانضمام تركيا وايران وباكستان لهذا الحلف أصبح من العسير أن يجتمع المؤتمر الاسلامى على أساس سـياسى • لذلك سارت الثورة فى الفكرة على أساس شعبى . فكل تقـارب على مستوى القمة يجب أن يبدأ من الذين اسـتطاعوا تحرير بلادهم من الاستعمار والاحلاف ومناطق النفـوذ • وقد كانت اتصالات هؤلاء بعضهم ببعض مستمرة • اذا لم تكن دعوة التقارب الاسلامى على هذا الاساس بل على أساس سياسى على اجتماع قادة الدول تكون غايتها بالرغم من رفع اسم الاسلام ضرب المسلمين وتشتيتهم باسم الدين ، وتفتيت العرب لحسـاب الاستعمار أى تزييف الدين من أجل خدمة المبادىء والاهداف الاستعمارية • ولم يأخذ مؤتمر القمـة الأخير قرارات بشأن التعاون الاسلامى مع مصر من أجل قضايا الحرية ومن أجل قضية فلسطين(٣) •

لقد صرح الملك فيصل لاحدى الصحف الكويتية معلقا على الحلف الاسلامى بأنه قام تعاون بين الطوائف المسـيحية ، وكان هناك المجمع المسكونى ولم يقل عنه أحد أنه تحالف(٤) • والحقيقة أن اجتمـاع

---

(٣) جـ ٥ ص ٥١٣ — ٥١٤ •

(٤) جـ ٥ ص ٥٦٤ •

المجمع المسكونى ليس اجتماعا سياسيا أو عسكريا بل اجتمــاع ضم رجال الدين المسيحيين ولم يضم رؤساء الدول المسيحية • أما اذا ضم رؤساء الدول المسيحية فانه ينقلب الى اجتماع ومؤتمر سياسى • ان التضامن الاسلامى الحقيقى هو تضامن الشعوب الاسلامية المناضلة ضد الاســتعمار لا تضامن الحكومات الرجعية العميلة للاســتعمار والمستغلة للاسلام والمزيفة له • والجماهير قادرة على معرفة من يخدم الدين ومن يستغل الدين • لا تجد الرجعيــة العربية المتحالفة مــع الاستعمار من خط دفاعى سوى تزييف الدين • وتكشف الجماهير العربية هذا التزييف واستخدام الدين لوضــع البلاد العربية داخل مناطق النفوذ • والشعوب العربية قادرة على اسقاط الحلف الاسلامى المزعوم كما أسقطت حلف بغداد • وان الثورة المصرية لعلى استعداد لعقد مؤتمر اسلامى لعلماء الدين وليس من علماء السياسة والسماسرة والارهابيين أو شاه ايران وبورقيبة ، مؤتمر اسلامى لله وللدين وليس للاستعمار والرجعية • وان الاسلام لاندس من أن يســخر لخدمة الاستعمار أو الرجعية • وتظل الثورة المصرية على استعداد كامل لان نعمل من أجل التضامن الاسلامى الحق السليم الذى يخدم الدين ، ويتكون أساسا من علماء الدين • وتظل أيضا على استعداد لعقد اجتماع اسلامى كريم ونزيه داخل الازهر بالقاهرة ، أو داخل الحرم النبوى فى مكة أو داخل المسجد الاموى فى دمشق أو داخل المسجد الاقصى فى القدس ، مؤتمر لله وليس للاستعمار والرجعية •

والحقيقة أن حجج ناصر ، بالرغم من قوتها الجدلية لافحــام الخصم ، الا أنها ضعيفة اسلاميا اذ لا يوجد فى الاسلام هذه التفرقة بين رجال الدين والسياسة فرجال الدين هم أهل الحل والعقد الذين بيدهم عقد البيعــة على الحاكم أو عزله • ورجال السياسة هم أئمة

المسلمين • لا يفرق الاسلام بين الدين والسياسة كما يريد ناصر أن يجعل رجال الدين يتكلمون فى الدين ورجال السياسة يناقشـــون فى السياسة • هناك موضوعات واحدة تجتمع فيها شؤون الدين وشؤون الدنيا • واذا كان ناصر يدين تسييس الدين ويرى أن الدين ثورة اجتماعية ونظاما اشتراكيا فانه من الصعب قصر الدين على العبادات والتعاون الاخوى بين الدول الاسلامية وابعاده عن السياسة ومعاركها • واذا كان ناصر قد وصف رجال الدين من قبل بالتخلف والرشوة وتبعيـــة الحكام فكيف يرجى من مثل هؤلاء أى نفع أو خير للمسلمين ؟ ويبدو أن مقارنة الحلف الاسلامى الغربى بالمجمع المسكونى المسيحى يجعل تصور ناصر للاسلام تصورا تقليديا مسيحيا خالصا • يستـــعمل ناصر ولا شك حجة جدلية ضد خصومه دون أن يعلم أنها قد ترد اليـــه • فهو أيضا يدخل الدين فى السياسة والسياسة فى الدين بتحويل الحج الى مؤتمر سياسى سنوى كما عبر عن ذلك فى فلسفة الثورة ويبـــرر الاشتراكية باسم الاسلام • عبد الناصر يتكلم فى الدين وهو رجـــل سياسة ويستعمل الدين فى السياسة حتى وهو يحاجج لفصل الدين عن السياسة • فالدين فى كلتا الحالتين بين عبد الناصر وخصومه فى أتون السياسة لما شهر سلاح الدين فى وجه ناصر اضطر ناصر لاعادة شهره فى مواجهة خصومه ، فعبد الناصر وخصومه سياسيون يستعملون الدين كسلاح ايديولوجى لتدعيم المواقف السياسية • معارك الدين هى معارك السياسة ، واختلافات التفسير هى اختلافات فى المصالح وفى المواقف السياسية •

أما حجج ناصر ضد بورقيبة فى فتواه الافطار فى رمضان وتقصير أجازة العيد، فانها أيضا حجج ضعيفة • فقد اعتمد بورقيبة على أصول دينية معروفة عند القدماء ، ولا يعيب بورقيبة أن يكون مجددا أخذ

برأى دون الرأى السائد ، ومن حق حكام المسلمين اعادة الاختيار بين البدائل طبقا للظروف المتغيرة أو اصدار حكم جديد لم يتوصل اليه القدماء • فاذا كانت الغاية زيادة الانتاج ، وزيادة ساعات العمل فان الاجتهاد يكون صحيحا ضد ما هو سائد الآن من اتخاذ رمضان حجة للكسل والتراخى وذريعة للغياب عن مواقع العمل • ان العمل لهو خير عيد للمسلمين بدلا من كثرة الاجازات مرة باسم الاعياد الوطنية ومرة أخرى باسم الاعياد الدينية •

٣ — حلف بغداد الاسلامى •

الحلف الاسلامى هو طبعة جديدة لحلف بغداد • فبعد سقوط هذا الاخير بعد الثورة العراقية فى يوليو — تموز ١٩٥٨ ، أراد الاستعمار والرجعية احياء الحلف بالباس القبعة والبذلة العمامة والجبة حتى يبدو محايدا وكأنه يدافع عن مصالح الشعوب فى المنطقة • كان هدف الرجعية والاستعمار تحويل حلف بغداد الى حلف اسلامى بعدما دخلت تركيا وباكستان وايران والعراق فى الحلف ثم خرجت العراق وبقيت تركيا وباكستان • ليس الحلف الاسلامى الا استكمال لحلف بغداد لوضع الامة العربية داخل مناطق النفوذ • ومن لم يستطع الدخول فى حلف بغداد قبل اليوم حاول عن طريق الاسلام ، ولكن الشعب العربى يعلم أن طريق الاسلام هو الاسم الجديد لحلف بغداد والاسم الجديد لمناطق النفوذ • وكل من هلل لحلف بغداد فى ١٩٥٥ ينادى اليوم بالحلف الاسلامى • ولما كان هذا الحلف مثل حلف بغداد فان مصيره أيضا مثل مصير حلف بغداد(٥) •

---

(٥) خطاب فى عيد الوحدة ١٩٦٦/٢/٢٢ ، جـ ٥ ص ٥١٠ ، خطاب فى المؤتمر الشعبى بمدينة دمنهور ١٩٦٦/٦/١٥ جـ ٥ ص ٥٩٨ .

وفى كلتا الحالتين ، لم يتجاوز الامر مرحلة الشعارات التى سرعان ما أسقطها الشعب العربى • فشعار الحلف الاسلامى الذى يروج له ليس بالفكرة الجديدة بل سبقتها محاولات مشابهة مثل حلف بغداد ، ولا تختلف الفكرتان فى شىء • وكما رفض الشعب العربى الفكرة الاولى سيرفض الفكرة الثانية • والدول الداعية للحلف الاسلامى أو المؤتمر الاسلامى هى جدة وطهران • ووجود طهران يؤكد بل ويزيد التأكيد على أن الحلف ضد العرب وضد المسلمين لحماية الرجعية • والذى أيد الحلف صحف السعودية وايران وصحف بورقيبة فى تونس وأعداء العروبة والاسلام فى لبنان • نفس الجرائد التى أيدت حلف بغداد فى ١٩٥٥ — ١٩٥٦ هى التى أيدت الحلف الاسلامى فى ١٩٦٥ — ١٩٦٦ (٦) •

وهنا يبين ناصر أن التاريخ يعيد نفسه مرة على نحو علمانى فى حلف بغداد ١٩٥٥ ومرة على نحو اسلامى بعد ذلك بعشر سنوات فى ١٩٦٥ • ولكن الغاية واحدة ، محاصرة الثورة العربية بأجنحة الرجعية المتعاونة مع الاستعمار • ليست المعركة اذن بين العلمانية والدين ، فكلاهما قد يخدم الاستعمار ولكن علمانية من ؟ ودين من ؟ علمانية لصالح الجماهير أم لصالح الاستعمار ؟ ودين لصالح الشعب أم لصالح الرجعية ؟ يكرر ناصر نفسه ولا يطور حججه الى ايديولوجية ثورية مضادة ، ويجعلها معركة بين قيادات أو عواصم عربية واسلامية ، صحيح أنه كان ضد الاحلاف والمحاور المضادة حتى ولو كانت لصالحه وحرصا

---

(٦) حديث لجريدة « أزفستيا » السوفيتية ١٩٦٦/٢/٧ ج ٥ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ ، ص ٥٢٢ •

على وحدة الامة العربية ، ولكنه ظل دائما فى موقف الدفاع وليس فى موقف الهجوم ، يجره الاستعمار الى المعارك ولا يبدأ هو معاركه فى جبهاته التى يختارها .

٤ — الانحياز للغرب .

أراد الحلف الاسلامى الايقاع بدول المنطقة فى سياسة الانحياز والاحلاف ومناطق النفوذ لمواجهة سياسة عدم الانحياز ومناهضة الاحلاف والخروج من مناطق النفوذ . بعض الدول الاسلامية دخلت فى مواثيق ، وانحازت للغرب . وبدأت محاولات لاستغلال الدين الاسلامى من أجل سياسة الانحياز التى تتنافى مع سياسة عدم الانحياز ، سياسة الثورة المصرية . وقد بدأ الحديث عن حلف اسلامى غير منحاز مباشرة الى الغرب ولكنه منحاز بطريقة غير مباشرة . بدأ ذلك قبل ١٩٥٥ ولم ينقطع . كانت هناك خطورة كبيرة فى أن تنضوى مصر تحت اسم الاسلام لتنحاز الى الغرب أو لتدخل تحت سيطرة الدول الغربية لان ذلك يتنافى مع الاسلام . فالاسلام ينادى بالحرية ، وبأن يكون الشعب حرا وسيدا لنفسه وألا تكون مصر داخلة فى مناطق النفوذ لاية دولة أخرى . وكيف يكون هناك حلف اسلامى يأخذ أوامره من لندن أو واشنطن أو أية دولة أخرى ؟ الحلف الاسلامى فى هذه الحالة يتنافى مع كلمة الاسلام ، يكون حلفا غربيا . لذلك رفضت الثورة المصرية أن يكون العمل تحت اسم الاسلام جارا الى الاحلاف أو الى الانحياز للغرب بطريق الخديعة تحت اسم الحلف الاسلامى أو الرابطة الاسلامية أو أى اسم من الاسماء لان سياسة مصر هى سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز سواء كان الحلف الاسلامى أو المؤتمر الاسلامى أو التجمع الاسلامى أو التكتل الاسلامى أو

مؤتمر ذروة اسـلامى ، هو حلف للتأخر ضد الشعوب العربية ووضعها فى مناطق النفوذ الغربى ، وهو حلف للتآمر على البـلاد الاسلامية الاخرى غير العربية التى تتبع سياسة عدم الانحيـاز ، الحلف كله المقصود منه وضـع الامة العربية كلها تحت مناطق نفوذ أمريكـا وانجلترا(٧) ، واذا ما تم الانحياز للغرب فانه يسهل تطويق الاتحاد السوفييتى من الجنوب الغربى لآسيا حتى أوربا فيمتد الحصـار على ثلاث قارات آسيا وأفريقيا وأوربا وبالتالى يتم شـق حركة عـدم الانحياز والقضاء على منظمة الشعوب الاسيوية الافريقية ، وبالرغم من هـذه الخطابة السياسية التى تجعل الخصم فى نفس الدرجة من القوة يظل الخـلاف بين الرؤيتين ليس خلافا فى الدين بل صراع بين قوتين سياسيتين ، ولا يكون الحسم بينهما فى أى الرؤيتين أصح من الاخرى بل فى أى القوتين أقدر على حسم الصراع ، وبهزيمة ١٩٦٧ ثم وفاة عبد الناصر فى ١٩٧٠ انحسرت القوى الثورية فى المنطقة وكسب الاستعمار والرجعية الجولة .

٥ ــ ضرب القومية العربية .

كان الهدف من حلف بغداد كذلك ضرب القومية العربية بما تمثله من مضمون تقدمى اشتراكى فى مواجهـة تحالف القوى الرجعية ورأس المـال ، وذلك باعتراف الصحف الغربية نفسها . فقد طلع حلف بغداد من جديد فى صـورة الحلف الاسلامى فى انجلترا فى ديسمبر ١٩٦٥ . وبدأ الكلام على الحلف الاسلامى فى ١٩٦٥/١٢/٣ ، فقد نشرت الصحف

---

(٧) جـ ٥ ص ٥١٢ ، جـ ٦ ص ١٥٧ .

البريطانية فى ذلك الوقت أن الملك فيصل أوفد صديقه المغربى محمد الكتانى فى مهمة سرية الى دول الغرب تستهدف الى انشاء حلف اسلامى مقدس يتصدى للثورات التقدمية فى المنطقة ولمكافحة للشيوعية فى العالم العربى • وأن الفكرة هى محاولة ايجاد صيغة اسلامية مناسبة لقيام الحلف • وفى ١٩٦٥/١٢/٤ فى تعليق لصحيفة « لا تربيون » أن واشنجطن كلفت الملك فيصل والشاه للقيام بتشيكل الحلف الاسلامى المكى المقدس للرد على القومية العربية بزعامة القاهرة • وأنه اذا دعيت اسرائيل للاختيار بين جبهة الملوك والجبهة المتحررة فستختار جبهة الملوك • وفى ١٩٦٥/١٢/٧ قالت « رويتر » أن فيصل سيبحث مع الشاه الوحــدة الاسلامية ! وفى /١٩٦٥١٢/٢٨ قالت صحيفة « كومبا » الفرنســية أن فيصل انتهز فرصة الهدنة الحالية فى اليمن لوضـــع أساس تحالف ايرانى سعودى فى جميع المجالات وانشاء جمعية اسلامية متحدة • وقالت مجلة « جين أفريك » بمناســبة صفقة السلاح السعودى من بريطانيا أن الصفقة لها صلة بزيارة فيصل لايران ودعوته لانشـــاء جمعية اسلامية وهو مشروع ايزنهاور لملا الفراغ فى الشرق الاوسط وتحقق حلم بريطانيا وأمريكا قديما بانشاء جبهة تخلف حلف بغداد والحلف المركزى بالوقوف فى وجه القومية العربية والحيــاد • وأن بريطانيا تزود السعودية بالاسلحة لا ضد اسرائيل بل لاقامة قــوة دفاع غرب السويس تحت اسم الجبهة الاسلامية • وفى ١٩٦٦/١/١٢ قالت « لوسوار » الفرنسية أن التفـــاهم السعودى الانجليزى الامريكى فى ايران يدعم النظرية القائلة بأن واشنجطن ولندن يؤيدان فيصـــل والشاه لمشروع حلف اسلامى ضـــد توسع الاشـــتراكية فى الشرق الاوسط • وفى نفس التاريخ قالت صحيفة « لا تربيون » الفرنسية أن أمريكا تعتمد على السعودية فى تعبئة العـــالم العربى • ويبدو أن هناك

نوايا لاستراتيجية واسعة قد يفسرها تزويد ايران والسعودية بالاسلحة، وتغيير تكتيك حلف بغداد الارضى بتكتيك جوى وبحرى • وقالت الصحيفة أن الغرض مساندة التيارات الرجعية وخنق المطالب القومية الاقتصادية ، وربط رفاهية هذه البلاد بالمصالح الاجنبية(٨) • وقالت « الديلى تليجراف » فى ١٩٦٦/١/١٨ ان الملك فيصل يقود حركة احياء الحلف الاسلامى • وقالت الصحيفة انه طالما أن الشرق الاوسط حانوت مغلق من الدول العربية فان القاهرة ستظل بلا جدال عاصمته السياسية• لكن وجود حلف اسلامى تشترك فيه دول مثل تركيا وايران وباكستان يغير الوضع • وتضيف الصحيفة أن كثيرا من الزعماء المسلمين يرون أن الحلف الاسلامى يكون أقوى نفوذا من القومية العربية فى الشؤون العالمية • وهو يكون بطبيعة الحال أقوى نفوذا فى الموالاة للغرب لان الحلف الاسلامى من أهدافه موالاة الغرب • وقالت « التايمز » فى ١٩٦٦/٢/١٥ ان فكرة عقد مؤتمر اسلامى ليست جديدة • وعلى الرغم مما يقال من أن المؤتمر الجديد سيبحث فى مسائل اجتماعية واقتصادية فان من المسلم به أن أهداف هذا المؤتمر سياسية أساسا اذ ستحضره دول عربية محافظة مما يساعد على تخفيف ثقل الدول العربية المتحررة •

وتساءلت جريدة « لوموند دبلوماتيك » فى ١٩٦٢/٣/١٦ عما اذا كان شعار الاسلام سيتمكن من القضاء على القوى التقدمية فى العالم العربى • وقد قام وزير الدولة البريطانى السابق أنطونى ناتنج بجولة فى الدول العربية بعد فشل خطة السويس • ونشر عدة مقالات فى صحيفة

---

(٨) جـ ٥ ص ٥٠٨ — ٥٠٩ .

« نيويورك هيرالد تريبيون » خلال عام ١٩٥٧ يقول فيها ان الوسيلة الوحيدة للتفاهم مع القومية العربية يجب أن يكون عن طريق تأسيس جماعة اسلامية من الممالك الاسلامية بالمنطقة ، عندئذ تخرج البلاد العربية من حيز القومية العربية الضعيف الذى لا يمكن التفاهم فيه الى حيز العقيدة الاسلامية الواسع الذى يجمع العربى والتركى والايرانى والباكستانى فى مجال واسع اذ ينسون جنسياتهم ولا يفكرون الا فى الاسلام ، حينئذ يمكن للبلاد العربية التفاهم مع الغرب ! وقد قال ناتنج ذلك عن الحلف الاسلامى أو الجماعة الاسلامية أو التكتل الاسلامى فى ١٩٥٧ ، لقد ظنت الدول الاستعمارية والرجعية أن القوى التقدمية فى العالم العربى مختلفة مع بعضها ، وأنها قد تعبت من النضال ، وبهذا أصبح الطريق مفتوحا أمام الاستعمار القديم لوضع البلاد العربية فى حلف جديد ، يلبسوه عقالا وعباية ويتخذ من الدين اسما أو ستارا لحلف بغداد ، والاهداف واحدة وهى القضاء على القومية العربية التى سيطرت على أفكار واتجاهات الشعوب العربية باعتبار أن القومية العربية هى الوسيلة الوحيدة للتخلص من الاستعمار ومناطق النفوذ وتحقيق الوحدة العربية ، لقد تحالف التآمر الرجعى ضد العراق من أجل ابعاد بغداد عن القاهرة ونشر فكرة الوحدة الاسلامية فى مواجهة الوحدة العربية ، واتفقا على أن تعمل دول حلف بغداد الاسلامية من أجل الوحدة الاسلامية وتكون قطب جذب للدول العربية فتقوم الوحدة الاسلامية فى مواجهة الوحدة العربية ، وقد زار سعود عام ١٩٥٧ أمريكا ثم عاد بعد أن تشاور مع ايزنهاور من أجل اقامة حلف اسلامى وطبقا لنصيحته ، وطلب من باقى العرب أن تشترك معه فى حلف اسلامى ، وقد ذكر ايزنهاور فى مذكراته أن

السياسة الامريكية فى ١٩٥٧ قد خطت على أساس استخدام الملك سعود ضد الوحدة العربية والوقوف فى وجه القومية العربية(٩) •

والغريب أن أنتونى ناتنج يضرب به المثل فى معارضته للعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ واستقالته احتجاجا على ذلك وهو من ضمن المخططين للحلف الاسلامى لاحتواء القومية العربية بأسلوب أكثر ذكاء وأدوم من العدوان المباشر • فلم يختلف ناتنج مع ايدن فى الاهداف بل فى الوسائل فقط • والغريب أيضا أن يصبح الملك فيصل بعد ١٩٧٠ من أخلص الزعماء للقضية العربية والعالم الاسلامى ورمزا للاخوة الاسلامية والتضامن العربى والاخاء الاسلامى • وما ان انتهى خطر الناصرية على الملوك حتى انفرد بالزعامة • وكان وراء الحظر البترولى فى ١٩٧٣ • وظهر بطلا فى وقت كثر فيه العملاء • وواضح وسط كل ذلك اطلاع ناصر على الصحف العالمية ودرايته ووعيه بالعالم حوله • استطاع الغرب أن ينسج حوله حلقة الاسلام ضد حلقة العروبة ، ويحكم حصاره حوله حتى قضى عليه •

٦ — الصلح مع اسرائيل •

وقد كان من ضمن أهداف الحلف الاسلامى انهاء الصراع العربى الاسرائيلى لان القومية العربية ترفض الصلح أو الاعتراف أو عقد أية معاهدة سلام مع العدو الصهيونى • فمن خلال الحلف الاسلامى يمكن التفاهم مع اسرائيل فى حين أن القومية العربية لا تقبل وجود اسرائيل بدليل اعتراف ايران وتركيا باسرائيل • لذلك وضع الحلف

---

(٩) خطاب فى عيد الوحدة ١٩٦٦/٢/٢٢ ، ج ٥ ص ٥٠٨ — ٥١١ •

الاسلامى الرجعية والاستعمار يدا بيد ضد العروبة وضد فلسطين بل وضد المسلمين • وفى نفس الوقت تدعى لندن وواشنجطن المخططتان للحلف أن الحلف كسب وتأييد للقضية الفلسطينية وهو نفس ما قاله نورى السعيد فى ١٩٥٥ • وماذا تكسب فلسطين من حلف تشرف عليه أمريكا وبريطانيا ويشترك فيه حكام ايران وتونس الذين يدعون للصلح مع اسرائيل ؟(١٠) • لقد أزعجت القيادة العربية الموحدة الصهيونية والاستعمار فبدأت الرجعية فى الحديث عن الحلف الاسلامى ثم بدأت الاتصالات مع شاه ايران • وحينما يتحرك فيصل وحسين وبورقيبة فان هذا يعنى أن الاستعمار قد دفع أصدقاءه الى العمل وتحقيق عدة أهداف منها اضعاف القيادة العربية الموحدة واضعاف الكيان الفلسطينى وجيش تحرير فلسطين • والعجيب أن تدافع اسرائيل عن الحلف الاسلامى فتذكر فى اذاعتها أن عبد الناصر وقف ضد الحلف الاسلامى لانه يهدد زعامته فى المنطقة • وهذه شهادة من العدو بأن الحلف الذى تدافع عنه اسرائيل يعبر عن أحقاد الصهيونية • وقد قيل ان الحلف الاسلامى هو تكتيل المسلمين ضد اسرائيل والحقيقة أن الحلف من صنع الاستعمار والرجعية واسرائيل ممثلا فى السعودية والاردن وايران • يستطيع الحلف أن يخدم قضية فلسطين بشىء واحد فقط هو منع امداد اسرائيل بالبترول الذى يأتى من احدى دول الحلف من ايران الى ايلات • الحلف حلف استعمارى ، ومعنى هذا أنه مع الصهيونية لان الصهيونية هى الحليف السياسى للاستعمار • ويعلم العالم العربى ذلك • والقومية العربية قادرة على تعبئته ضد عملاء الاستعمار وحلفاء الصهيونية والطابور الخامس • وكيف يضم الحلف

---

(١٠) حديث صحفى للرئيس مع الصحفيين العرب ١٩٦٧/٢/٤ ، ج ٥ ص ٥١٣ .

بورقيبة بفتاويه للافطار فى رمضان وبالصلح مع اسرائيل ؟ واذا كان بورقيبة عميلا مهووسا فكيف يتحدث أو يناقش فى الدين ؟ وفى عـــام ١٩٦٠ أعلن الشاه اعترافه باسرائيل فقطعت الثورة المصرية علاقتها معه مع أنها فى علاقات مع دول أخرى معترفة باسرائيل • وذلك لان ايران أيام الشاه كانت تتاجر بالدين ، وتضلل باسم الاســـلام • وكانت ايران قد اعترفت باسرائيل فى ١٩٥٠ ثم جاءت حكومة مصدق فى ١٩٥١ وسحبت اعترافها ، وأغلقت القنصلية الاسرائيلية فى طهران • ولكن بعـــد عودة الحكم الرجعى فى ١٩٥٣ عادت العلاقات التجارية والثقافية، وفتحت الوكالة اليهودية فرعا لها فى طهران • وايران دولة اســـلامية من دول حلف بغداد تفتح كل مجالات العمل مع اسرائيل وتســـاعد اسرائيل ضد الوطن العـــربى ، وأصبحت قاعدة اسرائيلية • ونشرت جريدة « هاعام » الاسرائيلية أنه تم توقيع اتفاقية سرية بين اسرائيل وايران فى ١٩٦١ فى مطار طهران • كان بن جوريون وهو فى طريقـــه الى بورما قد مر على طهران ونشر الخبر فى ١٩٦١/١٢/٦ • ثم عرف السر من الزيارة فى ١٩٦١/١٢/٦ • وبالرغم من أن الصحف الايرانية قالت ان السبب هو تعطيل المحركات الا أن الزيارة كانت مرتبـــة ، واشترك فيها رئيس أركان حرب الجيش الايرانى وممثـــل ايران فى الحلف المركزى لدراسة دور اسرائيل فى النظم الدفاعية لبلدان الحلف المركزى وضرورة تعزيز التعاون الاقتصادى والسياسى والعسكرى بين البلدين • وان بريطانيا تزود السعودية بالاسلحة ليس ضد اسرائيل بل لاقامة قوة دفاع غرب السويس باسم الجبهـــة الاسلامية(١١) •

---

(١١) خطاب فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى القومى بمناسبة الاحتفال بالعيد القومى للسويس ١٩٦٦/٣/٢٢ ، خطاب فى مركز القيادة المتقدمـــة للقيادة الجوية ، ١٩٦٧/٥/٢٢ ، ج ٥ ص ٥٠٨ — ٥٠٩ .

وان تعاون الرجعية والاستعمار فى الحلف الاسلامى انما هو موجه ضد العروبة والاسلام وضد فلسطين • فشاه ايران وبورقيبة تونس عملاء الاستعمار والصهيونية وكلاهما أكبر متنكرين للاسلام • وقد يكون الهدف الاكبر للحلف الاسلامى هو تهديد لاستمرار أى عمل عربى مشترك لمواجهـة عدو العرب المشترك وهـو اسرائيل • وبالرغم من التناقضات مع الرجعية العربية فقد استطاعت الثورة المصرية أن تضع أسس عمل موحد من أجل فلسطين • كما تم انشاء القيادة العربيـة الموحدة لاول مرة ، وهو حدث كبير فى تاريخ كفاح العرب ونضال الامة العربية • واستطاعت الثورة المصرية أيضا من خـلال مؤتمرات القمة أن تجمع الشعب الفلسطينى لاول مرة منذ ١٩٤٨ • وبذلك ظهر الكيان الفلسطينى ومنظمة التحرير الفلسطينية • وبطبيعة الحال لم يقبـل الاستعمار واسرائيل هـذا العمل العربى المشترك من أجل فلسطين • فعمل على تفتيت الجبهة العربية عن طريق احداث الفرقة بينها وذلك بانشاء الحلف الاسلامى(١٢) •

٧ — تثبيت الرجعيـة والاسـتعمار •

والهدف الاخير من الحلف الاسلامى هو تثبيت أركان الرجعية وقواعد الاستعمار فى الوطن العربى • الحلف الاسلامى اسـتعمارى هدفه أنه يقاتل حركات التحرر وأن يتصدى للتقدم الاجتماعى • هو مجرد تجميع القوى الرجعية المتعاونه مع الاستعمار فى خط دفاعى

---

(١٢) خطاب فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى فى الاحتفال بالعيد القومى للسويس ١٩٦٦/٣/٢٢ ج ٥ ص ٥١١ — ٥١٢ ، ص ٥٣٢ .

أخير ضد المد الثورى العربى التقدمى فى البـلاد العربية • وكان من الطبيعى أن تتعـاون الرجعية والاستعمار وهما يشعران بالخوف من المد الثورى العربى الذى يمثل خطرا على مصالحهما وعلى احتكارات البترول وخشية من الاشتراكية التى تهدد كيانهما المشترك وأنظمتهما ووجودهما • فبدآ معا فكرة جديدة ، استغلال الدين كسـلاح حتى تتحقق أهدافهما المشتركة فى المحافظة على نفوذهما ودورهما فى سلب ناتج الشـعب العربى والمحافظة على الاحتكارات البترولية ومكاسبها الباهظة وضمان استعادة نفوذهما فى البلاد العربية • وبهـذا يمكن التخلص من الحركات التحررية الشعبية فى الوطن العربى • ان وصف الحلف الاسلامى بالرجعية والتعاون مع الاستعمار ضد العروبة وضد المسلمين وضد فلسطين يسـتند الى أصحاب الدعوة الاصليين فى صحف لندن وواشنجطن • كما أن العواصم الداعية للحلف الاسلامى همـا جدة وطهران • وذلك يعنى أن الحلف ضد العرب وضد المسلمين ولحماية الرجعية • لم يؤيد الحلف الاسلامى الا ايران والسعودية فى العالم العربى • كما أيدت صحف بورقيبة الحلف ، وكذلك أيـده أعداء العروبة والاسلام فى لبنـان وكل من هلل لحلف بغداد فى ١٩٥٥ • والحقيقة أن الحلف موجه ضـد قوى الثورة فى العالم العربى بالرغم من أن الاسلام ثورة وأن التضامن الاسلامى جزء من العقيدة الاسلامية تحتاجه الشعوب(١٣) •

وعندما سأل كرانجيا عبد الناصر : هل يمكن أن يقال أن الهجوم

---

(١٣) جـ ٥ ص ٥١٢ .

الاستعمارى هو فى الواقع امتداد فى شكل جديد لاستراتيجية منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط والحلف المركزى وحلف جنوب شرقى آسيا ؟ وأنا عندما أقول ذلك أفكر فيما يسمونه بالمؤتمر أو الحلف الاسلامى ؟

أجاب عبد الناصر : هذا صحيح ، أنها نفس الاستراتيجية القديمة . كانوا فى الماضى يضعون الخطط لمحاربة الثورة ولتمكين الاستعمار الجديد تحت ستار الخوف من الغول الشيوعى . لكنهم اليوم قد أعطوا هذه الاستراتيجية طلاء دينيا زائفا . حاولوا فى أول الامر أن يفرضوا على المنطقة منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط . وعندما فشل حلف بغداد فى تحقيق النتائج التى أرادوها بدؤا يفكرون فيما يسمى بالحلف الاسلامى ليوقفوا زحف الاشتراكية والديمقراطية فى المنطقة بتفسيرات مضللة للتعاليم الاسلامية العظيمة التى تدعو فى جوهرها الى الاشتراكية والديمقراطية . وقد ذكر أيزنهاور هذه المؤامرة فى مذكراته . وكانوا يفكرون فى ذلك الوقت فى الملك سعود كأداة رئيسية لمؤامرتهم الرجعية الاستعمارية . وسقط سعود لان الاقطاع لابد له أن يسقط عندما يتصدى للقوى التقدمية الثورية . اكتشفوا اليوم أن الملك فيصل نبى جديد لهجومهم الاستعمارى الا أنه لم يجد تأييدا لهذا التحريف فى تفسير الاسلام لتحويله الى اسلام سياسى رجعى الا من بورقيبة وشاه ايران . وهى نفسها ملابسات التحالفات العسكرية السابقة مثل حلف بغداد . والشىء الوحيد الجديد هو تحريف الاسلام ليكون ستارا دينيا لمؤامرة رجعية استعمارية ضد الاستقلال والتغير الاجتماعى وحركات التحرير والاهداف الثورية

لشعوب هذه المنطقة(١٤) • وكما تحطمت أحلاف الاستعمار القديمة مثل حلف بغداد فان الحلف الاسلامى المقترح يوشك اليوم أيضـا أن يتحطم • وقد اكتسبت الجماهير العربيـة بذلك مناعة تقويها على فضح التضليل وكشف أسـاليب الخداع وبالتالى عرفت أن هـذا الحلف الاسلامى المقترح ليس الا اسما لواجهات جديدة لحلف بغداد القديم • هذا الحلف المنهار هدد سوريا فى ١٩٥٧ ، والآن يهدد اليمن فى ١٩٦٥ • تتاجر الرجعية اليوم بالدين سـواء كان مؤتمرا اسلاميا أو تجمعـا اسلاميا أو حلفا اسلاميا • ويعرف الشـعب العربى فى كل مكان ، ويعلم علم اليقين أن الذين يدعون للمؤتمرات الاسـلامية ويقولون أنها عملية اسلامية أنهم أبعد الناس عن الاسـلام ، وأبعد الناس عن الدين ، وأن العملية كلها سياسية الغرض منها أن يوضح الشـعب العربى من جديد داخل مناطق النفوذ • لم يكن الحلف الاسـلامى بالسياسة الجديدة فقد كانت أمريكا تريد حلفـا اسلاميا فى المنطقة منذ ١٩٥٧ كما ذكر أيزنهاور فى مذكراته • ثم دعى الملك سـعود الى أمريكا ولكنه لم ينجح فى اقامة الحلف الذى طلبه ايزنهاور ومن أجل ضرب القوى الثورية التى كانت تتزعمها مصر فى هذا الوقت(١٥) •

كان الهدف الاساسى من الحلف الهجوم المضاد على القوى الثورية العربية • فعندما دعت مصر الى مؤتمرات القمة فانهـا تصورت أنها بذلك تصل الى تعايش سلمى بين الانظمـة الاجتماعية المختلفة •

---

(١٤) حديث الى د . كرانجيا رئيس تحرير مجلة « بلينز » الهندية فى ١٩٦٦/٥/٨ ، ج ٥ ص ٥٦٣ .

(١٥) ج ٥ ص ٥٦٩ ، ص ٥٩٩ .

وفجأة بدأ الملك فيصـــل يعلن عن الحلف الاسلامى ، وبدأت دعاية واسعة جدا ضـــد النظام الاشتراكى فى مصر ، وأعلن فيصل والشاه عن الحلف ودعيا بقية الدول الاسلامية لتنضم اليهما . والحقيقة أن الولايات المتحـــدة كانت وراء الملك فيصل فى سياسته ، تحاول تحقيق نفس الاهداف وعلى رأسها الدفاع عن الشرق الاوسط وذلك عن طريق جمع الدول العربية كلها فى صف واحد تحت السيطرة الغربيـــة . وفى نفس الوقت كانت هناك مؤامرات تحـــاك ضد سوريا والعراق . وكان الاردن مسؤولا عن التنظيم ، والسعودية عن التمويل . بدأ فيصـــل يعمل من أجل الحلف الاسلامى لخدمة مصالح أمريكا ومصالح الانجليز . وتصور أنه يستطيع أن يقوم بهذا العمل فى حماية مؤتمرات القمـــة . لذلك لما اجتمع رؤساء الحكومات تكلموا فى كل شىء الا فيمـــا يهم العرب . ولم يقل أى واحد منهم كلمة واحدة عن الحلف الاســـلامى علما بأنه كان فى رأس كل منهم . ولكنه لم يجرؤ أن يتفوه فيه بكلمة حتى لا ينفضح التآمر الرجعى الاستعمارى على الامة العربية باسم الدين(١٦) . ولما سأل مراسل جريدة « الاوبزرفر » البريطانية : هل صحيح أنكم تعتبرون بعض التطورات الاخيرة فى المنطقة هجوما على القوى الثورية خصوصا من فيصل والحلف الاسلامى ؟ أجاب عبد الناصر فيما أجاب : بدأ الملك فيصـــل يعمل من أجل الحلف الاسلامى لخدمة مصـــالح أمريكا وانجلترا ، وتصـــور أنه يستطيع أن يقوم بهذا العمل فى حماية مؤتمرات القمة . فالداعون له عملاء لامريكا وأدوات لها ،

---

(١٦) خطاب فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى بمناسبة الاحتفال بالعيد القومى للسويس فى ١٩٦٦/٣/٢٢ ج ٥ ص ٥٣٥ .

يقولون أنهم يدافعون عن الدين ، وأن الحلف دينى وليس سياسيا ، وهم يعملون لتنفيذ المخطط الامريكى فى المنطقة ، وقد واجهت مصر كل مخططات الرجعية والاستعمار مواجهة واضحة ومريرة حماية لمؤتمرات القمة من استغلالها للدعـوة الى الحلف الاسلامى • وكشفت استحالة أن يكون الحلف الاسلامى مؤتمرا اسلاميا أو تضامنا اسلاميا يعمل من أجل الدين • لقد حاولت أمريكا من قبل استخدام السـعودية ضـد القوى الثورية فى ١٩٥٧ ، وأعلن أيزنهاور ذلك وقال انه لا يبدأ حلف اسلامى بلا عمل اسلامى • وقال فى مذكراته أنهم أرادوا أن يكونوا قوة مضـادة ضد القوى الثورية العربية التى كانت تتزعمها مصر فى ذلك الوقت ، واقترحوا على الملك سعود أن يعمل من أجل تأسيس حلف اسلامى أو مؤتمر اسلامى • ودعوا الملك سعود الى أمريكا • ثم عاد ولم تنجح العملية كلها • ومع ذلك يدعى فيصـل أن الامريكيين ليسـوا أصحاب المؤتمر الاسلامى أو الحلف الاسلامى وأن الفكرة من لديه يهدف منها الى تحقيق خير المسلمين وخير الدين • والحقيقة أن الامريكيين والبريطانيين موجودون فى السعودية ، وهى تحت نفوذهم ، ولا يمكن أن يكون الحلف لوجه الله(١٧) •

٨ ــ خاتمة : الاسلام السياسى •

فاذا كان السؤال : الى أى حد يمكن اعتبار نقد عبـد الناصر

---

(١٧) حديث صحفى الى جريدة « الاوبزرفر » فى ١٩٦٧/٢/٥ ، ج ٦ ص ٤١ ، ص ٦٤ ــ ٦٥ •

وهجومه على الحلف الاسلامى أحد مكونات الاسلام السياسى فانه يمكن الاجابة عليه على النحو الآتى :

١ — لم تتحقق نظرية الدوائر الثلاث التى عرضها عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » ، الدائرة المصرية والدائرة العربية والدائرة الاسلامية، ولم تكن على نفس الدرجـة من النشاط والتكامل فيما بينها . كانت الدائرة العربية أقوى الدوائر وأكثرها نشاطا . أنتجت القومية العربية ، والاشتراكية العربية ، وحركة التحرر العربى ، والقوى التقدمية والثورية العربية .. الخ . وتلتها الدائرة المصرية ، فالقاهرة مركز الثقل فى العالم العربى والثورة المصرية بداية الثورة العربية ودعامتها الاولى . ولكن ظلت الدائرة الاسلامية مجـرد رابطة دينية روحية دون أن تتحول الى نظرية سياسية أو الى عمل سياسى ، قـوة فعالة على مسرح السياسة الدولية باستثناء استخدامها استخداما سياسيا للتأثير على الرأى العام فى موضـوع القدس والمسـجد الاقصى ، وارسال البعثات العربية لتدريس اللغة العربية والدين فى العالم الاسلامى، وقبول الطلبة الوافدين من العالم الاسلامى فى الجامعة الازهرية ، وارسال المصاحف والكتب الدينية ، وتبـادل العلماء ، وحضور المؤتمرات وتكوين المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية لهذا الغرض(١٨) . وبالرغم من مبادرة الثورة المصرية فى مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ وتضامن الشعوب الاسيوية الافريقية والتنبيه على أن هذا التكتل الجديد هى صياغة

---

(١٨) أنظر بحثنا الدين والتنمية فى مصر ، الجـزء الرابع : الدين والتنمية القومية .

سياسية حديثة للعالم الاسلامى الذى امتـد كله بين قارتى آسـيا وأفريقيـا لم تسـتطع الثورة استخدام الاسلام كعنصر ترابط بين شـعوب آسيا وأفريقيا واستغلال طاقاته فى توحيد هـذه الشعوب ثقافيا وحضاريا وسياسيا(١٩) • وظلت علاقة مصر بالهنـد وبالصين وبيوجوسلافيا أقوى منها بكثير من علاقاتها بالدائرة الاسـلامية فى اندونسيا والملايو وباكستان وأفغانستان وتركيا بالرغم من الخـلاف السياسى بين الانظمة السياسية لهذه الدول والثورة المصرية • فالخلاف السياسى بين الحكومات شىء عابر والتقارب الثقافى والحضارى بين الشعوب ثابت ودائم • وقد أدرك عبد الناصر ذلك أيضا دون أن يحققه• اذ يصرح فى حديثه الى المحرر السياسى لجريدة «الاوبزرفر البريطانية» أ ن الدور الدينى الذى يؤديه الاسـلام قائم وفعال • ولقد تسألنى لماذا تبدو علاقاتنا بالهند أقوى منها بايران المسلمة وأقول لك ان الخلاف بين الحكومة المصرية والحكومة الايرانية لا يمكن أن يعوق أو يحجب العلاقة بين الشعب المسلم فى مصر والشعب المسلم فى ايران • ان العلاقات الدولية بظروفها الموضوعية لها أحكامها • لكن ذلك لا يناقض ولا يتعارض مع تعاطف الشعوب التى تعتنق نفس الدين • وقد تحدثت فى «فلسفة الثورة» عن دور افريقيا لمصر ، وعن دور أفريقى آسيوى ، وعن دور فى العالم الاسلامى ، ولست أرى تصادما بين هذه الادوار الثلاثة أو احتكاكا بين دوائرها(٢٠) •

---

(١٩) مالك بن نبى : فكرة الاسيوية الافريقية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار العروبة ، القاهرة .

(٢٠) حديث الى مستر روبرت ستيفن المحرر السـياسى لجريدة الابزرفر البريطانية ١٩٦٤/٧/٥ .

٢ ـ ظلت تفرقة عبد الناصر بين الدين والسياسة تفرقة ضعيفة ولا تخدم قضيته . فهو يواجه عدو يتستر بالدين ليحقق أهدافا سياسية فى الحلف الاسلامى ، ويبين أن الدين أقرب الى سياسة عدم الانحياز والخروج عن مناطق النفوذ والاحلاف العسكرية . وفى كلتا الحالتين هناك تداخل بين الدين والسياسة ، أولا لصالح الاستعمار والرجعية ، وثانيا لصالح الثورة والتقدم . بل أن عبد الناصر أراد فى « فلسفة الثورة » تحويل الحج الى مؤتمر سياسى سنوى وليس مجرد شعائر ومناسك تقضى ، قوة سياسية وليس مجرد تذكرة لدخول الجنة ، وهو تأويل سياسى للدين يتفق مع روح الدين الهدف من اقامة الحج وشعائره قبل الاسلام عندما كانت تحج القبائل الى البيت العتيق وبعده عندما يأتى العالم الاسلامى كله فى مكان واحد ووقت واحد ليتدابروا شـؤون الامة .

٣ـ اقتصر استعمال الثورة المصرية فى التطبيق الاشتراكى على النحو الدعائى الجدلى الاعلامى للمحافظة على النظام ضـد هجوم السعودية . كانت معركة بين نظامين سياسيين وحركتين تاريخيتين من خلال أجهزة الاعلام الرسمية ومفكرى كل نظام دون أن يكون له أثر كبير على الرأى العـام . ولم تتحول المبادىء الثورية الاسلامية العامة الى مشاريع ثقافية وحضارية للتحقيق . فالاسـلام الثورى كان مجرد خطابة يتعلمها الناس فيحفظها طلاب المدارس دون أن يكون لها مضمون عملى يذكر . فلا يكفى أن يقال : ان الاسلام دين تقدمى ، رابطة بين الشعوب الاسلامية ، دعوة قدسية الى الحرية ، نزل ليطالب البشر فى كل زمان ومكان أن يرفضوا استغلال شعب لشعب ، وطبقة لطبقة ، وانسان لانسان . بل نادى بالمساواة والعـدالة بين

الناس . كما لا يكفى أن يقال : ان رسالة الاســـلام بطبيعته معادية للاستعمار وللامتيازات الاقطاعية وللاستغلال الرأسمالى . أو يقال : ليس الاسلام قيدا يشد الناس الى الماضى بل حافز يدفع الى اقتحام المستقبل على توافق وانسجام كاملين مع مطالب الحرية السياســـية والحرية الاجتماعية والحرية الثقافية . فالتحدى الحقيقى هو قياس بعـــد المسافة بين المثال والواقع ، بين الممكن والمتحقق ، بين النوايا الطيبة والافعال القائمة ، بين العبارات الانشائية ومضامينها الخبرية .

٤ ــ الدائرة العربية نفسها ممتزجة بالدين . فالعروبة لغـــة والاسلام ثقافة . أما القومية العربية التى راجت ابان الثورة المصرية فقد كانت أقرب الى العلمانية باستثناء لبنان التى اقترنت فيها الناصرية بالقومية العربية والاســـلام ساعة الازمات وكما حدث ابان الحرب الاهلية الاولى فى ١٩٥٨ ثم الحرب الاهلية الثانية فى ١٩٧٥ وحتى الآن. أما ما يقال عن العروبة والاسلام فى مواثيق حزب البعث ولدى حركة القوميين العرب فانه أقرب الى التبشير بالعروبة وسط جماهير المسلمين . الاسلام مجرد أداة للتعبير ، ووسيلة للانتشار . وكيف يمكن استعمال الكل وهو الاسلام من أجل التشريع للجـــزء وهو العروبة دون وضع الجزء فى إطار الكل ؟ أن القـــول بأن تعاون جميـــع المسلمين دون خروجهم عن الولاء لاركانهم الاصلية هو تناقض يكشف عن استحالة الولاء المزدوج ، الاول نظرى للاســـلام والثانى عملى للعروبـــة . فاسلام دين دولة ، نظر وعمل ، ثقافة وسياسة ، حضارة وأمـــة . والحقيقة أن كليهما ، العروبة والاسلام ، قادران على الاســـتجابة لمطالب العصر فى الحرية والتحرر وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة . ومن هنا فلا وجود لتعارض مفتعل بين القومية العربية والاخوة الاسلامية

على ما يقول عبد الناصر . فالامة العربية بقواها الثورية التقدمية لا ترى فى الاسلام عائقا عن التطور بل دافعا له . ليست القومية العربية عازلا عن تضامن الشعوب الاسلامية ، فمواقع النضال من أجل الحرية السياسية والاجتماعية تعزز بعضها البعض وتتكامل فيما بينها(٢١) .

٥ — لم يكن دور مصر فى المحافظة على الاسلام قليلا . فمصر هى التى دافعت عن حصن المسلمين منذ الصليبيين حتى عين جالوت . جندها خير خير أجناد الارض وشعبها مرابط الى يوم القيامة . ومن ثم لا يعقل أن يحدث تصادم بين الاخوان والثورة كما حدث فى مارس ١٩٥٤ بدعوى الصراع على السلطة . ومنذ ذلك الحين تم شق الامة الى قسمين : الاسلام ضد الثورة والعروبة والقومية والاشتراكية والعلمانية . ثم انزوم الاسلام وتحول الى داخل السجون ثم خرج راغبا فى الانتقام . والثورة العربية تحولت الى ثورة مضادة من داخلها وبالتالى ضاع الحسنيان معا(٢٢) . وان ثقل مصر فى محيطها العربى والاسلامى انما يأتى من اللغة ، فالعروبة هى اللسان ، ومن الدين . فالاسلام ثقافة الامة .

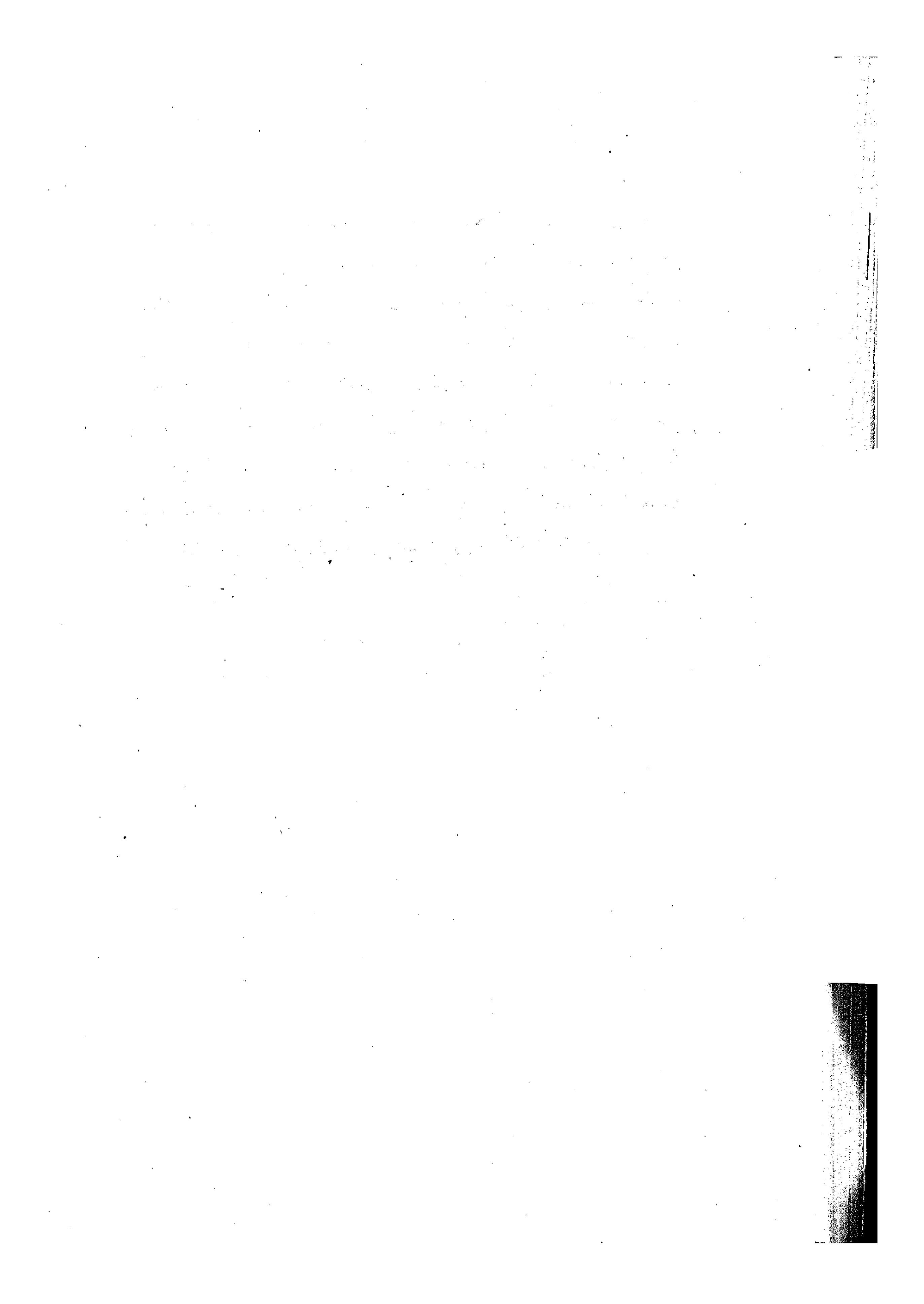
٦ — وبصرف النظر عن تشخيص المبادىء والافكار والسياسات

---

(٢١) انظر بحثنا : القومية العربية والاسلام ، هذا الجزء : الدين والنضال الوطنى .

(٢٢) انظر بحثنا : الحركة الاسلامية المعاصرة ، الجزء الخامس .

فى الزعماء وكثرة نقد الاشخاص فانه قد يتحول الامر الى أن تصبح المعارك السياسية معارك شخصية بين زعامات ، كل منها يدافع عن نفسه ، والكل يدعى الشرعية فى التمثيل السياسى للامة جمعاء • انما كان الهدف من ذلك بيان كيف أصبح أعداء الامس أصدقاء اليوم ، وكيف تحولت الزعامة فى القاهرة من ثورة الى ثورة مضادة • قد يكون فى البحث تكرار كثير ، ولكن الهدف كان ترك أقوال عبد الناصر تدل بنفسها ، فالخطابة السياسية ليست فقط شكل تعبير أو أداة اتصال بل هى أيضا موضوع سياسى يكشف عن الاوضاع السياسية العامة التى كان الخطاب السياسى فيها محورها الاول •



عبد الناصر والشـــاه

فى الوقت الذى لا يجد الشاه فى العـــالم كله مكانا يأويه أو طبيبا يداويه أو وطنا يحميـــه يتبرع حاكم مصر بالقيـــام بذلـــك تأييدا لعميل أمريكا وطاغية ايران ، فالعملاء يؤيد بعضهم بعضا ، والكـــل يتسابق لدى السيد فى اظهـــار مزيد من عمالته ، اذا ســـقط عميل أتى الآخـــر ليحمى الاول أو على الاقل ليأويه فى أيامه الاخـــيرة . وربما كان الدافع الرغبة فى أخذ أموال الشاه الهارب وثرواته المهربة التى تقدر بمئات الملايين من الدولارات فى البنوك الاجنبية والعقارات الشاهقة على الجبال وفى العواصم الكبرى والمجوهرات من فوق تاج الطاووس ومن ثنايا خزائنه ، الشاه أولا وماركوس ثانيا . وربما تأتى المصاهرة من أجل تشريع النهب والسرقة . فالمال مشاع بين الاسرة القديمة التى بها الشاب المدعى للعرش والاسرة الجديدة الطامعة بها العروس ، زوجة ملك المستقبل ! استقبل استقبال الملوك وهو الشـــاه الهارب المخلوع ، وشيعت جنازته رسميا ، وعلى عربة مدفع ، وأمامه جنود مصر ، وحرس حاكمها الخاص باسم اكرام الميت ، وواجبات الدفن ، واستقبال العزاء ! وهـــو الذى كان يسرع وهو حى بالقضاء

(*) كتب هذا المقال أيضا بعد اندلاع الثورة الاسلامية فى ايران وبعد موت الشـاه واقامة جنازة له فى مصر وبعد عقد معاهدة كامب ديفيد فى ربيع ١٩٧٩ ، لتوضيح التقابل بين عدو الامس وصديق اليوم (الشـاه) وبين زعيم الامس (عبد الناصر) وحاكم اليوم (السادات) . والاصل مفقود . وهذه صياغة ثانية من المسودة الاولى تمت فى خريف ١٩٨٧ .

على الاحياء وانهاء الآجال • كانت جنازة لا يحيط بها ولا يسير فيها فيها ولا يرعاها الا الخونة والعملاء باسم الدين وتحت ستار الاسلام • وقد يكون أطباء أمريكا هم الذين قتلوه أثناء اجراء العملية الجراحية له بجرح الكبد حتى تنتهى مشكلة تسليم الشاه والافراج عن الرهائن • قتلته أمريكا باسم العلم ، وواريناه نحن التراب باسم الدين ، خديعة فى الاولى ، ونفاقا فى الثانية •

وهو الشاه الذى عادته مصر فى ثورتها والذى كان عدوها اللدود مع حكام الرجعية والخيـانة • فلما انقلبت الثورة الى ثورة مضادة ، تحول عدو الامس الى صديق اليـوم • أحالنا الواقع المر الحالى الى الحلم الثورى القديم • ماذا كانت صورة الشاه أيام كانت مصر فى قلب الثورة العربية وتحت قيادة زعامتها الثورية ؟ كان الشاه أداة الاستعمار ضد التقـدم ، ومطية الصهيونية ضد شعب فلسطين ، وعميل أمريكا ضد الاستقلال الوطنى للشعوب ، وحليف الرجعية ضد القومية العربية ، والمناهض للوطنية ضد مصدق والحكم الوطنى ، والمتـاجر بالدين والمزيف لشـعارات الاسلام باسم الحلف الاسلامى ، والقاضى على الحريات بأوامره للسافاك • هذه هى صورة الشاه فى الخطابة السياسية للزعامة الثورية فى الستينات فى مصر •

١ ــ أداة الاسـتعمار •

فأول خط فى رسم صورة الشاه فى الخطاب السياسى عنـد عبد الناصر أن الشاه أداة للاستعمار • فقد كان محرضا فى حلف بغداد ، وكان محرضا لانجلترا وتت العدوان ومؤيدا لها ، وكان محرضـا ضد

الامة العربية وضـــد القومية العربية • كان يزيف الشعارات ليضـــع الامة العربيـــة داخل منطقة النفوذ الامريكية والبريطانية • لذلـــك حاولت الثورة المصرية كشفه باستمرار باعتباره عميلا للاستعمار وعدوا للرجعية • أيده الاستعمار ، ونصبه على العرش خلفا لابيه ، وأرجعه بعـــد هروبه فى وجه ثورة مصدق الوطنية • وأيده بالسلاح والمعلومات عن المعارضة • كان الغرب يعتبر ايران واحة أمان فى الشرق الاوسط ، وأبعد البلدان عن الثورات والتقلبات السياسية • وفجأة وبلا مقدمات اندلعت الثورة ، ونزلت الملايين الى الشوارع ، وظهر الائمة كقـــادة تاريخيين للشعوب الاسلامية • وانضم الجند الى الشعب فى ثـــورة عرابية ناجحة ، وهرب الشاه • رفض الاستعمار استقباله ، واستقبله أعوان الاستعمار الآخرون فى المناطق القريبة • تنصل الاستعمار منه حرصا على شعب ايران ، وتمادى باقى العملاء فى مســـاندته تقربا للاسياد ، وطمعا فى ثروة الشاه المخلوع • وانضم الشاه الى نادى الملوك المخلوعين الذين رأوا فى الاستعمار خير ســـند لهم ضد شعوبهم مثل لول نول ، سبارك ، ديم ، تشان كاى تشيك ثم لحق بهم ماركوس والنميرى ، والباقون آتون بأشخاصهم أو ان لقوا حتفهم قبل الهروب يمثلون بأزواجهم(١) •

---

(١) تم الاعتماد فى هذا المقال على الخطاب السياسى لجمال عبد الناصر بروحه لا بنصه وعن طريق شرحه دون فصل بين النص والشرح • وهى احدى طرق القدماء فى الشرح عن طريق العبارات الشـــارحة للمعنى Paraphrasing سواء بنفس الالفاظ أم بغيرها • والمقال تكبير لنقطـــة واحدة هى « عبد الناصر والشاه » من المقال السابق الاعم « عبد الناصر والحلف الاسلامى » الذى يشمل سعود ، وفيصل ، وبورقيبة ، والحسين ، والشاه • والذى هو بدوره تكبير لنقطة واحدة من المقال القادم « عبد الناصر والدين » •

٢ — مطيـة الصهيونية ٠

وثانى خط فى صـورة الشاه هو أنه مطيـة الصهيونية وحليف اسرائيل ٠ لقد باع الشاه نفسه بأبخس الاسعار للاسـتعمار حتى اعترف باسرائيل ليرضى أمريكا ٠ ولكن الامة العربية لم تخدع ولم تتأثر بهذه الشعارات الزائفة ٠ فهى تعلم أن الاستعمار أقام اسرائيل فى قلب الامة العربية ، وأنه يريد من اسرائيل أن تقضى على الامـة العربيـة ، وان أعوان الاستعمار لا يمكن أن يكونوا للاستعمار الا خدما ينفذون أوامره ٠ وتنظر الزعامة فى مصر الى هؤلاء الاعـوان باحتقار شديد لانها عندما صممت على استقلال البلاد استطاعت أن تنتزع الاستقلال انتزاعا ٠ هذه الروح هى التى تسرى فى كل شعوب الدنيا ٠ وان شعب ايران الذى ثار ليتحرر والذى انتكست ثورتـه لا يمكن أن يقبل أن يخضع للاستعمار أو لمناطق النفوذ ، ولا يمكن أبدا أن يكون مطية للصهيونية العالمية لتتحكم فى مصير ايران ٠ لقد باع الشاه نفسه للاستعمار والصهيونية ، وأعلن بنفسه أنه يعترف باسرائيل ليرضى هؤلاء الاسـياد ، أمريكا وبريطانيا والصـهيونية واسرائيل ٠ لذلك لم تقبل الثورة المصرية أن تبقى لها سفارة فى ايران بل أغلقتها ٠ ولم ترض أن يكون لها ممثل لدى هـذا الذى باع نفسه للصهيونية وللاستعمار ٠ وقد أتى اليوم الذى تحررت فيه ايان من الرجعية والفسـاد والسيطرة والاستعمار والصهيونية حتى تعـود الثورة المصرية وتفتح سفارتها لدى شعب ايران الحر الابى الكريم ٠ ان الثورة المصرية تقف مع شعب ايران وتؤيد ثورته من أجل التحرر حتى يصبح هذا الشعب سيد نفسه ، لا مطية للاستعمار والصهيونية ٠

٣ ــ عميل أمريكــا •

والخط الثالث فى صورة الشاه فى الخطاب السياسى لدى عبــد الناصر هو أنه عميل أمريكا ، لما كانت أمريكا هى زعيمة الاستعمار فى العصر الحديث بعد أن تخلت بريطانيا زعيمة الاستعمار القديم عن دورها المباشر فى قيادة الاستعمار العالمى وتنازلت عنه لامريكا • ولما كانت الصهيونية أداة الاستعمار وخلقه وكانت أمريكا زعيمة الاستعمار كان الشاه فى نفس الوقت أداة الاستعمار ومطية الصهيونية وعميــل أمريكا • لقد جعل الشاه نفسه مطية للصهيونية وللاستعمار ، وأراد أن يتحدى الامة العربية وأن يجعل من نفسه ومن بلاده خادما للصهيونية وللاستعمار • لذلك أغلقت الثورة المصرية سفارتها فى طهران اذ لا يمكن أن يكون لها ممثل لدى رضــا بهلوى شاه ايران وهو نفسه ممثــل الاستعمار والصهيونية • لقد ظن الشاه أنه بواسطة اسرائيل والصهيونية العالمية يستطيع أن يحصــل على دولارات أكثر وتأييد أمريكى أعظم لاخضاع شعب ايران • ولقد كافح شعب ايران طويلا ، ومع ذلك استطاع الشاه اخضاعه واجهاض ثورته • وفى كل يوم كان الشاه يعقد مؤتمرا صحفيا للهجوم على الثورة المصرية التى حررت شعب مصر والتى أصبحت رائدة التحرر للثورة العربية ، وهو فى الحقيقــة بوق لاسياده ، جعل ايران مستعمرة أمريكية ومستعمرة صهيونية ، خاضعة للنفوذ الامريكى والصهيونى • قــام الشاه باستغلال ايران لصالحــه ، ونهب أموال الشعب ، وسرق ثرواته • حول ايران الى دولة داخلة ضمن الاحلاف الغربية ، واقعة تحت حماية الغرب • يعطيه الغرب معونات كل ســنة فيسرق بعضها وينفق البــاقى على الجيش لحمايته وللانقضاض على الثورة العربية اذا ما حان الوقت •

٤ ـ حليف الرجعية •

والخط الرابع لرسم صورة الشاه من الخطاب السياسى لعبد الناصر هو أنه حليف الرجعية العربية ، وعدو الحركة التقدمية العربية • لذلك أيدته النظم الرجعية فى السعودية والاردن وتونس والمغرب ، وهو يعادى النظم التقدمية العربية فى سوريا والعراق ومصر والجزائر • والرجعية ترى أمريكا حليفها الاول فتتعاون فيما بينها وتنسق مع أمريكا من أجل اجهاض الثورة العربية التقدمية والقضاء كلية على احتمالات الثورة فى ايران • كان عبد الناصر على علاقة وثيقة بكل التنظيمات الثورية الايرانية المناهضة للشاه والعاملة داخل الوطن مثل « مجاهدى خلق » ، و « فدائيى خلق » ، يمدهم بالسلاح ويعدهم بالتدريب مع جيش فلسطين حتى يأتى الوقت لتخليص شعب ايران من حكم الشاه • ان ثروات الشاه وثروات أمراء النفط فى الغرب وفى أمريكا لاستثمارها هناك خشية من مطالبة الشعبين الايرانى والعربى بها عندما تحن الثورة •

٥ ـ المتاجر بالدين •

والخط الخامس فى رسم شخصية الشاه هو أنه متاجر بالدين • فباسم الحلف الاسلامى أراد تجميع الرجعية العربية والاستعمار الامريكى فى حلف واحد تحت ستار الاسلام وهو الحلف الاسلامى • لقد زيف الشعارات الوطنية والشعارات الاسلامية • ولكن الشعبين الايرانى والعربى كشفا زيف هذه الشعارات وأغراضها فى أن تخدع الامة العربية لتدخل من جديد فى مناطق النفوذ ، وليتم تكبيلها بالسلاسل الى الابد • ان شعب ايران اليوم يستطيع أن يكشف كل

ما يدعيه الشـــاه حينما كان يتكلم عن الحلف الاسلامى وهو حـــلف بغداد القديم وحينما كان يبين أن هذا الحلف الاسلامى انما هو السند للعروبة جمعـــاء • ان هذه الاحلاف التى نادى بها أعوان الاستعمار ليست الا السند الاكبر للاستعمار ومناطق النفوذ والســـند الراسخ للصهيونية العالمية • أما الامة العربية فقد كافحت مع شعب ايران فى ســـبيل حرية الوطنين ومن أجـــل استرداد حقوق شعب فلســـطين ان رد الثورة المصرية على الاستفزاز الناتج عن تزييف الشعارات لخداع الامة العربية وتكبيل شعب ايران هـــو مزيد من الكشف عن التجارة بالدين والخداع باسم الدين اعتمادا على التصـــور الدينى التقليدى لدى عامة الناس الموروث من التراث القديم والذى تروجه أجهزة الاعلام فى النظم الرجعية وفى الغرب على حد سواء(٢) •

٦ ـــ المناهض للوطنية •

والخط السادس فى صورة الشاه هو أنه أكبر مناهض للوطنيـــة وللاستقلال الوطنى داخل ايران • لذلك لم يتحمل الثورة العربيـــة التى كانت تدافع عن الاستقلال الوطنى للامـــة العربيـــة دفاعا عن سيادتها واستقلالها فى صنع القرارات السياسية والاقتصادية • كان من الواضح أن الشاه لديه عقدة مصدق ، مصدق الذى قـــام ليحرر بلده ، ويقضى على الاحتكارات التى قامت فيها ، مصدق الذى قـــام ليقضى على النفوذ الاجنبى ، مصدق الذى استطاع الشاه بالتعاون مع

---

(٢) أنظر مقالنا السابق « عبد الناصر والحلف الاسلامى » •

الاستعمار أن يقضى عليه وعلى ثورته • كان شبحه يقف دائما للشاه بالمرصاد • وكان ينظر الى الثورة التى قامت فى مصر والى الحركة التحررية فى أنحاء الامة العربية ، كان ينظر اليها بخوف ورهبة لانه كان يعلم أن ثورة قد قامت فى بلده فى الماضى واستطاع بواسطة الاستعمار أن يقضى عليها ، وأن ثورة قد تنشب فى المستقبل وتطيح به • كانت عقدة مصدق هى التى تدفع شاه ايران دائما الى أن يضع نفسه داخل النفوذ الاجنبى • واذا كان شاه ايران قد باع نفسه بثمن بخس فان شعب ايران لا يمكن أن يبيع نفسه بالذهب أو بكل كنوز الدنيا • ان شعب ايران يكافح ولم يتوقف عن النضال ضد الشاه • ومنذ أسبوع واحد فقط استغنى الشاه عن ٥٠٠ ضابط من ايران بدعوى أن الفساد موجود بالجيش ، وهم الضباط الاحرار الذين يخشى الشاه منهم • وقد قام الشاه من قبل ، بعد ثورة مصدق وقضاء الاستعمار عليها باعدام ٦٠٠ ضابط وبعدما مكنه الاستعمار من العودة الى العرش مرة أخرى بعد هروبه خارج ايران وكما هرب بعد الثورة الاسلامية الاخيرة •

٧ — القاضى على الحرية •

سيظل الشاه مثلا يضرب فى التعذيب والتنكيل بالشعب وبالخصوم على يد السافاك الذى طار صيته الآفاق فى الوحشية والقسوة • كان الخصوم السياسيون يعذبون حتى الموت فى السجون ، تقطع أيديهم وأرجلهم ويقذف بهم فى البحار والمحيطات • كانوا يخطفون نهارا وليلا ، ويختفون ولا يدرى أحد مصيرهم • كان الشاه يصور نفسه ويصوره الغرب على أنه أكبر نصير للحريات ضد الهيمنة الشيوعية

والارهاب الماركسى • وكان فى نفس الوقت يزج بالآلاف فى المعتقلات • وحتى اندلاع الثورة الاسلامية الاخيرة ، كانت دباباته تسير على أجساد الآلاف من المتظاهرين فى الشوارع • لقد مثل المشوهون والباقون أحياء من التعذيب أمام المحاكم الثورية الاسلامية بعد انتصار الثورة كشواهد حية ضد عملاء السافاك دون ما حاجة الى أقوال اثبات ودون ما حاجة الى أقوال دفاع عن المتهمين : آذان مقطوعة ، أيادى مبتورة ، أصابع مثلومة ، عيون مفقوءة ، ألسنة مشطورة ، أنوف مجدوعة ، أجساد كسيحة ••• الخ • ولقد استطاعت الاتحادات والتنظيمات الطلابية فى الخارج تأليب الرأى العالمى كله ضد الشاه ، وبالوثائق والصور حتى لم يعد أمام الاستعمار مهرب الا الاستسلام والتخلى عن عميلها والتضحية به وبحثا عن عميل آخر ينجح ويعيد الكرة(٣) •

هذه خيوط سبعة تظهر فى الخطاب السياسى لعبد الناصر وترسم صورة الشاه • ليس هو الاخ السليم ، أو الصديق المخلص الذى مد العرب بالبترول أثناء حرب أكتوبر ، أو الذى أعطى مصر صفقة الاوتبيسات المريبة التى انسابت منها العمولات فى جيوب الحكام • وليس هو الصهر المحتمل والحمو الرقيب وأب « العريس » المرتقب ، ولى العهد الذى ينزل بسراى القبة ويجثم على أرض مصر • هو

---

(٣) خطاب فى المهرجان الرياضى الذى اقيم مساء ١٩٦٠/٧/٢٦ ج ٣ ص ٢١٧ — ٢١٩ ، خطاب فى عيد النصر ببورسعيد فى ١٩٦٤/٢/٢٢ ، ج ٥ ص ١٠١ ، خطاب فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى بمناسبة الاحتفال بالعيد القومى للسويس فى ١٩٦٦/٣/٢٢ ، ج ٥ ص ٥٣٢ ، حديث للرئيسين عارف وناصر للصحفين العرب فى ١٩٦٧/٢/٤ ج ٦ ص ٣٥ •

صاحب الكنوز الذى هربها فى كل مكان والتى كان حاكم مصر يقتفى أثرها ودفع ثمنا بخسا فى نظره ، باهظا فى نظر الشعب ، قطعة أرض وحفنة تراب من ثرى مصر يوارى فيه الخائن جسده بعد أن لفظته الارض فى كل مكان • ولكنه سرعان ما لحق به • فتشابهت الجنازتان ، واتحد المصيران •

عبد الناصر والدين

يظهر ناصر هذه الايام وكأنه كان حلم حياتنا • فقد استطاع لاول مرة فى تاريخنا الحديث منذ محمد على صياغة مشروعنا القومى الذى تمثل فى مبادىء الثورة الست والذى تحقق على مدى ثمانية عشر عاما فأعطى المنطقة واقعا وكيانا مناهضا للاستعمار والصهيونية والرأسمالية ومؤداه استقلال الارادة الوطنية للشعوب وسيطرتها على وسائل الانتاج ومؤسسا حركة عدم الانحياز التى أصبحت تمثل مستقبل العالم ، تمده بقيم جديدة فى التحرر الوطنى والعدالة الاجتماعية •

وبالرغم مما عاناه البعض منا أثناء تحقيق مشروعنا القومى ، رغبة فى المزيد من العدالة الاجتماعية أو مطالبة منا بالمشاركة فى صنع الرقار ، وتأسيس نظام ثورى شعبى يساند القيادة الا أننا فى هذه الايام وبالمقارنة بما يحدث الآن ، نعتبر معاناتنا القديمة وكأنها لا شىء بالنسبة لمآسينا الحالية وانقلابنا على أنفسنا ، واقامتنا مشروعا مضادا يتحالف مع الاستعمار ، ويستسلم للصهيونية ، وتتشابك مصالحه مع الرأسمالية العالمية • أصبح كل من يقاوم الرأسمالية العالمية عميلا

(*) كتب هذا البحث ابان الثورة المضادة فى مصر لاستغلال الدين من أجل الابقاء على الوضع القائم وكتبرير للثورة المضادة واضفاء الشرعية عليها . وقد أرسل الى جريدة « السفير » فى بيروت لنشره فى سبتمبر ١٩٧٩ بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة جمال عبد الناصر .

للاشتراكية الدولية ، وكل من يرفض الاستسلام للصهيونية مغامرا رافضا متاجرا بالحروب وكل من يناهض الاستعمار مأجورا للمعسكر الاشتراكى ويعمل لحساب الشيوعية ، وكل من يتحدث عن معاناة الجماهير كافرا ملحدا ! .

كما يظهر الدين انا هذه الايام وكأنه قد أصبح الدعامة الاولى للثورة المضادة نظرا لغياب أى تنظير لها . فالطبقة الحاكمة التى بيدها المال والسلطة ليست فى حاجة الى تنظير بل وتدرك سذاجة المنظرين الجدد وسطحيتهم ونفاقهم وجبنهم . لم يبق الا اللجوء الى الدين لتدعيم الثورة المضادة واضفاء الشرعية عليه . فالدين يدعو الى التوازن بين الدنيا والآخرة وعلى الفقراء المحرومين ألا يشغلوا أنفسهم بهموم الدنيا فالآخرة خير وأبقى . كما يدعو الى التوازن بين الفرد والمجتمع ، فعلى الاغنياء أن يقووا من فرديتهم وأنانيتهم ضد النزعات الاجتماعية . كما يدعو الى التوازن بين العنصر المادى والعنصر الروحى ، فعلى الفقراء أن ينعموا بالروح الباقية بدلا من المادة الفانية التى يعكف عليها الاغنياء !

أصبح الدين فى أيامنا مجموعة من الشعائر والطقوس ، واطالة اللحاة ، وتمتمة الشفاة ، وتسبيل العينين ، وبناء المساجد ، وانارة المآذن ، والاعلان على الصلوات الخمس فى أجهزة الاعلام ، ولبس الحجاب حتى يحيد الشعور الدينى عن البناء الاجتماعى ومظاهر الظلم والفساد وأشكال التسلط والطغيان . أصبح الدين فى أيامنا دعوة الى تطبيق الشريعة ، واقامة الحدود ، ووضع مادة فى الدستور تجعل الشريعة مصدرا أساسيا للتشريع ، وايقاف بيع المشروبات الروحية فى

شهر رمضان فى الاماكن العامة على المصريين وحدهم دون العرب والاجانب تشجيعا للسياحة ! كما أصبح دعوة لتطبيق الحدود قطع اليد ورجم الزانى على صغار الناس وافساح المجال للمضاربات والرشاوى والعمولات بلا حدود ، وانتشار قيم الاستهلاك والانحلال وتجارة الرقيق الابيض • وكلها مزايدات كلامية وتعمية على ما يدور فى الواقع من اختلاس وحرائق ونهب لثروات الشعوب ، وتبرئة للذمة للتستر على أسباب الجرائم الحقيقية فى النظام الاجتماعى • أصبح الدين فى أيامنا مجموعة من العقائد النظرية يؤمن بها الانسان ولا ينتج عنها أثر عملى فى الحياة الاجتماعية كل من خرج عليها يكون كافرا وذلك لمنع حرية الفكر والاجتهاد وحتى لا ينكشف المضمون الاجتماعى للعقيدة فيثور الناس • أصبح الدين شيئا والسياسة شىء آخر ، وعدنا الى المقالة الابليسية القديمة التى روج لها الاستعمار ، ودعت اليها الرجعية • أصبح الدين مجموعة من القيم السلبية مثل الصبر والرضا والقناعة والتسليم والمحبة تدعو الناس الى الاستكانة والرضوخ والاستسلام والخروج من حلبة الصراع الاجتماعى ، وقبول الامر الواقع ، وانتظار الفرج القريب • فالايمان يدعو الى القبول والتسليم بلا تفكير أو اعتراض ، والاصالة تحتم التصدى للنظم الاشتراكية المستوردة ، والصلابة تقف فى مواجهة مخاطر الانقلابات وتغيير النظم الاجتماعية •

وهنا يظهر لنا ناصر من جديد واستخدامه الدين من أجل الثورة كعزاء لنا عما نحن فيه هذه الايام من استخدام الدين لتكريس الثورة المضادة • أصبح الدين لدينا الآن « أفيونا للشعب » بعد أن كان « صرخة للمضطهدين » • وقد ظهر البعد الثورى للدين فى معظم المعارك التى دخلها ناصر : الدين والثورة (١٩٥٢) ، الدين والسلطة

(١٩٥٤) ، الدين والوحدة (١٩٥٨) ، الدين والاشتراكية (١٩٦١) ، الدين وعدم الانحياز (١٩٦٥) ، الدين والصمود (١٩٦٧) • وسأترك ناصر يتحدث عن نفسه من خلال خطبه ومواثيقه وأحاديثه(١) •

١ — الدين والثورة (١٩٥٢ — ١٩٥٣) :

لقد قام الضباط الاحرار بالثورة التى سبقتهم اليهـا رجال الدين • فثورة الجيش وثورة العلماء ثورة واحدة • لقد وقف رجال الدين أمام نابليون ، ونادوا الى الجهاد ، وقاوموا الحملة الفرنسية • ثم قام عرابى متسلحا بروح الازهر مدافعا عن حقوق الوطن • ثم اشترك العلمـاء فى ثورة ١٩١٩ ، وقاد رجال الدين المظاهرات • لذلك كان هدف الاستعمار هـو القضاء على الجيش وعلى الازهر ، قمع الضباط الاحرار ورجال الدين • ففى مصر قوتان : قوة الجيش وقوة العلماء ، وكـان هدف الاستعمار دائما تسريح جيش مصر والقضاء على هيبة العلمـاء ، وتشويش الدين وافساد نظم التعليم • لقد كان دور العلماء دائما هو توجيه السياسة المصرية • فقد قام السيد عمر مكرم بتنصيب محمد على واليا على مصر ، وارتفع صوت محمد عبده ينـادى بالاصلاح الدينى • كما ارتفع صـوت لطفى السيد مناديا بأن تكـون مصر للمصريين •

---

(١) هذه المعارك التى دخلها ناصر حول الدين والنضـال الوطنى بدات فى تواريخ محدودة ولكن ظلت مستمرة على مدى حياته وابان الثورة المصرية . فمعركة « الدين والثورة » مثلا بدات منذ اندلاع الثورة فى ١٩٥٢ ولكنها استمرت حتى ثورة اليمن ١٩٦٢ وكذلك ايضا بدات معركة الدين والسلطة فى ١٩٥٤ ولكنها استمرت حتى صراعه الثانى مع الاخوان فى ١٩٦٥ . فالتاريخ المعطى هو بداية المعركة فقط وليس مسارها .

ودعا قاسم أمين الى تحرير المرأة • فالدين والوطنية والمجتمع كله روافد ثورية واحدة لان الدين ثورة وطنية اجتماعية •

ولكن لسوء الحظ استغلت الدولة العثمانية الدين ضد مصلحة الجماهير ومن أجل تثبيت دعائم الظلم والطغيان ، وبث الرشوة وافساد الضمائر وتدعيم حكم الاقلية المسيطرة ضد غالبية الشعب المطحون حتى عاش الشعب أسود فترات الظلم والطغيان تحت ستار الدين • ثم أتى الاستعمار فأيد نظام الاستبداد واعتبر مع السلطان كل ثائر من رجال الدين أو رجال الجيش خارجا على الدين • لذلك لم يكتف الضباط الاحرار فى مصر بقول « يارب يا متجللى ، اهلك العثمانللى » ، ولكنهم كانوا يرون أن ميدان الجهاد الاكبر هو فى مصر وذلك من أجل الثورة ، « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ••• » ، تلك المهمة التى شاءها القدر لهم • كما استطاع الاسلام أن يقف فى مواجهة الحملات الصليبية قديما وهى الشكل القديم للاستعمار • واستطاع أيضا الوقوف أمام الغزوات الاستعمارية حديثا وهى الشكل الحالى للحملات الصليبية •

لقد أتى الاسلام برسالة تحرر للانسانية جمعاء من الذل والعبودية والمادية • تلك هى روحانية الاسلام لا الروحانية العرجاء الصماء التى تعبر عن العجز والنفاق • « ان القيم الروحية الخالدة النابعة من الاديان قادرة على هداية الانسان وعلى اضاءة حياته بنور الايمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة » • فالدين توجيه للانسان وثورة للجماهير يقوم على الحرية • « فان هذه القيم لابد لها أن تعكس نفسها فى ثقافة وطنية حرة تفجر ينابيع الاحساس

بالجمـال فى حياة الانسان الفرد الحر • ان حرية العقيدة الدينيـة يجب أن يكون لهـا قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة » • فالدين ليس تكفيرا وتفتيشـا فى الضمائر واتهاما للابرياء بل ثقافة وطنيـة حرة واجتهاد مفتوح والتزام بأهداف الامة • « ان رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات انسانية استهدفت شرف الانسان وسـعادته • وان واجب المفكرين الدينيين الاكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته »• فالدين ثورة انسانية ، ورجال الدين هم الثـوار وليسوا بائعى الفتاوى وفقهـاء السلطان • « ان جوهر الرسـالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وانما ينتج التصـادم فى بعض الظروف ومحاولات الرجعية أن تستغل الدين ضـد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسـيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية » • فالدين فى حقيقته ثورة ولكن النظم الرجعية تحيله الى ثورة مضـادة • « لقد كانت جميع الاديان ذات رسـالة تقدمية ولكن الرجعية التى أرادت احتكـار خيرات الارض لصالحها وحدها أقدمت على جريمة سـتر مطامعها بالدين وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيـار التقدم •

وتعود القيم الثورية فى الاسلام للظهور بعد ثورة اليمن فى سبتمبر ١٩٦٢ وتظهر قيم الحرية والتحـرر بالاضافة الى النظام الجمهورى الجديد ، حكم الشعب بالشعب والقيم الاشتراكية الجديدة فقد كانت معركة الاسـلام والاشتراكية فى أوجها • لقد قامت ثورة ٢٣ يوليو فى مصر وهى تحمل شعارات الاسـلام التى خرج بها الى العالم أول مرة وأولها الحرية ، حرية الفرد وحرية الوطن • فقـد حرر الاسلام كما حررت الثورة الفرد من سيطرة الاقطـاع ورأس المال وكل أشكال

السيطرة • لقد عادت الثورة تثبت دعائم الاســـلام التى قوضتها الخلافة وحررت المسلمين من الاســـتعمار البريطانى • ثم قامت ثورة اليمن فحررت العلماء الاحرار والضباط الاحرار من السجون والمعتقلات قامت ثورة اليمن للقضاء على الرق والعبودية بالقضـــاء على حكـــم الائمة الذين اتخذوا الدين ســـتارا للاقطاع والتسلط فى حين أن رسالة الاســـلام رسالة الحرية والمساواة • لقـــد انتشر الاسلام من اليمن فى أرجاء الارض ولكن نظام الائمة عزل اليمن فقامت الثورة لتعـــيد الى اليمن رسالته فى الحرية والتضامن ، رســـالة الاسلام الاولى • لقـــد حرر الاسلام اليمن من الرق والعبودية والاقطاع ولكن نظـــام الائمة قضى على ما أتى بـــه الاسلام • ثم جاءت الثورة وأعادت الى اليمن رســـالته الاولى • فقد قام محمد بن عبد الله للقضـــاء على الاقطاع والاستبداد والاطاحة بحكم الاسر ، أسر بنى سفيان وقريش • كان حكم الائمة مشابه للحكم العثمانى ، كلاهما باسم الدين وتحت ستاره ، وكلاهما تكاتف مع الاســـتعمار فى الارهاب وقطع الرؤوس والاعتقـــال •

ورسالة الاسلام أن يكون الامر شورى ، لا امامة ولا ملكيـــة بل جمهورية يشعر فيها كل فرد بحقه فى الحرية والحياة ، له الحق فى أن يكون رئيسا للجمهورية • « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفســـدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » • لم يكن حكم الائمة قائما على الشـــورى بل على مبدأ الحكم الفردى والسيطرة والتحكم ، حكم الســـيف وقطع الرقاب • ولكن ثورة اليمن أعادت اليه حكم الشـــورى ، حكم الاسلام الممثل فى مجلس الامة والحركات الشعبية وحق كل فرد فى التعبـــير الحر عن رأيه • وعلى هـــذا النحو ترسى دعائم الاسلام • لم يورث

الاسلام الامة ابنا عن أب أو أبا عن جد ولكنه نادى بأن يكون الحكم للشعب لا أن تكون الولاية وراثية • لقد حكم المسلمين بعد النبى أبو بكر وعمر لان المسلمين اختاروهما وبايعوهما • فالاسلام يعنى المساواة بين الجميع أو حق كل فرد فى الحكم اذا ما اختاره الناس بغض النظر عن حسبه ونسبه وعائلته وقبيلته • يكفى أنه مسلم له حق الحرية والمساواة •

والنظام الجمهورى هو الذى تتحقق فيه هذه المبادىء الاسلامية عادة كالشورى والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والمبادىء التى قامت من أجلها الثورة فى الديمقراطية والمساواة • فالجمهورية تعنى اختيار الشعب بارادته الحرة الحاكم الذى يتولى شئونه • ويمكن لكل مسلم أن يتصدى للحاكم كما تصدى المسلمون لعمر وقالوا له « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » • ليس بالاسلام كهنوت يحكم بالحق الالهى اذ يستطيع الشعب أن يعزل الحاكم اذا انحرف عن مصلحة الشعب وارادته •

ولما كانت الثورة فى حاجة الى البذل والعطاء فان الاسلام يوفر لها ما تريد بما يقدمه للناس من قيم الجهاد والتضحية التى تتضح فى عيد الفطر وعيد الاضحى • فالصائم يضحى بمأكله وشرابه فى سبيل الاحساس بالآخرين • وابراهيم ضحى بابنه طاعة لله وتنفيذا لامره • وحياة الرسول كلها تضحية وجهاد فى حربه للمشركين حتى فتحه مكة • والانسان هو الذى حمل الامانة بعد أن أبتها السماوات والارض والجبال ، والمسلم هو الذى عقد تجارة مع الله للجهاد فى سبيله • فالاسلام جهاد ، وما فرضت العبادات فى الاسلام الا لتقوية

النفس واعدادها لخوض المعارك دفاعا عن الوطن • « لقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » • وتتحقق أمانى الشعوب بالاعمال وليس بالامانى والمنى • وقد أعطت المسيحية أيضا درس الجهاد والشهادة والتضحية فى حياة المسيح والحواريين والمؤمنين وما لاقوه جميعا من اضطهاد الرومان • طريق الجهاد اذن هو طريق الانبياء وطريق الثوار ، طريق العمل والفداء • كما جاهد محمد والمسيح وقد كان باستطاعة الله تأييدهما ونصرهما • وما قام به الضباط الاحرار ان هو الا جزء من الجهاد •

ولما ترك المسلمون الجهاد واستسلموا للذل والطغيان غزاهم الاستعمار • وبالتالى لن يتحقق تحرير المسلمين الا بالجهاد وتوحيد الامة ضد تفككها من أجل مواجهة الاستعمار والقضاء على المنافقين فى الامة من الامراء والسلاطين مثل يوسف خنفس فى مصر والجلاوى فى المغرب • ان تحرر المسلمين من الاستعمار البريطانى لهو الجهاد الذى نادى به الاسلام ، الجهاد فى سبيل الوطن وفى سبيل الله لا ابتغاء الشهرة بل ابتغاء مرضاة الله • رسالة الدين رسالة الجهاد فى مواجهة بريطانيا التى تآمرت على المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، وتآمرت على العرب لانها اعتقدت أن ذل العرب ذل للاسلام • وقد كتب الجهاد على جنود مصر من أجل الحق الالهى للانسان العربى فى أن يحيا بالحرية والعدل • ولم تتردد مصر فى ارسال أبنائها لدفع العدوان الرجعى الاستعمارى على ثورة اليمن لان الثورة فى مصر تؤمن بعزة العرب جميعا كأساس لعزة الاسلام • « ان جبال اليمن تحمل قبسا من نفس الشعلة المقدسة التى يحج اليها المسلمون فى عرفات » ، نفس الروح العظيمة التى أجرت بها العناية الالهية قدرة البشر على التضحية

من أجل العقيدة وفاء للرسالة ، رسالة الانسانية والتحرر • لقد عاهد جيش مصر على هذه الارض المقدسة على طرد بريطانيا من عدن ومن كل الجنوب العربى وعلى نصرة دين الله ومساعد الاخوة الذين يكافحون الاستعمار فى جنوب اليمن • ان رسالة مصر نحو الاخوة العرب والمسلمين هو شد الازر والمساعدة على أن يرسوا فى بلادهم دعائم الاسلام الحقيقية • لقد جاءت الثورة المصرية لمساعدة الثورة اليمنية ورد اعتداء الرجعية والاستعمار عليها تنفيذا لامر الله ، لم تحارب الثورة المصرية فى بلد غريب بل فى بلد شقيق • ان جنود مصر حضروا الى اليمن واستشهدوا فى سبيل الله من أجل رسالة الله ، لا من أجل منفعة بل من أجل مبدأ ، وسارعوا لملاقاة الله من أجل رفعة راية الحرية وهى راية الاسلام ، جزاؤهم عند الله وليس عند الناس كما خرج الجنود الاوائل طلبا للاستشهاد فى سبيل الله •

واذا كان الجهاد الاصغر هو الجهاد ضد الاستعمار من أجل تحقيق الاستقلال فان الجهاد الاكبر وهو جهاد النفس ، جهاد ضد التخلف والفقر ، جهاد التنمية والتغير الاجتماعى • الاول ثورة ضد الاستعمار الاجنبى ، والثانى ثورة ضد الفقر والجوع والجهل والمرض • فالجهاد ثورتان : ثورة سياسية وثورة اجتماعية وهو ما حققته الثورة المصرية رائدة الثورات العربية •

٢ — الدين والسلطة (١٩٥٤ — ١٩٥٥) :

لقد كان من سوء الطالع صدام الثورة المصرية مع الاخوان المسلمين فى بداية المد الثورى فى ١٩٥٢ وفى بداية الانحسار الثورى

فى ١٩٦٥ • كانت العلاقة بين الثورة والاخوان علاقة وطيدة من خلال اتصالات ناصر بحسن البنا ووجود بعض الضباط الاحرار من الاخوان مثل عبد المنعم عبد الرؤوف ومساهمة الاخوان ليلة الثورة وبعدها فى تأييد الثورة والدفاع عنها • وقد حدث الصراع على السلطة حتى قبل الثورة عندما طلب عبد المنعم عبد الرؤوف انضمام حركة الضباط الاحرار الى الاخوان حتى تؤمن الجماعة حياة الضباط ومستقبلهم فى حالة فشل الثورة • ولما رفض ناصر لان الوطنية لا ترهن بموضوعات شخصية استقال عبد المنعم عبد الرؤوف قبل الثورة بعدة أشهر من حركة الضباط الاحرار • وفى أول يوم لقيام الثورة طالب الضابط أبو المكارم عبد الحى رئيس التنظيم الاخوانى بالجيش أسلحة لتوزيعها على الاخوان تأييدا للثورة ولكن رفض ناصر بالرغم من قبوله مبدأ التعاون معهم • ولم تحل الجماعة طبقا لقانون حل الاحزاب ولكن حدث الصدام بعد ذلك حينما رفض الاخوان الاشتراك فى الوزارة الا بشروط ثلاث : الاول ألا يصدر قانون الا اذا أقره الاخوان ، والثانى لا يصدر قرار الا اذا أقر الاخوان • وقد رفض ناصر هذين الشرطين لان الثورة ترفض أية وصايا عليها • وهناك فرق بين الوصايا والتعاون • والثالث طلب الاخوان أن يفرض ناصر الحجاب وأن يغلق المسارح والسينما وأن يتحول ناصر الى حاكم بأمر الله فى حين أن ذلك موكول لرب كل أسرة ، وهو شرط فى ظاهره تطبيق الاسلام وفى حقيقتهأيضا فرض الوصايا على الثورة • وهنا يبدو الصراع على السلطة بين الثورة والاخوان ، بين الشرعية الثورية والشرعية الدينية • كان يكفى عقد حوار بين الشرعيتين حتى تتحقق الوحدة الوطنية فى ضمير الامة وفى وعيها القومى بين الدين والثورة ، ولكن ذلك لم يحدث حتى الآن فقد

كانت الثورة فى السلطة وكان الاخوان يريدون التغير عن طريق السلطة . « لان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

ومن هنا جاء اتهام الاخوان بالاطماع الشخصية وبالحقد وبأنهم كانوا ضحية الحزبية البغيضة . حاولوا هدم الثورة من أجل السلطة مع أن الثورة أخرجتهم من السجون وحققت للجميع العـزة القومية . خدع الاخوان الناس باسـم الدين وعادوا الثورة وأصبحوا يمثلون العهد البائد ، الحزبية والملكية . احتكروا تفسـير الدين ووقعـوا فريسة التعصب وتآمروا ضـد رجال الثورة الذين يعبرون عن أمانى الشعب . فالثورة تمثل شعب مصر ، ولا يمكن ترك الاسلام حكرا على فئة تتسـتر وراءه للخداع والتضليل وانتهاز الفرص . لذلك كون الاخوان جهازا مسلحا للانقضـاض على الحكم بالرغم مما يرفعونه من شـعار الديمقراطية . لقد أسس حسن البنا هذا النظـام لمحاربة الملك والاحزاب ولكن القيادة الجديدة للاخوان حلته وأقامت نظاما سريا بديلا عنـه ليست مهمته مقاومة الانجليز والاستعمار بل لمقاومة حكـام مصر الوطنيين والوقوف ضـد الشعب والسيطرة على الجيش والشعب والشـباب والقيام بعمليات ارهابية للقضاء على الحيـاة الديمقراطية فى البلاد .

وكما هادن الاخوان القصر هادنوا الانجليز واتصـلوا بمستر ايفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية . وقد كان ناصر فى حقيقة الامر يعلم بأمر هـذه المفاوضات التى رفض فيها الاخوان ما قبله رجال الثورة فى المعاهدة . كان الاخوان يمثلون تيارا شـعبيا وليسوا

فى الحكم ، وكان رجال الثورة فى الحكم ومازالوا فى البحث عن سند شعبى . واذا كانت قيادات الاخوان قد سجلت أسمائها فى سجل التشريفات واعتبرته ولى الامر ولم تعارض اباحية الملك فان الملك كان يعتبرهم ألد أعدائه بدليل اغتياله لمرشدهم حسن البنا .

وقد اتهم ناصر الاخوان بأنهم أيضا أعوان الصهيونية والرجعية العربية . فقد كانت اذاعات اسرائيل والعواصم الرجعية العربية تروج لهجوم الاخوان على الثورة ، وكانت السعودية تؤيد الاخوان ضد الثورة ، وكان الحلف المركزى الاستعمارى يؤيدهم كذلك . والحقيقة أن جهاد الاخوان ضد الصهيونية فى فلسطين مشهود ، وتعاونهم مع السعودية تعاون الاحلاف ضد الثورة المصرية التى يصارعونها السلطة . لم يتجاوز الاخوان حدود الشعارات الدينية ولم يملؤوها بمضمون سياسى فى حين أن الثورة حققت المضمون دون الشعارات . فاذا كان القرآن هو الدستور فان ذلك يعنى خلع الملك والقضاء على الفساد والظلم الاجتماعى وتحقيق الجلاء وهو ما حققته الثورة .

وقد بلغت قمة المأساة فيما يسمى بحادث المنشية بعد الصراع حول اتفاقية الجلاء . وللحقيقة والتاريخ أن اتفاقية الجلاء كانت تمثل أقل من المطالب الوطنية اذ كانت تسمح بعودة قوات الاحتلال الى قناة السويس فى حالة الحرب . ولم يتحقق الجلاء بالفعل الا بعد تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ . ولكن نقد الاخوان للاتفاقية فى ذلك الوقت كان أقرب الى المطالب الوطنية . ولكن ناصر أخذ عليهم أسلوب الاغتيالات والتغرير بمحمود عبد اللطيف وأمثاله من الفقراء الذين يدافع عنهم ناصر . كما أخذ عليهم الغدر به بعد تعاونهم معه وايثارهم

نجيب عليه • والاسلام كما هــو واقع من سيرة الرسول اتفاق الظاهر والباطن ، السر والعلن ، « وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها » • وكما قال القرآن : « فلا تطع المكذبين • ودوا لو تدهن فيدهنون » •

لقد كان صراع الثورة مع الاخوان مأساة وطنية خسرت فيهــا الثورة التأييد الشعبى الذى كان يمثله الاخوان كما خسر الاخـــوان التفسير الثورى للدين الذى كان يمثله رجال الثورة ، وضاعت الوحدة الوطنية من أجل الصراع على السـلطة ، وكأن السلطة السياسية والدينية لصالح الثورة ضرورة لاحداث أى تغير اجتماعى شعبى فى مستقبل مصر(٢) •

٣ — الدين والوحدة (١٩٥٨ — ١٩٦٠) :

يظهر موضوع الوحدة الوطنية بين عنصرى الامة الاقباط والمسلمين داخل مصر أو خارجها بين المسيحيين والمسلمين فى لبنان فى ١٩٥٨ على أنها الدرع الوحيد الذى يحمى الشعب من الطائفية التى يغرسها الاستعمار ويتلاعب بها لاحداث الفرقة والقضاء على وحدة الشعب • والحقيقة أن الطائفية فى مصر ليس لها أى أساس فى مجتمـــع ثورى يقــوم على المساواة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات • كل على

---

(٢) وهذا يفسر نشأة كل مشروعنا « التراث والتجديد » الذى تعاد فيه الوحدة بين الدين والثورة أنظر « من العقيدة الى الثورة » ، المجلد الاول ، ، المقدمات النظرية ص ٤٩ — ٥١ ، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨ . ولهذا أيضا تم انشاء منبر فكرى لهذه الوحدة وهو مجلة « اليسار الاسلامى » ، العدد الاول ، القاهرة ١٩٨٠ .

قدر جهده ، وكل له فرصة مساوية فى العمل • فلا توزع الاعمال على أساس طائفى ، والترقيات بالاقدمية أو الكفاءة ، والاجور على مستوى العمل وليس كما تزوج أجهزة الدعاية الغربية من أن الاشتراكية فى مصر تقوم على أساس طائفى • ويدخل الطلاب الجامعات على أساس المجموع وليس على أساس الدين • والمادة الرابعة والعشرين من الدستور تنص على أن المصريين أمام القانون سواء ، وهم متساوون فى الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الجنس أو الاصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة • ولقد أراد الاستعمار فى سوريا أيضا التلاعب بالطائفية ولكن استشهد المسلم والمسيحى كلاهما دفاعا عن استقلال سوريا • كما حاول الاستعمار فى مصر تقسيم الطبقة العاملة بالاستعانة بفلول الرجعية • تقوم الوحدة الوطنية اذن بين المسلمين والمسيحيين على مبادىء الثورة ، فالاسلام والمسيحية كلاهما ثورة قامتا على المحبة والمساواة وتكافؤ الفرص وهى المبادىء التى نادت بها جميع الاديان • لقد عملت الاديان للفقراء والمساكين والعامة ، واستنكرت الاستعباد والاستغلال • كان المسيح ضد الاستعباد الرومانى ، وكافح محمد بن عبد الله ضد الاستعباد القبلى • اعترف الاسلام بأهل الكتاب وأعطاهم حقوقهم • وفى فلسطين فى ١٩٤٨ حارب المسلم والمسيحى جنبا الى جنب ، ولم تفرق قنابل الاعداء فى ١٩٥٦ بين المسلم والمسيحى • ولكن التعصب والجهل يثيرهما رجل فيرد عليه آخر ، حوادث فردية قليلة وليست ظاهرة عامة ، وتاريخ مصر خال منها • والوحدة الوطنية بين عنصرى الامة هى الاساس كما بان ذلك فى ثورة ١٩١٩ •

ثم ظهر موضوع الاسلام والوحدة الوطنية أثناء الثورة

اليمنية . فقد قامت الثورة للتوحيد بين الشعب بعد أن فرقه الائمة . « لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » . لقد رفعت الثورة شعار الوحدة الوطنية حتى تفوت على الاستعمار تفرقته بين أبناء الوطن الواحد تحت ستار الحزبية أو الطائفية . فالكل عرب لا فرق بينهم لان كل فرد يعرف واجبه وهدفه وهو الحرية والاستقلال . ان الاسلام يقتضى تضامنا ووحدة بين الاشقاء والعمل من أجل عزة العروبة . كما ينادى الاسلام بالتعاون على البر والتقوى ليس فقط بالابناء والآباء بل بالامة كلها . وتقوى الله فى جميع الامور تعنى التخلص من الانانية والفردية ، كما تعنى رفض ألاعيب الاستعمار ونبذ لغة المال . وتعنى ثالثا بناء البلاد من أجل صالح الابناء فى الحاضر والمستقبل . تلك هى تعاليم الاسلام الواضحة . وطريق الوحدة الوطنية هو طريق العفو ، والعفو من تعاليم الاسلام . فعندما دخل النبى مكة منتصرا لم ينتقم من أعدائه بل قال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » حتى تتحقق الوحدة الوطنية ويجمع شمل العرب .

وقد ظهر الاسلام فى معارك الوحدة العربية فى ١٩٥٨ بعد اتحاد مصر وسوريا وتكوين الجمهورية العربية المتحدة . دخل الاسلام المعركة على نحو تاريخى عن طريق استرجاع الحروب الصليبية أو مظاهر الاستعمار فى صوره القديمة وتوحيد المسلمين تحت قيادة صلاح الدين الذى وحد مصر وسوريا . لقد انتهز الاستعمار الاوربى فى ذلك الوقت تفكك الامة العربية واستطاع باسم الحملات الصليبية — وهى شكل مقنع للاستعمار تحت ستار الدين — أن ينفذ الى الوطن العربى . ورغم ضعف العرب هبوا للدفاع عن أراضيهم ، واتحدت الامة لمواجهة

الغزو الاستعمارى ، وكان النصر حليف القومية العربيـــة • واستمرت الحرب ثمانين سنة استطاع الصليبيون فى أول الامر احتـــلال فلسطين وبيت المقدس وتفرقة الامة العربية وقطع الطريق بين مصر والشام • تقدم نحو مصر ، الى الشرقية وبلبيس على أبواب القاهرة فكـــان اتحاد مصر وسوريا هو ســـبيل النصر • فقد أرسل السلطان نور الدين محمد ـــ السلطان السورى ـــ جيشه ليحارب مع جيش مصر ضد الغزاة • ثم اتحدت مصر وسوريا مرة أخرى تحت قيادة صلاح الدين ليصد الغزو الصليبى ضـــد سوريا بعد ذلك بربع قرن وانتصر صلاح الدين فى معركة حطين ، فكانت الوحدة هى الدرع الذى تحطمت عليه موجات الغزاة • كمـــا استطاعت الوحدة بين مصر وسوريا قبل ذلـــك صد هجمات التتار التى وصلت حتى بغداد واستولى عليها هولاكو ثم توجه الى سوريا فقامت مصر لتحارب مع سوريا وهزمت جيوش التتار فى عين جالوت • لم ينخدع المسيحيون العرب بالحملات الصليبية لانهم كانوا يؤمنون بالقومية العربية وباستقلال أراضيهم التى نشأوا عليها فوقفوا جنبا الى جنب بجوار اخوانهم المسلمين يدافعون عن أوطانهم وفطنوا الى تســـتر الحملات الصليبية بالدين • فقد غيرت احدى هذه الحملات طريقها الى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية التى كانت تحمى المسيحية فى الشرق فدمروها ونهبوها واحتلوها • فكانت وحدة المسلمين والمسيحيين ســـبيل النصر •

والآن يعيد التاريخ نفسه • فلا سبيل الى تحرير الاراضى العربية من الصهيونية العالمية الا بوحدة مصر وسوريا والوحدة العربية • ولم تكن مصادفة أن دخل الجنرال اللنبى قائد الجوش البريطانية الى القدس وقال « اليوم انتهت الحروب الصليبية » • ولم تكن مصادفة أيضـــا

حين وصل القائد الفرنسى جورو الى دمشق ووقف أمام قبر صلاح الدين قال « هاقد عدنا اليك يا صلاح الدين • لقد هزم العرب فى ١٩٤٨ لانهم كانوا سبع جيوش عربية ، ولو كانوا جيشا واحدا مثل جيش صلاح الدين لكان النصر حليفهم • ان الانتداب البريطانى على فلسطين لهو الصليبية الجديدة من أجل القضاء عى القومية العربية • لقد قامت أساطيل بريطانيا من قبل فى ١٨٠١ ثم ١٨٠٧ لغزو الامة العربيـــة وفشلت • ثم عادت الجيوش البريطانية بعـــد انهيار الامبراطورية العثمانية فى أواخر الحرب العالمية الاولى ، ولم يخرج الاســتعمار البريطانى حتى ١٩٤٨ قبل أن يسلم الجزء الاكبر من فلسطين الى الصهيونية عميل الاستعمار الاول فى المنطقة • وأخيرا مكنت الابريالية الامريكية فى ١٩٦٧ الصهيونية من الجزء الباقى من القدس وفلسطين • وساعدت اسرائيل على تنفيذ أكبر مؤامرة للصهيونية والاستعمار فى تاريخ الامة العربية • ولكن تاريخ الامة العربية شاهد على أنهــــا قادرة على الصمود والعزم على التحرر •

٤ ــ الدين والاشتراكية (١٩٦١ ــ ١٩٦٤) :

الاسلام دين اشتراكى ، حقق أول تجربة اشتراكية فى العالم ، وأسس فى أول أيامه أول دولة اشتراكية • وكان محمـــد بن عبد الله رئيس أول دولة اشتراكية وأول من طبق سياسة التأميم فى حديثه المشهور « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلا والنار » ، وفى قول آخر يضاف الملح ، وهى المقومات الاساسية للمجتمع فى ذلك الوقت التى لا يجوز ملكيتها لفرد • وقد عاش النبى ولم يملك شــيئا ، ولم يأخذ شيئا من أموال المســلمين ، ولم ينصب نفسه ملكا • ومات ولم يترك

شـــيئا بل باع ثوبه وتصدق به • لم يكن ملكا ولا أميرا من ملوك وأمراء اليوم الذين يملكون الملايين ويكنزون فى بنوك فرنسا وسويسرا •

ثم استمرت الدولة الاسلامية الاشتراكية الاولى أيام أبى بكر وعمر • فقد حارب أبو بكر مانعى الزكاة لان الامتناع عن الزكاة ردة عن الاسلام ، فالزكاة حق المال • كانت حروب الردة نموذجا للثـــورة الاجتماعية ، ثورة الفقـــراء ضد الاغنياء ، ثورة من لا يملكون ضـــد من يملكون ، ونموذج اشتراكية الثورة حتى تزول الفوارق بين الطبقات وحتى تقام العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص بين الناس • صحيح أن النبى عفا عن قومه بعـــد فتح مكة ، فى قوله المشهور « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ولكنه أيضـــا رفض العفو عن المنافقين بقوله « ان المنافقين يقتلون ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة » • وقد نصت جميع الاديان على العدالة الاجتماعية وعلى الزكاة • فى الاسلام ربع العشر من المال الموجود آخر كل عام • فلو عاش الانسان أربعين أو خمسين عاما لمثلث الزكاة ثروة طائلة يمكن استخدامها لصالح الجماعة • الزكاة أساس من أسس الاشتراكية • لذلك لم يكن فى الدولة الاســلامية الاولى فقراء أو عجزة بل كان هناك تكافل اجتماعى • كما حرم الاسلام الربا حتى لا يتحكم الغنى فى رقاب الناس وينتهز فرص حاجاتهم ، وهو ما عملته الثورة بالقضاء على الربا فى السلفيات الزراعية • أما عمر فقـــد أمم الارض ووزعها على الفلاحين كما أخـــذ الارض من الاقطاعيين فى العراق ، وزعها على المعدمين • رفض عمر أن تكون هنـــاك طبقية أو فقر ، ولم يملك شيئا مما تملكه ملوك الرجعية الحالية •

« الاشتراكية شريعة العدل ، وشريعة العدل شريعة الله » •

والاسلام دين المساواة والعدل الاجتماعى وتكافؤ الفرص ، يدعو الاسلام الى قسمة الربح مع الآخرين وأخذ حقوق الفقراء من أموال الاغنياء ، والاسلام لا يسمح بوجود فقراء فى مجتمع غنى ، الاسلام دين العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » ، ينص الدين على تكافؤ الفرص « ان جوهر الاديان يؤكد حق الانسان فى الحياة وفى الحرية ، ان أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل انسان ، اذ يبدأ كل فرد حياته أمام خالقه الاعظم صفحة بيضاء يخط فيها ما يشاء باختيـاره الحر ، لا يرضى الدين بطبقة تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبيـة الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم ، أن الله جلت حكمته وضـع الفرص المتكافئة أمام البشر جميعا أساسا للعمل فى الدنيا وللحساب فى الآخرة » ، والغنى الذى يمتلك الاموال الضخمة فى مجتمع فقير لا يمكن أن يكون ثروته عن طريق العمل بل عن طريق الاستغلال ، الدين عمل ، وكان النبى يعمل بيديه ، ولم يكن الدين تجارة أو المعل استغلال ، الدين والاشتراكية اذن سواء ، نادى كل منهما بالمسـاواة وتكافؤ الفرص ورفع مستوى المعيشة وتذويب الفوارق بين الطبقات ، كان نصف فى المائة يملكون نصف الدخل القومى فقضت الثورة على هذا التوزيع غير العادل ، وأصبح الدخل القومى موزعا على الشعب بعد أن قضت الثورة على الطبقة الرأسمالية والاقطاعية ، وبهذا طبقت الثورة مبادىء الاسلام ، بل ان الاسلام والاشتراكية متفقان من حيث المنهج فكلاهما يتم تطبيقـه بالتدريج فيما يسمى بمرحلة التحـول الاشتراكى ، وقد أرشد القرآن الى حكمة التدريج لانه لم يحرم الخمر من أول مرة ، فقد ذكر أولا « يسألونك عن الخمر والميسر قل

فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما » ثم ذكر ثانيا « ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » • وذكر ثالثا « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » •

ولكن رجال الدين يشوهون الدين ، ويصدرون الفتاوى لصالح الاقطاع بعد أن يقبضوا الثمن ، يؤيدون الملكية الفردية ويحرمون المساس بها « بعض المشايخ يروح يخبط ديك رومى أو خروف عند الاقطاعيين ويطلع يدى فتوى أن الملكية لا يمكن أن نقرب لها أو نمسها • انهم لا يفكرون الا ف بطونهم وهم بذلك أجراء للاقطاع والرأسمالية » • ليست مهمة رجال الدين الخطابة فى المساجد بل النزول الى الاسواق والحياة العامة والتعرف على مشاكل الجماهير والعيش معهم ، فرجل الدين لا يتاجر ولا يعجز بل يقول الحق ويعمل به •

كما أن أعداء الاشتراكية والاسلام من فلول الرجعية العربية تحاول الاساءة الى الاشتراكية والاسلام معا لحساب تحالف الاقطاع والرجعية والرأسمالية • والحقيقة أن الاسلام ضد الاستغلال وكنز الاموال وصرفها على الجوارى • أموال المسلمين للمسلمين وليست للملوك والأمراء الذين يدعون تمثيل الاسلام • والحقيقة أنه لا يوجد ممثل للاسلام ، ولا يوجد حامى حمى الحرمين أو أمير المؤمنين لان للكعبة ربا يحميها ، أما العائلة المالكة فهى أكبر تشويه للاسلام فى صحف الغرب • ليست الاشتراكية بديلا عن الاسلام ، وليس ناصر نبيا جديدا لدين جديد بل الاشتراكية جوهر الاسلام وناصر محقق لرسالة الاسلام • ليست الاشتراكية الحادا كما تدعى الرجعية بل ان الرجعية هى الالحاد واغتصاب لاموال المسلمين • ليست الاشتراكية

كفرا بل هى شريعة العدل ، وشريعة العدل شريعة الله ، الكفر هو نهب أموال المسلمين والاستيلاء على ثرواتهم . ليست الاشتراكية هى اشتراكية النهب والاولاد والاموال بل استرداد الاموال المغتصبة من الشعب وردها الى الشعب . الاشتراكية احترام للعائلة والدين والوطن . ليست الاشتراكية شيوعية أو ماركسية لينينية لانها تؤمن بالدين والرسل وتؤمن بالله ، تقوم على أسس روحية وليس على الاساس المادى وحده . ليست الاشتراكية تعد على حقوق الله فالعدالة الاجتماعية ليست من وضع الله وتدبيره كما تقول الرجعية بل هى من صنع البشر نتيجة لاوضاعهم الاجتماعية والا فلماذا وزارة العدل ؟ الجنة ليست للفقراء ، فليأخذها الاغنياء ويتركوا دنياهم الى الفقراء . ليست الاشتراكية صدقة كما تقول الرجعية من أن الدين يطالبنا بالصدقة . فالحقيقة أن الدين لا يطالب بالصدقة فقط . فالمال مال الله ، ومال الله مال الشعب ، لا يوضع فى البنوك الاجنبية بل يستثمر داخل البلاد « وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » . انهم يستحسنون الاشتراكية شعرا ويستهجنونها نظاما . فعندما يقول شوقى « الاشتراكيون أنت امامهم » وتغنى أم كلثوم « أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى » تنبسط أساريرهم ويصفقون بأيديهم ولكنهم يعادونها كنظام اجتماعى يهدد مصالحهم ، ويستعيد ثرواتهم المسلوبة من الشعب، الاسلام والاشتراكية اذن صنوان .

٥ ــ الدين وعدم الانحياز (١٩٦٥ ــ ١٩٦٦) :

لقد كان لمصر دورها فى الحفاظ على الحضارة الاسلامية ، وعرفت الاسلام الحضارى وليس الاسلام الصورى الشعائرى .

« وكان الفتح الاسلامى ضوءا آنار هذه الحقيقة وأنار معالمها وصنع لهـا ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحى وفى اطـار التاريخ الاسلامى ، وعلى هدى من رسالة محمد قام الشعب المصرى بأعظم الادوار دفاعا عن الحضارة الانسانية » . هذه هى رســالة مصر ، بؤرة الاسلام ومركز اشعاعه الحضــارى . وقد حفظت مصر التراث الحضارى الاسلامى وجعل من الازهر حصنا للمقاومة ضــد عوامل الضعف والتخلف التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا ورجعيــة باسم الدين ، والدين منها براء « فمصر مركز الثقل الاســلامى وضمان استمرار تراثه » . وليس عبثا أن الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامى — الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة — تراجع الى مصر ، وأوى اليه فى مصر ، وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت .

وحول هذه البؤرة الاسلامية فى مصر ينسج ناصر دوائره الثلاث منذ « فلسفة الثورة » حتى « الميثاق الوطنى » ، الدائرة العربيــة والدائرة الافريقية ، والدائرة الاسلامية . فالدائرة العربيــة أهم الدوائر « وقد امتزجت هذه الدائرة معنا أيضـا بالدين فنقلت مراكز الاشعاع الدينى فى حدود عواصمها من مكة الى الكوفة ثم الى القاهرة ثم جمعها الدين فى اطار ربطته كل هــذه العوامل التاريخية والمادية والروحية » . أما الدائرة الافريقية والتى تشــير أيضا الى تداخلها مع الدائرة الاسيوية فيما عرف فيما بعــد باسم العالم الافريقى الاسيوى فانها فى حقيقة الامر الكيان السياسى المعاصر للدائرة الثالثــة وهى الدائرة الاسلامية « أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعنا

واياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب وانما تشدها حقائق التاريخ » . انها الدائرة التي تشد العالم الاسلامى كله وتربطه برباط روحى وتوجهه نحو غاية واحدة . « ثم تبقى الدائرة الثالثة التى تمتد عبر قارات ومحيطات والتى قلت انها دائرة اخوان العقيدة والذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة وتهمس شفاهم الخاشعة بنفس الصلوات » . ويرى ناصر الحج رمزا سياسيا لما يمكن أن يكون عليه ثقل العالم الاسلامى ومدى فاعليته وايجابيته وترابطه حينما يتجه الى الكعبة كل عام المسلمون من جميع أنحاء العالم الاسلامى . « لا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة دخول الجنة بعد عمر مديد أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة . يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة أنبائه لا بوصفه مراسم وتقاليد تصبح صورا طريفة لقراء الصحف وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأى فيها وتجارها وشبابها ليضعوا فى هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام . يجتمعون خاشعين ولكن أقوياء متجردين من المطامع لكن عاملين ، مستضعفين لله ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة » . ويقول ناصر أيضا . « وحين أسرح بخيالى الى ثمانين مليونا من المسلمين فى أندونيسيا ، وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الاوسط وأربعين مليونا داخل الاتحاد السفيتى ،

وملايين غيرهم فى أرجاء الارض المتباعدة ، حين أسرح بخيالى الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة أخـرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الاصيلة بالطبع ولكن يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة » .

الاسلام اذن حكمة سياسية عالمية شاملة تضم ملايين المسلمين فى آسيا وأفريقيا ، وبالتالى تكون الحركة الافريقية الاسيوية فى جوهرها حركة اسلامية . ويكون مؤتمر القارات الثلاث فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية مؤتمرات ذات أهداف واحدة فى التحـرر والاستقلال والعدالة الاجتماعية نظرا لان ظروف الكاثوليك الرومان فى أمريكا اللاتينيـة مشابهة لظروف المسلمين فى آسيا وأفريقيا . جمعهم وحـدة الموقف والهدف ، وهى وحدة الاسلام الحقيقية . كما أن حركة عدم الانحياز فى جوهرها حركة اسلامية « لا شرقية ولا غربية » لانها تقـوم على رفض الصراع بين القوى العظمى ، وأن تكون الشـعوب المتحررة حديثا خارج مناطق النفوذ والاحلاف وأشكال الاستعمار الجديد . هذا الترابط الاسلامى يتم على أساس شعبى وليس على أسـاس حكومى . واذا كان هناك خلاف بين الحكومتين المصرية والايرانية فانه خلاف حكومات وليس خلاف شعوب مسلمة .

ولا يوجد تعارض بين هذه الدائر الثلاث . تربطهما معاملات وثيقة بين مصر والعـالم العربى والعالم الاسلامى من خلال البعثات الازهرية . لا يوجد تعارض بين القومية العربية والامة الاسلامية .

فكلاهما يشارك فى معارك التقدم والثورة والدعوة الى الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية . هذا التضامن الاسلامى الذى يجمع الدوائر الثلاث انما يتم لوجه الله غير متجه للسياسة الامريكية أو البريطانية . وهنا يتصدى ناصر للحلف الاسلامى باعتباره حلفا انجليزيا أمريكيا استعماريا تحت ستار الدين يأخذ أوامره من لندن وواشنطن . بدأت الفكرة بعد ١٩٥٧ بعد بداية حركة التحرر العربى اثر تأميم قناة السويس وضرب الاحلاف العسكرية فى المنطقة ، وكان الهدف احياء حلف بغداد القديم بعد خروج العراق ودخول تركيا وباكستان وايران من أجل حصار العالم العربى واعادته تحت مناطق النفوذ فالاسماء واحدة : مؤتمر اسلامى ، تجمع اسلامى ، رابطة اسلامية ، تكتل اسلامى ، مؤتمر ذروة اسلامى ، والهدف واحد : عودة الاستعمار الى المنطقة عن طريق اللف حول العالم العربى من خلال العملاء حكام السعودية وايران والاردن وتونس . لقد قاد هؤلاء معركة الحلف الاسلامى لضرب القوى الرجعية لهذا الغرض . كان الهدف أيضا تخفيف الضغط على اسرائيل بدليل أن ايران وتركيا معترفتان باسرائيل. لم يكن الهدف فلسطين وتحرير فلسطين بل الدفاع عن اسرائيل والاعتراف بها واتهام ناصر بمعاداة الحلف بأنه يدافع عن زعامته فى المنطقة . لم يكن الهدف مقاومة الالحاد لان مقاومة الالحاد تتم بالدين لا بالسياسة ، والحلف الاسلامى حلف سياسى وليس تكتلا دينيا لانه يجمع رؤساء الدول وليس رجال الدين . وهل شاه ايران وبورقيبة دعاة للايمان ، شاه ايران الفارسى النعرة وبورقيبة الذى جعل أجازة العيد يوما واحدا ، وأفتى بالافطار فى رمضان . وبصرف النظر عن الصلة بين الدين والسياسة وتوحيد الاسلام بينهما وبين فتاوى علماء

تونس وشرعيتها فانه يبقى أن الحلف الاسلامى حلف استعمارى تحت ستار الدين كان يهدف الى حصار القومية العربية وايقاف حركة التحرر العربى .

٦ — الدين والصمود (١٩٦٧ — ١٩٧٠) :

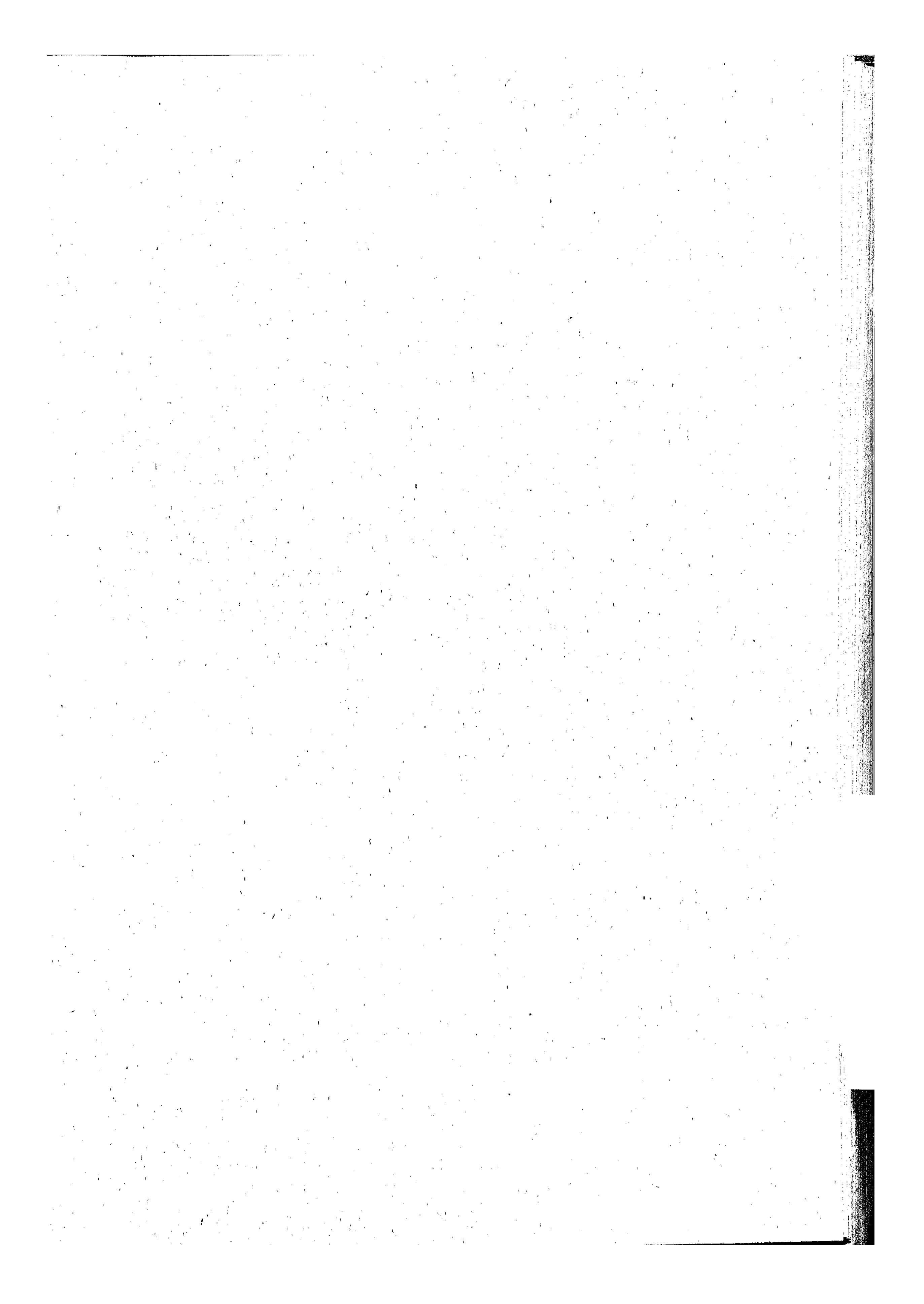
ظهر موضوع الايمان بوضوح بعد هزيمة ١٩٦٧ فى فكر ناصر من أجل الصمود فى المعركة وتقوية الروح المعنوية للشعب والجيش واذكاء ارادة الصمود فى الامة . وليس السبب فى ذلك التربية الدينية بل التربية السياسية من أجل بث الامل فى النصر بعد أن استشرى روح الهزيمة فى النفوس . كان موضوع الايمان فى أول الثورة مرتبطا برفض الالحاد والردة والاثارة الجنسية . كما ظهر ضد أخطار الشيوعية الممثلة فى حكم العراق والبعث السورى ، فالشعب المصرى شعب مؤمن . ولكنه أصبح بعد هزيمة ١٩٦٧ الدرع الواقى لروح الاسلام . وارتبط بالقدرية وذلك أن الهزائم قدر الامم ، والايمان بالقضاء والقدر يجعل الانسان صابرا مجاهدا قادرا على الصمود وعاملا وآملا بالعدل الالهى « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » . وكان « الميثاق الوطنى » قد صاغ من قبل فى خمس ضمانات للعمل الثورى وهى : ارادة التغيير الثورى ، الطليعة الثورية ، الوعى العميق بالتاريخ ، الفكر المفتوح على كل التجارب الانسانية والضمان الخامس « ايمان لا يتزعزع بالله وبرسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى الى الانسان فى كل زمان ومكان » . فالايمان ضمان للعمل الثورى وليس خنوعا واستسلاما ورضى وقبولا . وقد أكد بيان ٣٠ مارس نفس المعنى بربطه العناية الالهية بصلابة الجماهير الثورية حتى يتحقق النصر

ويتجاوز الشعب مرارة الهزيمة • وقد حدد البرنامج خطة عمل تقوم على دعائم ثلاث : التحرر والنصر والتجديد والتجدد للثورة • وجعل الثانية تدعيم القيم الروحية والاخلاق • وحدد مهام المرحلة القادمة فى ست مهام : تثبت دور قوى الشعب فى بنـاء الدولة الحديثة ، التنمية الشاملة ، اطلاق القوى الخلاقة ، تلاحم الشعب والجيش ، وجعل أيضا المهمة الرابعة العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية • وبالتـالى يمكن تحقيق النصر ، ويكون حينئذ نصر الله « ولتعمل ارادة الحق فوق كل ارادة لانها جزء من ارادة الله » •

ولكن لا يعنى ذلك حربا دينية ضد اسرائيل فقـد عاش العرب ، يهودا ومسيحيين ومسلمين فى فلسطين منذ آلاف السنين بل لقد رفض بعض اليهود مغادرة مصر الى اسرائيل وآثروا البقاء فى وطنهم ، فاليهود فى مصر مصريون وفى الدول العربية عرب • العرب واليهـود شعوب سامية ، والتشابه بينهما أكثر من الاختلاف ، وموسى مولود فى مصر • فكيف يكون العرب معادين للسامية ؟ ولقد طردت اسرائيل الفلسطينيين مسلمين ومسيحيين ، أكثر من مليون لاجئ • ومن ثم يجب أن يتعايش الجميع على أرض فلسطين بصرف النظر عن الدين • فان لم تتحقق هذه الرؤية المستقبلية الشاملة فان تحرير الارض المقدسة من الصهيونية يصبح حتمية مقدسة ، وجزء من الايمان بالله والشرف المهان بوائع الاحتلال وحرق المسجد الاقصى • ان الحرب فى الاسلام ليست من أجل الحرب « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » • ولكنها من أجل العـدالة والحرية ودفعا للاذى والاضطهاد « آذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا

وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » .

وكانت معركة الايمان والصمود آخر المعارك التى خاضها ناصر باسم الدين . يظهر لنا ناصر هذه الاهداف وكأنها حلم حياتنا . فقد صاغ مشروعنا القومى وعبر عن مصالح الجماهير ، ومازال كامنا فى روح شعبنا ينتظر الانطلاق ، فتعود « الناصرية الشعبية » ويعـود مشروعنا القومى لمناهضة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية ولتحقيق أمانينا القومية فى الحرية والاشتراكية والوحدة .



مخاطر السلام

ليس السلام بضعة كيلو مترات هنا أو هناك ، أو انسحابا كليا أو جزئيا من هذه المنطقة أو تلك ، وليس اتفاقا أو اعلانا أو بيانا فى هذا اليوم أو ذاك ، وليس زيارة أو مبادرة أو استقبالا فى هذه المدينة أو تلك ، هنا أم هناك • وليس السلام مناطق عازلة وأخرى منزوعة السلاح والثالثة محددة السلاح • وليس تحجيما للجيش المصرى أو تحديدا لانواع أسلحته أو اقامة نقاط للمراقبة ووضعا لقوات دولية تابعة للامم المتحدة أو تشكيل دوريات مشتركة ونقاط حراسة • انما السلام شىء أهم من ذلك وأعمق وأدخل فى روح الامة وتحديدا لوعيها • السلام جزء من تاريخ الامة ، وتحديد لمستقبلها ، وبيان لهويتها ، واظهار لرسالتها ، وحكم عليها بالحياة أو الموت •

ان ما قيل بيننا من أن المشكلة بيننا وبين اسرائيل هى فى جوهرها مشكلة نفسية ، وأن الحواجز بيننا وبينها هى فى صميمها حواجز نفسية ، انما هو أخذ لوجهة نظر الصهيونية • فبالنسبة لنا تعنى اسرائيل ملايين من الكيلومترات المحتلة ، وملايين من الشعوب مشردة ، وما تعيش عليه مهدد بالضياع • ولكن بالنسبة للاخر السلام هو قبول الصهيونية كفكرة فى أذهان العرب • والاعتراف بهذا الكيان

---

* كتب هذا المقال فى الاصل كورقة للمناقشة فى « لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية » . وبعد انتظار عدة اشهر دون رد أرسلته الى قضايا عربية فى بيروت ، ونشر فى عدد مارس ١٩٨٠ .

كجزء طبيعي من المنطقة ، وبالتالى تحويل العلاقة بيننا وبين الآخر على هذا المستوى النفسى الذى يعنى بالنسبة للعدو التسليم بأيديولوجيته وتقبلها ، والذى يعنى بالنسبة لنا مبادرة شجاعة ولفتة كريمة واظهار لحسن النوايا والرغبة فى السلام ، وما يعنيه السلام بالنسبة للعدو حقيقة وما يعنيه بالنسبة لنا مجرد مظهر يكشف العدو حقيقته ، وان استبدالنا فى لغتنا السياسية اسرائيل بالصهيونية وعدم ذكرنا للصهيونية وذكرنا لاسرائيل لهو اعتراف مبدئى بالدولة ذات السيادة وقبول ضمنى بالايديولوجية التى تمثلها فى حين أن الصهيونية بالنسبة لنا تمثل ايديولوجية معارضة ومناقضة حتى ولو لم تتمثل فى دولة ، حتى ولو كانت فكرة أتت الينا من الفضاء الخارجى دون أن يكون لها أى ركيزة فى الارض •

لم تعد الصهينية تطلب الارض فقد حصلت على أضعاف ما كانت تتمناه فى بدايتها بل قادرة على أن تحصل على المزيد ، ولم تعد تطمع فى القضاء على الشعب ، شعب فلسطين ، فقد تم تشريد نصفه واحتلال النصف الآخر ، وقادرة على أن تشرد المزيد من الشعوب العربية فى الاقطار المجاورة ، ولم يعد هدفها هو القضاء على اسم فلسطين حتى ولو كان اسما لفندق أو لهيئة أو لمنظمة أو اسما لندوة أو لقاء أو لجنة أو حتى شعارا لعلم أو لنشيد • أصبح الهدف هو هو تصدير الصهيونية للذهن العربى ، وهو الذى تعود على الاستيراد والتصدير فى محنته الاخيرة ، من أجل الاعتراف بها وقبولها وجعلها بديلا عن القومية العربية فى المنطقة ووريثتها فى التاريخ !

ولما كان الاستعمار هو الاخطبوط الذى يعبر عن العنصرية الدفينة

فى الغرب ، فانه قادر على تغيير أشكاله وصـورة وتبديل أسـاليبه وخططه • لم يعد الاستعمار هـو الاستعمار العسـكرى ، الزحف بالجيوش والاستيلاء على أراضى الغير بالقوة واحتلالها • فقد أثبتت التجارب مدى الخسارة التى تلحق بالاسـتعمار أثر بداية حروب التحرير الوطنيـة ، وسرعة يقظة الشعوب ، واذكاء روحها القوميـة وان أعتى الجيوش قوة وعتادا لا تستطيع أن تصمد أمام مقاومـة الشعوب • ثم تحول الاسـتعمار الى الاستعمار الاقتصادى من أجل نهب ثروات الشـعوب ، واستنزاف خيراتها ، والاستيلاء على مواردها الاولية ، واستخدام أيديها العاملة ، وتسويق منتجاته لدى شعوبها المستهلكة الفسيحة بعد أن فرحت بمظاهر الاستقلال الوطنى ، العلم والنشيد ، والمقعد فى هيئة الامم المتحدة ، ومظاهر الامارة والسفارة ، ومتعة السلطة وشهوة الحكم • ولكن الشعوب سرعان ما تدرك بعـد مرحلة التحرر الوطنى ان استقلالها السياسى لا يكون تاما الا باقامة اقتصـاد وطنى وتأميم الشركات الاجنبية ، والقضـاء على مظاهر الاحتكار واسترداد ثرواتها ومدخراتها الوطنية ، فيصـبح الشعب مسيطرا على وسائل الانتاج • ثم تحول الاستعمار الى استعمار ثقافى ، يسيطر على أذهان الوطنيين حتى يدخل الاستعمار من جديد فى العقول عن طريق « التغريب » Westernization ، وتقليد أنماط الحضارة الغربية فى قوالب التفكير وانماط السـلوك • ولكن الشعوب بدأت أيضا تكشف عن هـذه الصورة الجديدة للاستعمار ، وبدأت فى نهضاتها الاخيرة برفض التغريب والعودة الى تراثها الوطنى تجد فيـه أصالتها ومواطن ابداعها • والآن عاد الاسـتعمار من جديد ليحاول أسر روح الشـعوب والقضاء على وعيها القومى ، واستلاب تاريخها ، واقتلاع

جذورها حتى ينتهى مستقبلها وتصبح مجرد أقليات تلحق بالغرب ، وحضارات مندثرة تدرس فى متاحف الانثروبولوجيا !

والسلام المطروح الآن أمام شعوبنا هـو من هذا الشكل الاخير من أشكال الاستعمار ، تبنته الصهيونية ، وهـو استعمار جديد أيضا من دولة صغرى بمساعدة الدول الكبرى من أجل احتواء الشعوب التاريخية التى يظل رصيدها فى تراثهـا موطن تحررها ، ومصـدر ايديولوجيتها ، ومثبت هويتها • فالاستعمار يتلون ويتشكل طبقـا للظروف ، كالحية ذات الرؤوس المتعـددة اذا قطعت احداها ظهرت أخرى • وقد يظل الامر كذلك حتى يتم تحجيم الغرب ، ورده داخل حدوده بالقضـاء على عنصريته الدفينة التى جعلته محور العالم ، ومركز ثقله ، والنموذج الاوحد لحضاراته ، وبعودة الشعوب التاريخية فى الصين والهند وايران ومصر الى أخذ مكانهـا الطبيعى فى دورة التاريخ الجديدة • وقد يعود الغرب الى ما كان عليه من حياة طبيعية لقبائل متوحشة تأكل بعضها بعضا ، ويعود الى شريعة الغاب •

وقد قامت صحافتنا أخيرا بالتنبيـه المفتعل على هذا الخطر فيما سمته بمعركة « التحدى الحضارى مـع اسرائيل » ذرا للرماد فى العيون ، واظهارا لعضلاتنا الحضارية كما كنا من قبل نظهـر قوانا العسكرية ، فى مظاهرات اعلامية • وعدنا الى ما كنا فيـه من رفض لاسرائيل على مستوى المبدأ وقبول لهـا على مستوى الواقع ، نقوم بمعركة التحدى الحضارى مع اسرائيل ونسـهل لها عملية الغـزو الحضارى لنا • وتلك هى مخاطر السلام •

أولا : القضاء على روح النضال :

تتمثل مخاطر السلام على روح النضـال لدى الشعوب • فقد

أخذنا بالسلام ما لم نأخذه بالحرب ، وما خسرناه بالحرب كسبناه بالسلام • الحرب طريق مسدود يؤدى الى مزيد من الخسائر فى حين أن السلام طريق مضمون يؤدى الى كثير من المكاسب • فتتخلى الشعوب عن الجهاد ، وهو أمر الهى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » • ولا عجب أن اتخذت الثورة الايرانية آية « فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » (٤ : ٩٥) شعارا لها • وكأن محمدا لم يحارب ، وكأن الشعوب لم تحارب ، وكأن الحرب بدعة ، وكأن هناك حربا تكون هى آخر الحروب ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض » (٢ : ١٥١) • ويتم تشويه الحروب عمدا بأنها السبب فى الازمات الاقتصادية وان السلاح يؤدى الى الجوع بالضرورة فى حين أن السلام يجلب الرخاء وان الحرب دمار وقتل ويتم وترمل ، وان السلام حمامة وغصن وحياة وحب وتعايش واخاء ، وان الحرب همجية ووحشية فى حين أن السلام تحضر ومدنية • والقتال فرض فى الاسلام حتى فى الاشهر الحرام • « ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير » (٢ : ٢١٧) • والقتال أمر الهى « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال » (٨ : ٩٥) • صحيح أن الحرب بها خسائر ولكنها خسائر متبادلة ، « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله (٣ : ١٤٠) بالاضافة الى أن قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار •

وجيلا بعد جيل ، بعد تغيير كتب التربية الدينية والقومية ، وتغيير كتب التاريخ والجغرافيا ، تضيع منا روح النضال ، وتخمد فينا روح المقاومة ، وتضيع منا ارادة الصمود ، وتنتهى الشعوب الى الاستسلام لهزائمها ، وقبول مقاديرها ، وتفرض عليها سياسة **الامر**

الواقع التى طالما حاول الاستعمار فرضها على الشعوب حتى لا تتحرك وتأخذ مصائرها بأيديها من جديد . فى حين أن هزائم الشعوب قد ولدت فيها روح النضال ، وقوت فيها روح المقاومة ، فيتحول العدو الخارجى الى تحد حضارى . حدث ذلك فى تاريخ بنى اسرائيل قديما بعد الاسر البابلى . فما كان من كتابها وشعرائها ومفكريها وروائها الا أن حفظوا روح الامة وتراثها رمزا لمقاومتها وعدم اندثارها وسجلوه فيما سمى فيما بعد بالتوراة أو الكتاب المقدس أو العهد القديم « تناخ » . وحدث ذلك أيضا عندنا اثر هجمات التتار وغزوات المغول فحفظت الامة تراثها فى الموسوعات الضخمة التى ورثناها من العصر المملوكى ، عصر الشروح والملخصات ، وكنا الى عهد قريب ونحن فى قمة الهزيمة قد عبرنا عن روح الصمود باللاءات الثلاث « لا صلح ولا مفاوضات ولا اعتراف » التى أصبحت الآن موضع سخرية أو استهزاء . ان الهدف هو هزيمة روح الامة ، وكسر شوكتها ، وضياع كرامتها ، واهانة شعوبها ، وركوب قلبها ، والنزول الى أحياء الحسين والازهر من تل أبيب للشراء من خان الخليلى ، قلب الامة وحفاظ تراثها ، وكأننا أصبحنا متحفا وذكريات يحملها السائح الاوروبى الجديد معه ، ورؤية القادة الجدد الاهرامات . وركوبهم الترام ، ورفضهم السكنى فى الضواحى دون قلب المدينة حتى تكون المدينة فيما بعد بلا قلب وبلا حرمات . وطالما ذكر عبد الناصر من قبل ما قاله اللنبى قائد الجيوش البريطانية الى القدس « اليوم انتهت الحروب الصليبية » أو ما قاله القائد الفرنسى جورو فى دمشق أمام قبر صلاح الدين « ها قد عدنا اليك يا صلاح الدين » . والآن يقول حكامنا الصهاينة الجدد « ها قد عدنا اليك يا قاهرة المعز » . ولا عجب أن يهدى الينا

« دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون ونحن نفرح بـه دون أن نعى المقصود به • كانت حضارتنا نحن اليهود فى عقر داركم واليها ستعود • ولا عجب أيضا أن يعلن حكامنا الصهاينة الجدد فتح حدود مصر من داخل اسرائيل ، ورفضهم اعترافنا بهم ، وهـو الاعتراف الذى طالما تمنوه ، فلهم اليد العليا ، والمعركة لديهم معركة كبرياء • فاذا ما انتهت روح المقاومة والنضـال سلكت الشعوب كى تأخذ حقوقها أسـلوب الاخذ والعطاء وطريق التجارة والفصال ، وضاعت منها روح المبادىء التى لا يمكن التنازل عنها أو المساومة عليها • تتحول الشعوب الى شعوب تجارية ، تبيع كل شىء ، وتضيع منها عناصرها التاريخية الثابتة فى حين قد استطاعت المقاومة عن طريق الثبات على مبادئها • وقـد استطاعت الصهيونية أن تحصل على ما تريد عن طريق التشبث بأهدافها وعدم التنازل درجة واحدة عن متطلبات أمنهـا • وقد انتصرت رسالات الانبياء فى التاريخ أيضـا عن طريق عدم التنازل عنها « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونـه ما تركته » • أو كما يقـول القـرآن « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (٣ : ١٧٣) • ولقد أتصفت جميع الثورات الكبرى فى التاريخ بالجذرية والا تحولت الشعوب الى أقليات تستجدى حقوقها وتصبح مهددة بالقمع أو الاستئصال •

حينئذ تبدأ الشعوب فى المساومة على حياتها من موقف الضعيف أمـام القوى ، وتستعمل أسلوب الاستجداء العاجز ، واستثارة نخوة الغالب وانسانيته وعدالته • وتستمر فى الاستجداء حتى يأنف منهـا الاصدقاء ويزداد احتقار الاعداء لهـا بالرغم من مظـاهر الترحيب

وعبارات المجاملات ويرمون لها بالفتات الذى تفرح بـه ، وتعتبره انتصارا لها واستردادا للعزة القومية • تستنصر القـوى الكبرى ، تستنصر الشعوب المحبة للسلام ولكن الاولى لا تعرف الا لغة القوة ، والثانية لا تملك من القوة شيئا ، وقوتها معنوية أكثر منهـا فعلية • فى الواقع السياسى لا يتغير شيئا الا بالقوة الفعلية • وقد حذر من قبل « اقبال » من أسلوب الشحاذة والشكاية والاستجداء ، وخطورته على حياة الافراد والشعوب • وسماه « فلسفة السؤال » وفى نفس الوقت نردد اليد العليا خير من اليد السفلى !

ثانيا : نهاية مشروعنا القومى :

وسيوحى السلام لشعوبنا بأن ثوراتنا العربية الاخـيرة التى قامت كرد فعل على هزيمتنا فى فلسطين فى ١٩٤٨ قـد انتهت ، وانها كانت عاجزة عن تحرير فلسـطين • بل ان مزيدا من الاراضى قد ضاع فى عهدها ، وانها كانت سببا فى انتكاسات الامة • وبالتالى نتوب عما قمنا به ، والتوبة الصـادقة كما يقول الصوفية تقتضى الندم على ما فات ، وترك الذنب فى الحـال ، وعدم العودة الى مثله فى المستقبل ! تحدث لدينا عقـدة الذنب بأننا سلكنا الطريق الخطأ ! وما كان أجدانا أن نقبل قرار التقسـيم فى ١٩٤٧ أو قبول الاستسلام بعد هزيمة ١٩٦٧ ، فالثورة طريق مسـدود ، فورة سرعان ما تنطفىء ، يسلبها منا القادة ثم لا يستطيعون الصمود • لذلك كان المطلب فى كل اعتداء علينا تحريرنا من الطغمة الثورية التى سببت لنا الهزائم وخربت الديار ، وهدمت المدن ، وشردت المواطنين ! وبالتالى تنتهى روح الثـورة من الشعوب • وتكون الثورة العربيـة التى كانت رائدة الثورات فى العالم

الثالث ، تكون تلك الثورة الام قد تمت تصفيتها وادانتها واعتبارها خطأ لابد من التكفير عنه ، واستثناء فى تاريخ أمة هادئة الطبع ، ترفض العنف والغضب ، وتكرم الضيف ، وتحب الجار ، وتسامح المعتدين •

ولما كان لكل أمة مشروعها القومى ، فلا يوجد شعب الا وله رسالة بها يحيى وبدونها يموت ، فالشعوب السلافية تقوم على حب الارض والدفاع عن روسيا الام (ايفان الرهيب) ، والشعوب الجرمانية تعتز بروحها وثقافتها ولغتها (فشتة) ، والشـعب الانجلوسكسونى يعتز بديموقراطيته ودسـاتيره ومجالسه النيابية (كرومويل) ، والشعب الفرنسى يفخر بوطنيته وثورته (جان دارك ونابليون) — فاننا صغنا مشروعنا القومى فى مبادىء الثورة الست ثم فى « الميثاق الوطنى » ، يقوم على مناهضة الاستعمار والرأسـمالية والصهيونية والرجعية ، ويحقق آمال الامة فى الحرية والاشتراكية والوحدة • يعنى السـلام بالنسبة للعدو ونحن وراءه انهاء مشروعنا القومى • فقد أيدنا الاستعمار فى مطالبنا على مائدة المفاوضـات ، وأعلنا بأن الرأسمالية لم تعـد جريمة ، فليكسب كل منا ما يشاء ويدفع ضرائبه للدولة أي يتهرب منها ، وأن العمل ليس وحده مصدر الثروة • وأدركنا أخيرا أن الصهيونية أقامت دولة متحضرة ندخل معها فى علاقات طبيعية ونغمض أعيننـا عما تفعله فى جنوب لبنان وعن احتلالها لفلسطين وبيعها لاراضيهـا وتشريد شعبها • تمزق العـالم العربى أربا ، وانعزلت مصر قلبـه النابض ، واكتشفت أنها خسرت فى حروب العرب الرجال والاموال ، وأن ما أنفقته فى معارك العرب كان أولى بها أن تنفقه للبناء والتعمير • أما حرياتنا فلا يجوز لها المساس بالكيان الصهيونى أو الاعتراض عليه والا اعتبر ذلك معاديا لاتفاقيات السـلام ، ودعوة للمشـاغبة ،

وبئا للكرامية بين أولاد العم ، وبالتـــالى ينتهى مشروعنا القومى .
ونصبح شـــعوبا بلا هدف ، وتصبح الصهيونية هى الصوت الوحيد
المسموع فى المنطقة ، تحل محل القومية العربية ، وتكون مفتاح القوى
فى الشرق الاوسط ومركز الثقل فيه • وتقوم بدور مصر التاريخى حتى
ولو بدت مصر فى أعقابها كحليف ومساعد لها •

فاذا ما تم ذلك انتهى دورنا فى تأييد حركات التحرر الوطنى فى
العالم تلك التى بدأناها وأيدناها وقويناها وأصبحت جزءا من فخـــرنا
فى حياتنا المعاصرة • بل تحولنا الى حركة تحرر مضـــادة ترى فى حروب
التحرير استعمارا جديدا وتدخلا ســوفياتيا وصراعا ايديولوجيا بين
القوى الكبرى • وقد كان فى القاهرة ابان المد الثورى العربى أكثر من
ثلاثمائة ممثل لحركات المقـــاومة ولمنظمات التحرير فى افريقيا • فينتهى
دور القومية العربية كرائدة لحركات التحرير فى العـــالم ، وتسبقنا
شعوب أخرى تأخذ منا الريادة • فلا نحن أصبحنا ثورة وطنيـــة ولا
نحن أصبحنا قوة كبرى يثار عليها بل أصبحنا ثورة مضادة نهدم ما
بنيناه بأيدينا ونتخذ من أعداء الامس حلفاء اليوم •

وهنا أيضا ينتهى التعـــاون المشترك مع المعسكر الاشتراكى الذى
كان الحليف التاريخى لمعظم حركات التحرر الوطنى يمدهـــا بالتأييد
المادى والمعنوى بل اننا نعاديه ، ونعتبره لا يقـــل استعمارا وهيمنة
عن الاستعمار الغربى الرأسمالى التقليدى ونصـــفه بأنه أصبح زعيم
الثورة المضـــادة فى العالم يمنع تزويد الســـلاح ، ويرفض اعادة
جدولة الديون ، ويريد دوران العالم الثالث فى فلكه ، وربطه بالمعاهدات
والاحلاف ، يعادى القوميات ، ويثير الانقلابات ، ويجند العملاء •

وهـذا لا يعنى أن المعسكر الاشتراكى خارج دائرة النقد وان الدول الاشتراكية لا تؤثر أحيانا مصالحها الخاصـة كدول على دورهـا التاريخى كثورات ، ولكن نقد الثورة للثوار شىء ونقـد الثورة المضادة للثوار شىء آخر • وهكذا نصبح بلا حلفاء ، ونقطع جسورنا ، وحلفاؤنا الجدد يؤيدوننا بالكلمات وبالنوايا الحسنة ، وجسورنا الجديدة لم يمر عليها عتاد بعد •

ثالثا : الغرب كحليف طبيعى :

ولما كان السـلام سيأتى بفضل تدخل الاستعمار وبمعاونته فان الغرب وهـو موطن الاستعمار الاول يصبح حليفا طبيعيا لنـا ، فقد ناصرنا فى قضايانا المصيرية ، وأرجع الينا أرضنا وأحيى الينا شبابنا ، وأرجع البسمة الى وجـوه أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا • نصبح جزءا من الغرب ، ويصبح الغرب مرجعنا الاول • لقد استرددنا أرضنا سلما بمعاونة الغرب وخسرناها حربا بمعاونة الشرق ! ثم نتم فى « التغريب » بأيدينا ، تغريب وعينا القومى • ولما كان الغرب نفسه هـو الحليف الطبيعى للولايات المتحدة الامريكية ، فاننا أيضا نصبح حليفا لهـا ، وهى التى تملك بناصية مصيرنا القومى ، وبيدها ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى المنطقة ، وهى التى بيدها مفتاح الحياة والموت لنا ولاعدائنا !

ثم نتبنى نظام الغرب الاقتصادى ، وتصـبح الرأسمالية النظام الاصلح لنا • والواقع أن الغرب لم ينصب نفسه مدافعا عن قضايانا الا بعد أن اطمأن الى أننا أصبحنا من حلفائه الاقتصاديين ، فتأتى رؤوس الاموال الاجنبية ، وتفتتح الشركات العالمية فروعا لدينـا ، ويفرض البنك الدولى شروطه ، ويطالب برفع الدعم عن الاسـعار ،

وتعفى شركات الانفتاح من الضرائب لمدة معينة ، ويتم الاســتيراد والتصدير بلا قيود ، ونعود من جديد الى اقتصاد ما قبل طلعت حرب . وتكون أقصى أمانينا لاجيال قادمة تكوين اقتصاد وطنى ، والغاء المعاهدة مع بريطانيا الجديدة ، ومقاومة المستعمرين الجدد . وكأن التاريخ لا يمثل بالنســبة لنا تراكما حضاريا . نعود كمــا بدأنا . ونبدأ كى ننتهى ثم نعود من جديد دون أن نكسب خبرة أو أن نتعلم من دروس التاريخ ، ودون أن يبقى لدينا رصــيد سياسى ومخزون تاريخى يسمح لنــا برؤية المستقبل حتى لا تتكرر أخطاؤنا . وفى نفس الوقت نفخر بأننا حضارة سبعة آلاف سنة . وما حققته الصهيونية أخيرا من اعادة دولة بنى اسرائيل هو فى الحقيقة تراكم طويل من خبراتهم التاريخية عبر آلاف السنين .

ثم نستورد مع النظام الرأسمالى مشاريع الغرب وقيمه الحضارية، فتنشأ لدينا أنمــاط جديدة من الحياة ، نقلد بهــا غيرنا . فمجتمع الرفاهية لا يقدر عليه الا الاغنياء أى الاقلية المترفة فى مجتمعاتنا ، وزيادة الانتــاج تتطلب قدرة على الانتــاج لا نملــك مواردها ولا أساليبها . ويبقى لنا زيادة الاستهلاك أى امتصاص اقتصادنا الوطنى وابتلاعه أولا بأول بلا عائد ولا ادخار . وتفرض قيم الاستهلاك نفسها علينا مع رغبة زائدة فى النهم والثراء ومظاهر الغنى وأساليب البذخ عند الطبقات التى انقلبت من الفقــر الى الغنى دون جهد وبلا وقت وبغير أهلية . وتنتهى الامــة كما وصف ابن خلدون .ويصــدر الغرب مشروعه القومى — أكبر قدر ممكن من الانتاج لاكبر قدر ممكن من الاستهلاك لاكبر قسط ممكن من الرفاهية — بعد أن ثبت فشله لديــه بعد أزمة الطاقة ، وسيطرة الشعوب المتحررة على مواردها الاوليــة

وثرواتها الطبيعية ، وأزمة الحضارة الغربية ذاتها التى تعبر عنها ثورة الشباب وانحرافهم ووقوعهم فى حلقـات الذكر أو غرز الحشيش أو انضمامهم الى جماعات الرفض العلنى أو السرى .

وأخيرا ، تضيع هويتنا القومية ، ونتخلى عن تاريخنا الطويل ، ونستأصل جذورنا بأيدينا ، ويأمن الاستعمار مخاطر ثقلنا التاريخى ويقظـة وعينا القومى التى يشوهها الغرب بدراساته الانثروبولجية عن المأثورات الشعبية والحضارات القديمة وأشكال التخلف وبدايات الانسان . وتكون روحنا قـد أصبحت أسيرة حتى يقضى عليها بالموت بطئا . ونكون أمام مجتمع يعض بالنواجذ على هويته فى الطعـام والشراب ، فى المسكن والملبس ، فى العادات والتقاليد ، يفخر بنقـاء عنصره دون اختلاط الانساب ، ويعتز باستمراره عبر التاريخ بالرغم من حياة الجيتو بين الشعوب .

رابعا : الصهيونية كنموذج التحديث :

فاذا ما استطاع السلام أن يبرز محاسن العدو وأسـلوبه فى الحياة ، وزراعته للصحراء ، وبنائه للمستعمرات ، وتعميره للخراب ، واقامته المدن الجديدة ، وانشائه القرى السياحية ، وتخطيطه الموانىء على السواحل ، واستخراجه ثروات الارض ، أصبحت الصهيونية نموذجا لتحديث مجتمعاتنا ، نرسل اليها البعثات ، ونجلب منها الخبراء ، ونبعث اليها الافواج السياحية ، ونستقبل منها الوفود . وما استطاعت الصهيونية القيام به من قبل فى أفريقيا على أنهـا نموذج للتحديث وقاومناه ، قامت به الصهيونية لدينا فى عقر دارنا وفى قلب العـالم العربى وقبلناه . فبدل أن كان الغرب نموذجا للتحديث حلت الصهيونية

القربية محله • ان أقصى ما نستطيع أن نعطيه هى السواعد الفنية ، والايدى العاملة ، والمواد الخام ، والاسواق والاموال • أما الفن وأساليب الانتاج والعلم كلّ ذلك تقــوم به الصهيونية فتكون بالنسبة لنا الروح ونكون بالنسبة لها الجســد • هى مصدر الخبرة ونحن مادتها ولا حياة لنا بدونهم • ونعود الى دور رجال المال الاجانب وخبراء الغرب فى حياتنا المعاصرة ، ونعــود من جديد الى المطالبة بالخبرة الوطنيــة التى نفخر بهــا كل يوم فى جامعات الغرب ومعــاهده ومستشفياته ومؤسساته ومعامله •

فاذا ما تمت المقارنة بين حياتنــا وحياتهم ، وفقرنا وغناهم ، وتخلفنا وتقدمهم ، وهمجيتنا وتحضرهم ، وجهلنا وعلمهم ، وخيانتنا وولائهم ، نشأ لدينا الاحســاس بالدونية ، وأصبح أقصى مطمح لنا فى الحياة هو اللحاق بهم وتقليدهم والوصول الى مستواهم • يصبح ما لديهم مقياسا لسلوكنا ومعايير لقيمنا ، وبالتالى يضيع ما ناضلنا من أجله منذ فجر النهضــة العربية من اعتزاز بالتراث ، واثبات للهوية ، ودفاع عن القومية ، ونصبح ضحايا العنصرية الحضارية • ونؤكد فى أنفسنا العجز ، ونرى بأعيننا ما روجــه الغرب عن الصدمة الحضارية أو الفجوة الحضارية • وان الفجوة بيننا وبينهم تتسع أكثر فأكثر كلما مر الزمان لان معدل لحاقنا بالتكنولوجيا المتطورة أبطأ بكثير من معدل انتاج الغرب لها • وبالتالى فالزمان والتاريخ بالنسبة لنا يعنيان مزيدا من التأخر • فالعالم يتقدم الى الامام ونحن نتقدم الى الوراء • ولما كانت الصهيونية جزءا من العالم ومحركه الاول بأموالها وعبقريتها أصبحنا نحن خارج العالم بفقرنا وجهلنا •

فاذا ما تم ذلك قبلنا الصهيونية كفكرة • ورأيناها كمــا ادعت

الصهيونية دائما حركة تحرر الشعب اليهودى • فقد استطاعت تجميع اليهود من الشتات واقامة دولة ، وكسب ثلاثة أو أربعة حروب • وأدركنا أن ما كان يروج بيننا من أن الصهيونية حركة استيطانية توسعية عسكرية عنصرية كان دعاية همجية ضد شعوب متحضرة • وبالتالى يضيع أكبر مانع كان يحفظنا من الغزو الصهيونى وهو الاعتقاد ، وهو ما تسعى اليه الصهيونية الآن بعد أن استولت على الارض ، أرض فلسطين ، وشردت الشعب ، شعب فلسطين ، ومحت الاسم ، اسم فلسطين • ويكون أكبر انتصار حققناه لها يضمن لها البقاء • لن تحتاج الصهيونية بعد ذلك الى جيوش وأساطيل بعد أن رأينا العربى الاسرائيلى واليهودى الاسرائيلى يعيشان سويا ، ونسينا وضع اليهود الشرقيين داخل الدولة الصهيونية الذين يكونون أكثر من ٦٠٪ من السكان والذين يعيشون على هامش الحياة دون سلطة أو تمثيل فى المجالس النيابية أو فى السلطة التنفيذية أو فى قيادات الجيش أو طلابا وأساتذة فى الجامعات • نسينا أن اليهودى لا يكون كذلك الا اذا كان بولنديا أو روسيا أو أمريكيا •

وأخيرا ، تتم صهينة العالم العربى ككل ، وتصبح الصهيونية بديلا عن القومية العربية • تأخذ الصهيونية تاريخنا وتشكل حاضرنا وتصنع مستقبلنا • وتحقق حلم الصهيونية القديم بأن تكون الحضارة العربية والاسلامية جزءا من الحضارة اليهودية كما هو واضح فى دائرة المعارف اليهودية ، وأن تكون الحضارة اليهودية هى ممثل الحضارات السامية كلها ، ونموذجها الاوحد • ويدافع كل منا عن الصهيونى المضطهد • ويقول كتابنا ورؤساء تحرير صحفنا أن اليهودى ليس ذلك الاحدب الظهر ، المقوس الانف ، الاصلع الرأس ، الاخنف

الصوت ، المرابى الذى صوره شكسبير فى شخص شيلوك ولكنه انسان حسن المظهر والهندام ، حسن المعاشرة ، دمث الاخلاق . لا تصبح القدس المدينة التى كان العرب يتبولون على حوائطها كما يقول أحـــد كتابنا بل المدينة الجميلة الحديثة النظيفة بعد أن استولى عليها اليهود . بل ويفتخر بعض قادتنا وكتابنا بأن لكل منهم أصــلا يهوديا وكان مجهولا لديه من قبل واكتشفه بعد السلام عن طريق الام أو عن طريق الزوجة حتى يتم الرباط بالدم عن طريق الرحم .. فاليهودى هو من تكون أمه يهودية ، وينشأ فى رحم يهودى .

تلك هى مخاطر السلام ، فى بساطة ووضوح ، وبحماس الطالب ان لم يكن بعلم الاستاذ . فالامن المطلوب ليس هو الامن العسكرى بل الامن الحضارى ، وها نحن قد أعطيناه لهم ، جيل السلام .

لا مفر من الصمود والحوار

لم تر مصر طول تاريخها ، حتى فى أيام المماليك ، وضعا ثقافيا أسوأ مما عليه الآن . فعلى الاقل ، حفظت مصر التراث الاسلامى فى عهد المماليك فى الموسوعات الكبيرة ، فيما يسمى بعصر الشروح والملخصات . أما الآن ، وبالرغم من النهضة التى بدأناها منذ مائتى عام ، والمكاسب الضخمة التى حصلنا عليها : العقل والحرية من الاصلاح الدينى (الافغانى ومحمد عبده) ، والطبيعة والتقدم فى الفكر العلمانى (شبلى شميل وفرح انطون) ، والوطن والدستور فى الفكر القومى (الطهطاوى ولطفى السيد) .. فاننا خسرنا ماكسبناه ، خاصة فى العقد الاخير ، فانتهى الاصلاح الدينى الى محافظة عقائدية شعائرية صورية ، وانتهى الفكر العلمانى الى وقوع فى الوهم والخرافة والاستكانة والخنوع ، ووانتهى الفكر القومى الى وقوع فى النظم الثيوقراطية والابوية القديمة .

انتهى الابداع نهائيا من حياتنا الثقافية ، الا بعض ومضات من أدبائنا الشبان ، تبقى من خلالها روح الامة . فالابداع مشروط بالحياة الثقافية الطبيعية ، حيث تسود التيارات الثقافية والعلمية ، يقارن بينها الفنان أو الاديب أو المفكر أو العالم ، ثم يختار فى حرية تامة ، ينفعل بها جميعا ، يؤيد واحدا ويرفض الباقى ، أو يرفضها جميعا

---

* كتاب الموقف العربى ، ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

ويشق له تيارا خاصا ، ذلك لا يأتى الا فى جو الحرية الفكرية والحياة الديمقراطية ، وهما لا يتوافران فى مجتمعاتنا الحالية .

هذا بالاضافة الى ارتباط المبدع بالقضايا المصيرية للبلاد ، فلا ابداع من منازلهم ، ولا خلق من مواكب المتفرجين المصفقين . ولما كانت القضايا الوطنية المصيرية — مثل الحرب والسلام والرأسمالية والاشتراكية — حكرا على السلطة السياسية ، لا يتطرق اليها المواطنون، فان مصادر الابداع قد تم القضاء عليها ، وأصبح المبدعون بلا وطن ، هائمون على وجوههم فى الطرقات وعلى المقاهى وفى المنتديات يبكون حظهم .

بل اننا فقدنا الحماس لعمل أى شىء .

والترجمات الزاهرة التى قام بها الطهطاوى وتلاميذه والبعثات التى أرسلها محمد على نكصنا عنها ، وظللنا نترجم بلا تخطيط وبلا هدف مقصود . وألفنا عن طريق الترجمة غير المباشرة . والسرقات وعدم ذكر المصادر ، وجمع المعلومات وترتيبها وتنسيقها ، فلا هى ترجمة أمينة كما كنا نفعل فى الماضى ، ولا هو تأليف مبدع كما ينبغى أن يكون . وفى رؤيتنا للواقع ، غابت التحليلات النظرية التى تعتمد على أسس ثقافية ، بل وابتلعت هموم الدنيا عقولنا ، وركبنا الواقع بدلا من أن نسوده نحن ، وبالتالى عشنا بلا ثقافة .. ابداعا ، أو نقلا ، أو رؤية .

ومع ذلك ، فانه يمكن رصد أربعة اتجاهات ثقافية ، تظهر بين الحين والآخر فى حياتنا العامة والخاصة : الاول : الاتجاه الدينى المحافظ الذى تتبناه الدولة ، والذى يظهر فى الدين العقائدى الشعائرى،

والذى تغلب عليه الصورة دون المضمون •• وهو الطريق السهل الذى يعطى للناس تحقيقا سريعا لمتطلبات الايمان ، ويترك الطريق الصعب•• طريق تحقيق النظام الاجتماعى والسياسى الدينى ، أعنـــى قضيتى العدالة الاجتماعية والحرية •

والثانى : الاتجاه العلمانى التقدمى الذى ترفضه الدولة ، والذى أصبح محاصرا من السلطة ومحصورا عند الشعب ، وكأنه صرخة فى غير واد ، نظرا لعدم تأصيلة فى تراث الامة •

والثالث : الاتجاه الوطنى التقدمى الذى ورثنـــاه من ثوراتنا الاخيرة ، والذى بدأ يخبو ويتحول الى اتجاه مضاد ، والذى ظل حتى فى أوقات ذروته شعارات وأمانى •

والرابع : هو اليســـار الاسلامى الذى يحاول صياغة قضايا المساواة والحرية ابتداء من تراث الامة ، داعيا الى تحريك الجماهير وتحذيرها على المدى الطويل ، خاصة بعد فشل الاتجاهات الثلاثة الاولى •

أما أزمة الحريات فى مجتمعاتنا الحالية ، فانها ليست وليدة القوانين الاستثنائية والاستفتاءات الشعبية ، ولكن تمتد جذورها الى تراثنـــا الطويل الذى يكفر جميع فرق المعارضة باستثناء فرقة ناجية واحدة ، وهى الحكومة ، وتبرير العقل للمعطيات دون تحليلها ، وسيادة الرؤى الالهامية دون الحوار العقلى بين البدائل ، وحرفية التفسير ، والبدايات اللغوية والنصية التى تغفل معطيات الواقع ، وسلطوية التصور ، وهرمية البنيان النفسى لشـــعورنا • كل ذلك — فى الواقع — يحتاج

اعادة بناء حتى يمكن تجاوز أزمة الحريات • وقد عرضنا ذلك فى مقالنا « الجذور التاريخية لازمة الحرية والديمقراطية فى وجداننا المعاصر »(١)•

وبالنسبة لتطبيع العلاقات الثقافية مع اسرائيل فان العلاقات الثقافية هى نتيجـة للعلاقات السياسية — فالثقافة هى سياسة على مستوى النظر ، والسياسة ثقافة على مستوى العمل • وبالتالى فان ما يحكم طبيعة العلاقات الثقافية ، هو نفسه الذى يحكم طبيعة العلاقات السياسية • وعلى ذلك ، فسيأتى المثقفون والعلماء من الجانب الآخر بنية تحديثنا وتعليمنا وتثقيفنا ، وليس بنية الحوار المتكافىء بين الطرفين، مما يسبب عند جماهيرنا عقدة « الخواجة » من جديد •

ومع ذلك ، فان مخاطر تطبيع العلاقات الثقافية تتمثل فى كـل حياتنا • وستفرز الصهيونية ثقافتها بيننا ، يعاونها فى ذلك الاستعمار والرأسمالية • فمثلا ستعتقد جماهيرنا بأن الجهاد لن يؤدى الى شىء ، وأن الحرب خاسرة بالضرورة ، وبالتالى تضيع روح النضال ، وتظل شعوبنا تستجدى حقوقها من الاقوياء ، والفصال فيها والتجارة عليها والتنازل عنها شيئا فشيئا ، حتى نتخلى عنها بفعل الزمن ، ونتحول الى أقلية فى دارنا نتمثل حضارة الاقوياء •

ستفرز الصهيونية فى حياتنا قيمها ، فالصهيونية وسيلة تحديث لنا ، حركة تحررية للشعوب المضطهدة حتى ننسى عنصريتها وعسكريتها وعدوانها وتوسعها • نقبل الصهيونية أخيرا كفكرة ، حتى تتم صهينة العالم العربى من خلالها ، وتكون بديلا عن القومية العربية فى المنطقة •

---

(١) المستقبل العربى ، يناير ١٩٧٩ وأيضا الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ ، ٢ — الدين والتحرر الثقافى .

وسيدخل الاستعمار أيضا مع الصهيونية لاثبات فشل مشروعنا القومى الذى وضعناه بعد ثوراتنا الاخيرة العربية : معاداة الاستعمار والصهيونية والقضاء على الاقطاع والرجعية والرأسمالية • وبالتالى ننهى تعاوننا مع حركات التحرير العالمى ، ونغير أحلافنا من المعسكر الاشتراكى الى المعسكر الرأسمالى ، أوالرجوع الى الحليف التقليدى فى الغرب ، والى اقتصادنا التقليدى فى الرأسمالية • وتعمنا قيم الغرب الاستهلاكية ، وتضيع هويتنا القومية ، ويضيع ما حاولناه منذ طلعت حرب من محاولات انشاء اقتصاد قومى وصناعة قومية • سينبهر شبابنا باسرائيل الحديثة بعد تبادل الزيارات طلابا أساتذة وبعثات ، وتكون اسرائيل نموذج التحديث فى العالم العربى ، وتذهب اليها العقول المهاجرة والعمالة ، وتأخذ رأس المال والخبرات ، وتكون الصهيونية هى الحليف الطبيعى لنا •

لقد حاولت الصهيونية ابتلاع الارض — أرض فلسطين — ثم تحاول الآن القضاء على الشعب — شعب فلسطين — بسياسة المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة والقدس ، واستئصال شعب فلسطين من جنوب لبنان ، كما تحاول القضاء على مجرد الاسم • والآن تحاول تصدير البديل : اسرائيل والصهيونية ، تحاصر مصر وتعزلها عن العالم العربى ، فهى واسرائيل هما جزيرتا الحضارة وسط الشعوب الهمجية كما قال أحد كتابنا • ويفتخر كاتب آخر بأن جذوره اسرائيلية • ويدافع كاتب ثالث عن اليهود فى التاريخ ، بأنه ليس صاحب الانف المقوس والصوت الاخنف والصلعة البيضاء ، وليس كل يهودى هو « شيلوك » شكسبير • وهكذا آتت العلاقات الثقافية الطبيعية أكلها بيننا من قبل أن تبدأ رسميا •

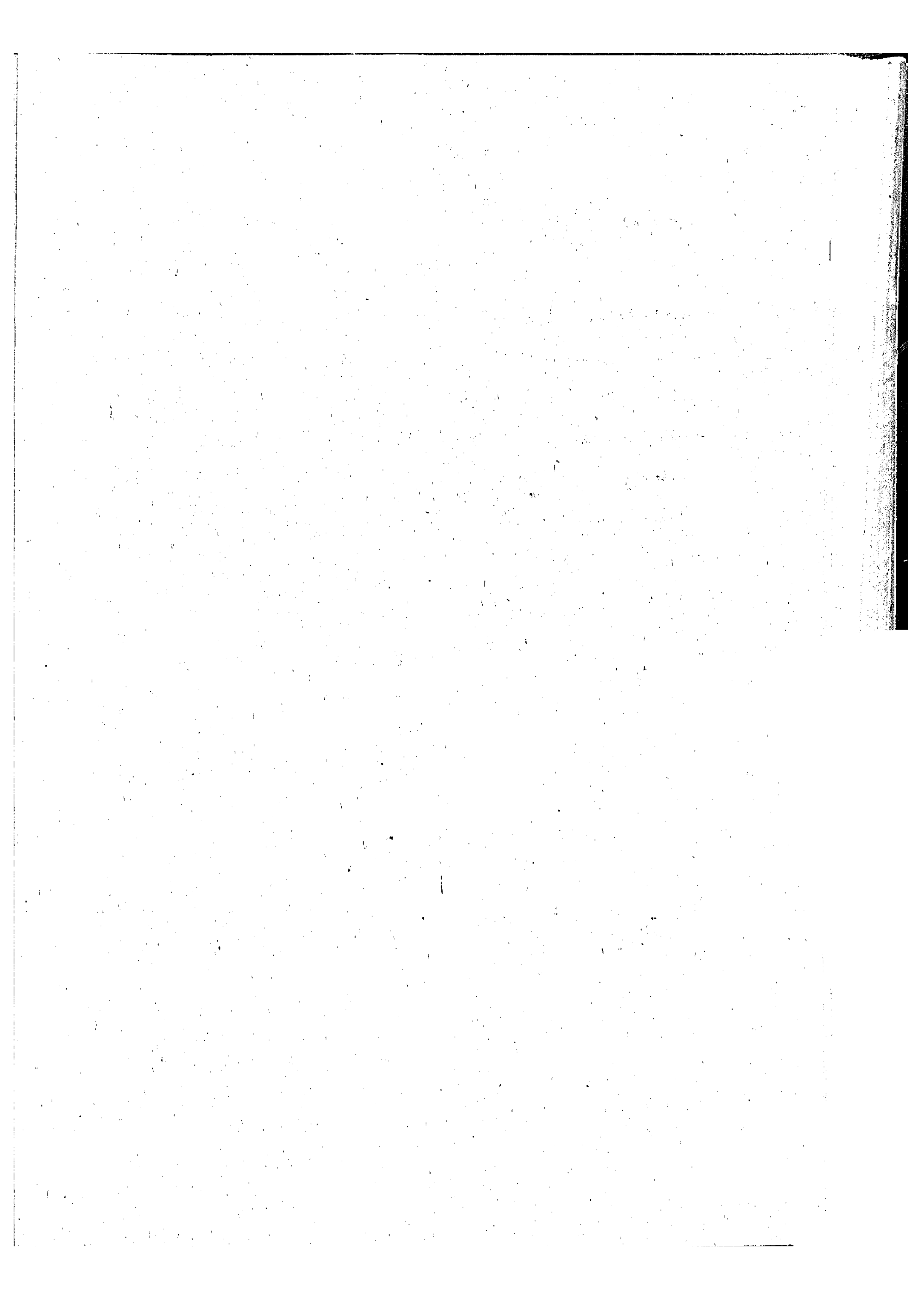
هناك ضرورة لاستمرار الروافد الثقافية للنهضة التى بدأت منذ مائتى عام • فالاصلاح الدينى يستطيع أن يربط بين العقيدة والثورة ، بين التوحيد والتحرر ، بين الحياة الابدية ومقاومة الصهيونية ، بين الروح والبدن ، حتى يتحول الاسلام فى حياتنا الى فلسفة للمقاومة والصمود • ويستطيع الفكر العلمانى اعادة تحريك دعواه الى العلم والتقدم والاشتراكية والحرية ، فهى أفكار ما زلنا نتخوف منها ونكفرها • ويستطيع ما حاوله لطفى السيد والطهطاوى من تأسيس للامة والدستور ، ودعوة لقيام الدولة الحديثة — أن يعيد ما خسرناه ، وأن يبين لنا أن الدولة ليست ارهابا وتسلطا وادارة فردية وقهرا وطغيانا وضياعا لحقوق الناس •

لا مفر أمامنا الا اجراء حوار حول الوحدة الوطنية ضد التسلط الثقافى وواحدية الطرف فى الرأس ، حوار بين اليمين واليسار ، بين الاتجاهات الدينية والاتجاهات العلمانية ، بين الاخوان والماركسيين ويدخل كطرفين فى الحوار ثورة يوليو — التى حاولت تطوير الواقع متجاوزة الايديولوجيتين المعروفتين ، واليسار الاسلامى — الذى قد يكون فى النهاية بوتقة الحوار الوطنى وخلاصته •

ولا مفر أمامنا الا من تحمل مسئولية الثقافة ضد الحرفية وضد ايقاع المثقفين فى التخصص المهنى ، وكأنهم آلات انجاز أو خبراء أجانب ، وضد التكسب وعمليات التجارة وأساليب البغاء فى حياتنا الثقافية ، وضد الهجرة الى الخارج ، ونزيف عقل الامة فى العالم العربى أو فى أوربا وأمريكا ، فالمقاومة فى الداخل وليس فى الخارج ، وتغيير الامر الواقع خطوة أفضل من عشرات المجلات وجرائد المعارضة

فى العواصم الاجنبية ، وضد الهجرة الى الداخل والانزواء والانطواء والاكتئاب والاحباط واليأس والجنون والانتحار .

لا مفر أمامنا الا من الصمود الذاتى داخل الدوائر الضيقة والقيام بمبادرات فردية فى نشر محاولات الابداع للادباء والمفكرين الشبان . وان ما ظهر حتى الآن مثل « الفكر المعاصر » و « كتابات » و « اليسار الاسلامى » — عن قريب — لبوادر خير . وعادة تبدأ الثقافة فى الازدهار فى أحلك اللحظات التى تمر بها الامم ، وفى أقصى ساعات الهزائم ، فاذا ما عجزت الجيوش والنظم استطاعت الاقلام والعقول .



قبل الانتفاضة وبعدها

لشد ما هو أقسى على النفس عندما يشعر المفكر العربى أن الاحداث قد سبقته ، وأن دوره يأتى بعد الاحداث لينظر لها بفكره الثورى ، ويزايد عليها لعله يستطيع أن يكون له دور وسط الاحداث التى طالما كان يرجو قيادتها وهو الآن يشعر أنه قد تخلف عنها . فاذا فعل فانه لا يزيد على التنظير التقليدى أما بنظرية فى الثورة ضد الاحتلال الصهيونى والامبريالية العالمية باسم فلسطين مرة ، وباسم العروبة مرة ثانية ، وباسم الاسلام مرة ثالثة ، وهو ماعرفه الجميع من قبل . وطالما سمعنا وتحدثنا من قبل عن الوطنية والعروبة والاسلام ولم نحدث ثورة .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذا الاحساس بالذنب أمام الاطفال والنساء والشيوخ : أنهم سبقوا المفكرين ، وقاموا بالثورة قبل التنظير لها ، وبالرغم من الاحساس بالتقصير النظرى ، أننا لانملك الا المفاهيم التقليدية للثورة بعد أن قامت بها الجماهير فى الاراضى المحتلة ، وأننا مازلنا قاصرين عن الابداع الثورى فى العمل والنظر ـــ بالرغم من هذا كله فاننى أحاول أن أتجاوز هذا الحصار النفسى ، وأدلى بهذا الاعتراف أمام النفس ، وأقدم هذه الشهادة للتاريخ ، ليس ابراء للزمة أو تكفيرا عن الذنب ولكن عقدا للنية على الاجتهاد ، وعقد للعزم على أن تكون الانتفاضة ليس فقط الطريق الى دولة فلسطين المستقلة ولكن أيضا بداية

---

* مجلة « اليوم السابع » ، باريس ، أكتوبر ١٩٨٨ .

صحوة الفكر العربى وتمد به لنفسه وادراكه لمدى قدراته على الفهم والابداع •

تدل هذه الانتفاضة ، ماقبلها ومابعدها على عدة حقائق على النحو الآتى :

١ ــ أسقطت الانتفاضة نظريتين شائعتين سادتا الفكر السياسى فى المنطقة • الاولى استمرار الاحتلال العسكرى طالما كانت له القوة المسلحة وطالما سكنت الجماهير ، وتأقلمت معــه ، وتعودت عليه ، وأصبح جزءا من حياتها اليومية حتى مع سياسة تهجير الشباب خارج البلاد ، والاستيلاء على الاراضى بالقوة ، وادماج الباقى فى النشاط الاقتصادى للنظام العنصرى • والثانية التثوير من الخارج عن طريق المقابلات والزيارات والمفاوضات الجانبية والرسائل المتبادلة ولجــان التنسيق والنداءات والوعود • وهى كلها بلا مضمون ، تحركات بلا واقع يسندها • فلا مفاوضات بين الشعوب الواقعة تحت الاحتلال ومحتليها الا تحت ضغط المقاومة وخسائر العــدو كما كان الحــال فى فيتنام والجزائر • ثم بدأت الانتفاضة الفعلية على أرض الواقع ، وتحركت جماهير الشعب الفلسطينى لتبين أنها اصدق من النظريتين السابقتين • فلا الاحتلال استمر ، ولا التثوير من الخارج قد تم •

٢ ــ قامت جماهير الشعب الفلسطينى بالانتفاضة من الاطفــال والشباب والنساء والشيوخ وليس جيش التحرير الفلسطينى والمنظمات الفدائية الفلسطينية مما يدل على أن جيش الشعب ماهو الا بلورة لنضال الشعب • بدأت الانتفاضة بالحجارة لا بالرصاص ، وبالزجاجات لا بالمدفع الرشاش ، يحملها الاطفال والنساء والشيوخ لا رجال المقاومة ،

وعلى نواحى الطرقات وفوق أسطح المنازل لامن الكمائن وعن طريق حرب العصابات ، فالشعب يثور على أرضه • ولا احتلال للارض الا فوق الاجساد • وبالتالى سقط تصور اعطاء أرض بلا شعب الى شعب بلا أرض • وثبت صحة تصور « أعطاء من لا يملك لمن لا يستحق » •

٣ — وأمام هذه الحركة الشعبية انهار الجند المدجج بالسلاح الذى تعود على مقاتلة جند مثلة وبما له من عدة وعتاد • لم يتصور مرة أنه سيقاتل طفلا أو امرأة أو شيخا بلا سلاح ، وبالتالى يتحول الى شرطة أمن ، وظيفته المحافظة على نظام وليس الدفاع عن أرض وسلامة دولة • أصبحت الترسانة العسكرية للعدو بلا هدف أو غاية ، دبابة فى مواجهة طفل ، وطائرة فى مواجهة قرية ، ومدفع مصوب الى صدر امرأة ، والحجارة فى وجه الجندى وفوق رأسه • امتهان لكرامة المقاتل الشريف ، ودعوة الى النزال بين ندين غير متكافئين ، عنف الاحتلال يقابله لا عنف المقاومة ، حديد تقابلة حجارة • فانهار السلاح أمام نزع السلاح • وبهت العدو الذى تعود على السيطرة على السماء بسلاحه الجوى ونقل المعركة الى أرض غيره بأن أتته السيطرة على الاراضى المحتلة ومن داخل حدود الغزو والاحتلال • ثم يأتى دور الحوار • الطفل والمرأة والشيخ يحاورون الجند ، ويتوجهون الى معتقداتهم العنصرية بعد أن تم « غسيل المخ » على مدى أربعة عقود • وتهتز قناعات جنود الاحتلال وهم يواجهون خصما من نوع جديد ، جندى فى مواجهة مواطن ، سلاح فى مواجهة برهان • فيتزعزع منطق الصهيونية والاحتلال ، وتبدو العنصرية والعدوان واضحين للعيان • وتنهار المعنويات بعد أن بطل السلاح • فتحت الانتفاضة بذلك طريق نضال الشعوب ليس فقط أمام الاحتلال الخارجى بل أمام القهر الداخلى • وهاهو شعب

بورما الآن يسير فى نفس الطريق الذى خطته الانتفاضة ، مواطن يقنع جنديا بأن يكون طليعة التحرر الشعبى لا أداة لقمع السلطة •

٤ ــ ليست الثورة ضد الاحتلال نظرية ثورية وطنية أو قومية أو اسلامية أو ماركسية بل هى فعل ثورى تنصهر فيه الايديولوجيات النظرية ، وتتوحد فى العمل الثورى الموحد • فالانتفاضة وحدة وطنية تتحقق بالفعل ، تعطى الاولوية للعمل على النظر ، وللفعل على القول ، وللموقف على الشعار • حدث ذلك تلقائيا وبدافع وطنى طبيعى دون نظرية مسبقة فى الوحدة الوطنية أو الجبهة الوطنية أو الائتلاف الوطنى• وكان ذلك أيضا هو الفعل الثورى لابى جهاد • شهيد الانتفاضة الذى رفض أن يشتت جهده فى معارك نظرية ، وآثر أن يكون الشعب كله صفا واحدا فى مواجهة الاحتلال •

٥ ــ استطاعت الانتفاضة أن تبنى المؤسسات الثورية بفضل القيادة الموحدة للانتفاضة سواء فى تنسيق العمل الثورى وتنظيم الاضرابات أو فى تكوين نواة الاقتصاد الثورى المستقل عن النشاط الاقتصادى لنظام الاحتلال • فأصبحت الانتفاضة ليس مجرد حركة شعبية بل بناء فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والتاريخ • واستمرت الانتفاضة وقاربت على عشرة أشهر ومازالت مستمرة ، بالرغم من مراهنة الاحتلال على سرعة قمعها وتصفيتها وطرد قادتها • ومازالت الانتفاضة قادرة على ابداع أساليب ثورية جديدة كان أحدها فك الارتباط القانونى والادارى مع المملكة الاردنية حتى تعود القضية الى أصحابها ، وينتهى الخيار الاردنى التى راهن عليه حزب العمل ، وينقشع اللبس عن ازدواجية التمثيل وازدواجية الهوية ، ويبدأ الخيار

الفلسطينى والتمثيل الواحد والهوية الفلسطينية ، شعبا وقيادة ، دولة وعاصمة .

٦ — وكانت احدى ثمرات الانتفاضة بداية التفكير الجدى فى الوقت المناسب للاعلان عن الدولة الفلسطينية المستقلة . فقد استطاعت الانتفاضة أن تبنى مؤسسات الدولة من القاعدة الى القمة : الوحدات المنتجة ، التنظيمات الجماهيرية ، أجهزة الاعلام ، اللجان الشعبية ، القيادة الموحدة ... الخ . لطالما كثرت النداءات من قبل لاقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ، ولم تجد الا آذانا صماء . ولكن بعد الانتفاضة ظهر بناء الدولة ومؤسساتها الشعبية والدستورية ، ولم ينقصها الا الاعلان والاعتراف الدولى . فالمضمون يسبق الشكل ويفرضه ، والشكل وحده لايعطى مضمونا . وأخذت قرارات القمة خاصته مقررات مؤتمر فاس مضمونها بعد أن كانت مجرد قرارات مثل سابقتها . واستطاعت المنظمة أن تطور ميثاقها من دولة فلسطينية ديمقراطية علمانية يعيش على أرضها كل من يشاء بصرف النظر عن دينه وجنسه ولغته الى دولة فلسطينية فى الاراضى المحتلة عاصمتها القدس وطبقا لقرار التقسيم فى الامم المتحدة عام ١٩٤٨ والذى أقر شرعيا ودوليا بانشاء دولة فلسطين المستقلة على أرضها .

٧ — لقد هزت الانتفاضة المجتمع الاسرائيلى ، وأخذ النظام العنصرى على غرة . فقد استعد العدو بالسلاح ، وانتظر المعركة على أرض الغير . ولكن الانتفاضة هذه المرة أتته من الداخل كحركة شعبية غير مسلحة فحاصرت النظام ، ووضعته فى مأزق تاريخى أمام شعبه المهاجر القادم من وراء البحار تحقيقا لاسطورة الميعاد التى تحطمت

على أرض الواقع . وبالتالى قويت الحركات الداعية الى السلام وازدادت مراجعات الصهيونية لنفسها ، وعلت الاصوات المنادية بحقوق شعب فلسطين من داخل الاراضى المحتلة قبل ١٩٤٨ ، وزادت الجماعات الرافضة للنظام العنصرى للصهيونية ، ودبت فى الجليل الاعلى روح المقاومة والنضال ، وعادت الى أذهانهم ذكريات فلسطين العربية قبل قيام دولة الاحتلال .

٨ — أثرت الانتفاضة على الساحة العربية . فوحدت العرب بعد أن فرقتهم الحروب الاقليمية والنزاعات الطائفية ومعارك الحدود والتخوين المتبادل بين الانظمة عبر أجهزة الاعلام . لم يستطع أى نظام عربى وأد الجنين الجديد بل اجتمع العرب على حمايته . فقد يكون هو المخلص لهم من أحزانهم وكروبهم . توقفت حرب الخليج ، هذا النزيف الداخلى فى جسد الامة ، وقاربت الحرب الاهلية اللبنانية على النهاية ، وبدأت التجمعات الاقليمية العربية فى الظهور فى المغرب العربى بعد ظهورها فى المشرق العربى ولجان التنسيق فى قلب العالم العربى بين مصر والاردن والسودان والمغرب . وتعود مصر الآن تدريجيا الى مكانها الطبيعى فى قلب الامة العربية كى تنهى أسوء عقدين فى تاريخها الحديث . وتمسكت الشعوب العربية بأمل جديد بعد أن اضناها اليأس، وعمها العجز .

٩ — وأصبح الرأى العام العالمى أكثر قبولا لحقوق شعب فلسطين أكثر من أى وقت مضى بعد أن شاهد العالم كله تكسير أصابع الفلسطينيين وأذراعهم ، وتشييع جماهير شعب فلسطين شهداءهم ورفع أعلام فلسطين على أعمدة النور وأسطح المنازل ، وحوار النساء

مع جنود الاحتلال ، ورمى الاطفال بالحجارة ، وخروج الشيوخ حفاة من المخيمات مع الابناء وكأنهم يبعثون من جديد ، ودفاع الامهات عن الاطفال ضد ضرب جنود الاحتلال • والغرب لا يعرف الا لغة الواقع ، ولا يسمع الا لاقوال المنتصر • وبالرغم من تصور أجهزة الاعـــلام العربية خشية من تحركات الجماهير وأن تعم الانتفاضة العواصـــم العربية وأن تتحول المنطقة كلها الى انتفاضات متكررة فلقد حاصرت الانتفاضة أجهزة الاعلام العربية واضطرتها حياء الى أن تلحق ، ولو الى حد قليل ، بأجهزة الاعلام الغربية تنقل عنها أخبار الانتفاضة •

وكما كانت معركة الكرامـــة اثـــر هزيمة ١٩٦٧ ميـــلادا للمقاومة الفلسطينية فان الانتفاضـــة بعد عشرين عاما ميـــلاد جـــديد للدولة الفلسطينية •

الدين والثورة فى الثورة العرابية

ان مهمة هذا البحث دحض الفرية التى تجعل من عرابى درويشا جاهلا بالدين خارجا على الشريعة ، وأن دروشته سبب هزيمتـــه أمام جيوش الاحتلال •

أولا : مقـــــدمة :

الدين لدى الشعوب التاريخية فى مصر والهند والصين وفارس أو فيما يسمى حاليـــا بدول القارات الثلاث ، أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية هو مصدر قيمها ، ومنبع فكرها ، وأصل تراثها ، وموجـــه سلوكها ، تلجأ اليـــه ساعة الشدة ، وتتجه نحوه فى اللحظات الحاسمة من تاريخها • وهو أيضـــا عامل فى تقدمها أو تأخرها طبقـــا للوظيفة التى يؤديها فيها ، وطبقا لاستعمال مختلف الطبقات الاجتماعيـــة له • تثور به الجماهير ، وتتحكم به الســـلطة ، تواجـــه به الشـــعوب فى مقاومتها المحتل الاجنبى ، ويستغله المحتل الاجنبى من خـــلال السلطة الدينية طلبا لطاعة الجماهير وانصياع الامة •

لقد دخل شـــعب مصر فى الاســـلام لانه رأى فيه تحريرا له من تسلط الرومان واحتلال الاجنبى • ثم ارتبط لاسلام بتاريخها وحياتها وقوت يومها وعادتها وتقاليدها حتى استعمله السلطان والخليفة والوالى

---

* كتاب الموقف العربى ، الثورة العرابية ، مائة عام ، ١٨٨١ — ١٩٨١ ١٤٠١هـ — ١٩٨١م •

تأييدا لسلطته وطلبا لطاعته ، يلقى عليه علماء الازهر الرداء فى أغلب الاحيان ونادرا ما يخلعونه عنه . وقد قام غالبية علماء الامة بالدور الاول ، الدين تأييدا للسلطة وتثبتا للوضع القائم ، وقامت الاقلية بالدور الثانى ، الدين فى مواجهة السلطة وثورة على الوضع القائم .

ومنذ بداية النهضة الحديثة فى مصر منذ محمد على كان الدين مصدر التيارات الثلاثة الرئيسية فيها : الاول ، الاصلاح الدينى الذى بدأه الافغانى حيث كان الدين ثورة ضد الاستعمار الخارجى والتخلف الداخلى فى مظاهره المختلفة من طغيان وفقر وفتور . والثانى ، التيار العلمانى العلمى الذى بدأه شميل لولا أنه ظن العلم والعقل والحرية والدستور والمدنية والعمران والتقدم ضد الدين وليس لب الدين . والثالث ، التيار الليبرالى لتأسيس الدولة الحديثة والذى بدأه الطهطاوى حيث ظهر الدين دعامة الدولة الوطنية الحديثة بما فيها من زراعة وصناعة ، وبما تقوم عليه من حرية ودستور وتعليم ونهضة عمرانية شاملة .

وبعد أن تجمعت الدول الاوربية كلها لضرب مصر فى شخص محمد على حتى لا يقوم فى هذه المنطقة أى كيان سياسى واقتصادى مستقل عن الشرق والغرب على السواء وبزعامة مصر وحتى لاينهض الشرق من جديد فى مواجهة الغرب بعد أن تحدث للغرب فى تاريخه الحديث السيطرة على مقدرات العالم وثرواته ومركز قياداته فى الشرق ، وبعد أن عجز السلطان فى تركيا عن الدفاع عن الامة الاسلامية فى مواجهة الصليبية الا وهو احتلال الشرق من جديد والممثل فى مصر — بدأت مغامرات الغرب على مصر **منذ افتتاح** قناة السويس وارهاق مصر

بالديون فى عصر اسماعيل ثم فرض الرقابة المـالية ثم تدخل الاجانب وقناصل الدول ثم خلع اسماعيل وتنصيب ابنه توفيق تمهيدا لاحتلال مصر كلها سواء وفت ديونها أم لم توفها ، سواء حمت الاجانب أم لم تحمهم ، سواء أوقفت اصلاحات الطوابى فى الاسكندرية أم استمرت فيها • فالاسطول الاجنبى قائم بمهمته فى ضرب الاسكندرية واحتلال مصر مقرر فى كلتا الحالتين ، وسواء حشد ناصر جيش مصر دفاعا عن سوريا أو لم يحشد فهو فى كلتا الحالتين فريسة للعدوان فى ١٩٦٧ ، وسواء عكر الحمل على الذئب الماء أم لم يعكر فالذئب آكله لا محالة •

وفى هذه الفترة بعد انكسار مصر بعهد محمد على وبداية وقوع مصر تحت سيطرة الدول الكبرى فى عصر اسماعيل ثم فى عهد ابنـه توفيق بدأت مقـدمات الثورة العرابية • وظهر الـدين فى وظيفتيه الاساسيتين : دين الثورة ودين الخيانة ، دين الانبياء ودين الكهنة ، دين الشعوب ودين الحكام ، دين الوطنية ودين الاستعمار ، دين الفقراء ودين الاغنياء ، دين المقاومة ودين الاستسلام ، دين التحرر ودين الاستعباد • كان دين الثورة هو الدين فهمه عرابى وصحبه ، وزعمـاء الثورة العرابية السـبعة وبعض علماء الازهر ، وكان دين الخيانة هو دين السلطان والخديوى والانجليز وبعض مشايخ الازهر •

ولما أراد دين الخيانة تشويه دين الثورة اتهم عرابى وصحبه بالدروشة ، وانهم ناموا ليلة معركة التل الكبير بالذكر حتى الصباح ، فأصبح الجند متعبين ، فلم يسـتطيعوا مقاومة الانجليز أهل اليقظة والدراية ، وأصـحاب العـلم والمعرفة دون ذكر لخيانة على يوسف الشهير بخنفس واعطائه خطة جيش مصر الوطنى بخط يـد عرابى الى

جيوش الاحتلال • واذا صح أن عرابى قد استدعى عددا من رجال الطرق الصوفية أو أنهم هم الذين جاءوا اليه فأرسلهم الى الفرق يستحثونها ويستنهضونها على القتال حماسة لله وللدين والوطن أو أنه قرأ الادعية مع بعض رجال الدين فى خيمته فان ذلك لا يعنى أنه ترك الجهاد واعتمد على النصر من عند الله دون أن يعد العدة لذلك ويأخذ بالاسباب • فالدين يعطى الجند روحهم ويشحذ هممهم ويقوى روحهم المعنوية بالاغانى والاناشيد الوطنية والموسيقى العسكرية • وقد أقيمت للحملة الانجليزية أيضا الصلوات فى كنائس انجلترا وباركها كبير الاساقفة مع عدد من رجال الدين ولم يتهمها أحد بالدروشة أو الاتكال على الله • كما أتهم أنه خلط بين الدين والسياسة أو أنه عصى السلطان مولاه كما يعصى العبد سيده كما أفتى السلطان وقرر الخديوى بناء على طلب الانجليز •

ان مهمة هذا البحث هى دحض هذه الفرية التى تجعل من عرابى درويشا جاهلا بالدين عاصيا للخليفة خارجا على الشريعة ، وأن دروشته سبب هزيمته أمام جيوش الاحتلال ، وبيان أن الدين كان منبع الثورة ومنطلقها وأن الثورة غاية الدين وهدفه النهائى •

ثانيا : الدين بداية الثورة ومنطلقها :

كانت ثورة عرابى تنبع من الدين وتحكمها الشريعة • وكان الدين بداية الثورة ومنطلقها ، ومفجر شرارتها الاولى • ويظهر الدين كبذرة للثورة فى ثقافة عرابى وتربيته الدينية واستشهاده بالقرآن والحديث أو بالتاريخ الاسلامى وبمواطن البطولة والفداء فيه • كما يظهر فى التزامه بالولاء للخلافة الاسلامية ولوحدة الامة الاسلامية بالرغم من

عيوبها ودفاعه عن الجامعة الاسلامية • كما يظهر أخيرا فى دور مشايخ الازهر فى الثورة سواء من ثار على الطغيان والاحتلال مع عرابى باسم الدين أو من اعتدل وأخذ موقفا وسطا ثم تراجع باسم الاصلاح أو من خان واستسلم وأفتى بالعصيان باسم الانجليز •

١ — الثقافة والتربية الدينية :

يمتد نسب عرابى الى الحسين سيد الشهداء من خلال السيد صالح البلاسى (نسبة الى بلاس من بطائح العراق) حتى الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق ابن الامام محمد الباقر ابن الامام على الزاهر زين العابدين ابن الامام الحسين سبط رسول الله وابن الامام على كما يذكر عرابى فى مذكراته(١) • وكان عرابى يفخر بذلك قائلا ليعلم أنى عرابى شريف الارومة ، مصرى الوطن والنشأة والتربية، وهناك نشأتى ونسبى الشريف متصل بسيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم • وبالرغم من أنه لا انساب فى الاسلام الا أن النسب يعطى احساسا للثائر بأصل ثورته خاصة الذى ينتسب لآل البيت وما فيه من ذكرى للشهداء ونماذج البطولة والفداء التى جسدها الامام الحسين سيد الشهداء •

وكان أبوه شيخ قرية رزنة أو أحد مشايخها ، ويذكر عرابى أيضا

---

(١) مذكرات عرابى : كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية أحمد عرابى فى عامى ١٢٩٨ — ١٢٩٩ الهجريتين وفى ١٨٨١ — ١٨٨٢ الميلاديتين بقلم زعيم الثورة العرابية أحمد عرابى ، الجزء الاول ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٧ — ٨ ، ص ١٠ •

فى مذكراته أنه كان شيخا جليلا رئيسا لعشيرته ، عالما نقيا تقيا موصوفا بالعفة والامانة • رتب درسا فى الفقه فى المسجد للعامة بعد عصر كل يوم وبعد صلاة العشاء ليتفقه الناس فى الدين ولتصح عبادتهم •

تعلم عرابى القرآن الشريف وبعض العلوم الدينية فى المكتب الذى انشأه والده ثم فى الجامع الازهر ثم العلوم العسكرية فيما بعد • اختاره سعيد باشا ياورا له فى زيارته الى المدينة المنورة • ولما انتدب الى الحجاز لاشرافه على قلاع البحر الاحمر أنشأ مكتبا لتعليم الاطفال القراءة والكتابة والقرآن الكريم •

وكان متصفا بالايمان الشديد بالله وبتأييده للمؤمنين الصابرين • فبعد القبض على عرابى وزميليه اثر العريضة الموجهة الى رياض بمطالب الضباط الوطنيين انزعج على فهمى على نفسه وأولاده الصغار وكاد أن يرمى نفسه من النيل فشجعه عرابى متمثلا قول الشافعى :

ولـــرب نازلة يضيق بها الفتى

ذرعـــــا وعند الله منهـــا المخرج

ضـــــاقت فلمـــا استحكمت حلقـــاتها

فـــرجت وكـــان يظنـــا لا تفـــرج

كما تمثـــل بأبيـــات أخرى للسيدة زينب • وما هى الا لحظـــة حتى جاء العساكر والضباط من أنصار الحركة الوطنية وأفرجوا عنه •

وكان شديد التقـــوى والايمان • فبعد تأليف وزارة شريف أثر مظاهرة عابدين وطلب الوزارة من عرابى السفر الى رأس الوادى سار عرابى بطريق الحسينية حتى بلغ مسجد الحسين ووقف الآلاى مقابلا

للمسجد تعظيما واجـلالا لسبط الرســول • ودخل عرابى المقام مع الضباط وأمر بوضع بيرق الآلاى على الضريح الشريف • كما أنه فى خضم المعركة مع الانجليز كان يبغى تأمين الحجاج الى الحجاز عبر السويس والحفاظ على المحمل الشريف وكسوة الكعبة •

ونظرا لثقافته الدينية فقد كان عرابى يفسر الحوادث التى يمر بها تفسيرا دينيــا ويحكم عليها بمنظور العقيدة والشريعة • فــكان يرى أن كل شر حل بمن آذوه من الشراكسة مثل خسرو باشا وعثمان رفقى ، انتقام من الله ، ولكنه كان يرفض القتل غيلة والقصــاص دون حكم شرعى • ولقد نهر عرابى وهو ناظر للجهادية عبد الله فكرى عندما سأل عن قتل الخديوى قائلا له أننا لا نقتل أحدا بغير حكم شرعى • وفى رسالة بلغت الى جلادستون تصويرا لآراء عرابى على أنها ليست تكرارا للعبادات المتداولة فى أوربا الحديثة ولكنها تقوم على أساس معرفة بالتاريخ والتقاليد الحرة للفــكر العربى ، تلك التقــايد الموروثة عن الاسلام •

وكان فى حياته الخاصة حتى فى أحلك لحظــاته فى ســجنه وفى منفاه وبعد عودته متمسكا بايمانه وبصلاته • لم يجدوا فى السجن معه الا تميمة لحفظ أبنائه من الصرع • وكانت مسبحته لا تفارقه • يدعو الله لزملائه أن يلهمهم الشجاعة • يرفع يديه لله شاكرا ومصليا له • وكان أول ما فعله عرابى بعد ســماع الحكم عليه بالنفى وعودته الى سجنه أن صله لله شاكرا وأطال سجوده • ولما علم أن مكان نفيه جزيرة سرنديب فرح واستبشر • وقد حدث عرابى بلنت عما يذكره التاريخ القديم من قصة هبوط آدم وكيف أنه حل بهذه الجزيرة فصارت تعرف

جنة آدم • كما ذهبت حواء الى الحجاز فصارت تعرف بجنة حواء •
وكان يقول « انى أخرج من مصر بستان الدنيا لاذهب الى سرنديب •
جنة آدم » • ولما توفى عبد العال حلمى رأى عرابى من كراماته اجتماع
سراب الطير فوق نعشه تسير بسير الجنازة حتى ووري التراب !

وفى سرنديب ، عاش بين المسلمين العرب أو الهنود وكان محط
أنظارهم • يزور أضرحتهم مثل ضريح السيد شهاب الدين ، ويؤم
مساجدهم ، وهم يحتفون به باستيراد الطرابيش ، وبطلق مدفع بجوار
المسجد عندما يصلى فيه يوم الجمعة من كل أسبوع • يفتتح مدارسهم
كما افتتح مدرسة ميردانة الاسلامية التى بناها المسلمون على
نفقتهم •

وبعد عودته من المنفى ، شكر الله ، وسارت المركب « باسم الله
مجريها ومرساها » وقبل أرض الكنانة ، كنانة الله العزيز الحكيم ،
وصلى والهج بأنواع الدعاء الى الله سبحانه وشكر له عودته سالما
بعد مرور تسعة عشر عاما مكرها ذاق فيها الفراق وألم الغربة •
وكان يصلى الجمعة فى جامع الرماح بالناصرية أو بالسيدة زينب أو
بالحسين وهو بلحيته البيضاء يشع من وجهه علامات الايمان والورع
والمسبحة لا تفارقه • وكان يرى مصادرة أملاكه وأمواله لا تتفق مع
العدالة ولا مع حكم الشرع ويكرر حديث « مال المسلم على المسلم
حرام » • كان يتلو القرآن فى أواخر أيامه ، ويحرص على أن يؤدى أبناؤه
الصلوات فى أوقاتها • وكان يؤمهم ، ويحرم على الذكور منهم التحلى
بالذهب ، ويحفظهم القرآن ، ويحبذ لهم الاحتشام والجد • غضب
لان أحد أبنائه حلق لحيته ولم يرض عنه حتى أطلقها • وقد قرأ عليه

أحد أبنائه « نهج البلاغة » وهو غلام . وقد صدر مذكراته كما يفعل أئمة الاعلام ومشايخ الاسلام بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله قائلا « الحمد لله الناشر فى الخلق فضله ، الباسط فيهم بالجود يده ، نحمده فى جميع أموره ، ونستعين به على رعاية حقوقه ونشهد أن لا اله غيره ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بأمره صادعا ، وبذكره ناطقا ، فأدى أمينا ، ومضى رشيدا ، وخلف فينا راية الحق ، من تقدمها مرق ، ومن تخلف عنها زهق ، من لزمها لحق . أحمده تعالى الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه ، ومعاذا من بلائه ، وسبيلا الى جنانه ، وسببا لزيادة احسانه ، والصلاة على رسوله نبى الرحمة ، وسراج الامة ، وامام الائمة ، المنتخب من طينة الكرم ، وسلالة المجد الاقدم ، وعلى آل بيته مصابيح الظلم ، وعصم الامم ، ومنائر الدين الواضحة ، مثاقيل الفضل الراجحة ، صلاة تكون داء لفضلهم ، ومكافأة لعملهم ، وجزاء لطيب فرعهم وأصلهم ما أنار فجر وهدى نجم » .

٢ — الخلافة الاسلامية أو الجامعة الاسلامية :

وصفت الدول الاوربية الدول العثمانية بأنها الرجل المريض الذى لا يأس من شفائه حتى يموت وتقطع أوصاله فتستولى كل دولة أوربية على جزء من الغنيمة . وقد تم ذلك والرجل المريض مازال حيا يرزق . فاقتطعت تونس والجزائر والمغرب والهند وآن الاوان لانقطاع مصر والشام والحجاز . وكانت آسيا الشرقية قد تم اقتطاعها من قبل على يد هولندا والبرتغال منذ سقوط غرناطة ١٤٩٢ . ولقد تبعنا نحن هذا الوصف للدولة العثمانية ولم نحاول اعادة كتابة تاريخها من منظور اسلامى ووطنى . فقد كانت الدولة العثمانية بالرغم من كل عيوبها

رمزا للوحدة الاسلامية ، تقف فى مواجهة مطامع الدول الاوربية رمزا للتحدى واثباتا للهوية الاسلايمة ضد التغريب والتميع فى الآخر • تتعلق بها قلوب المسلمين فى مصر والهند ، وتحافظ على فلسطين ضد بدايات الغزو الصهيونى •

وقد حاول عرابى مالم ننتبه اليه حتى الان أن يقوم بثورة وطنية فى مصر وفى نفس الوقت المحافظة على الوحدة الاسلامية سواء سميت الخلافة الاسلامية أو الجامعة الاسلامية أو الجامعة الشرقية وهى الاسماء الجديدة التى ورثتها مصر تحت تعاليم السيد جمال الدين الافغانى •

رفض عرابى كل من خرجوا على « الدولة العلية » مثل خسرو باشا وحتى ابراهيم باشا فى تلك الفتنة الدهماء التى دكدكت سياج الاسلام وكسرت شوكة الدولة العلية الحامية لجميع الموحدين • صحيح أن عرابى يذكر نفسه عربيا وأنه من أبناء العرب والامة العربية ولكنه يصف ذلك كواقع ونشأة وليس كمبدأ وعقيدة • يرى عرابى أن الدولة العلية خير ملاذ للدفاع عن المسلمين ضد أطماع الدول الاوربية • لقد أوجس خيفة على مصائر البلاد ومطامع انجلترا لالتهام وادى النيل كما فعلت فرنسا بتونس بدعوى التوازن الذى تدعيه مع أوربا • فعرض مخاوفه على أمير المؤمنين ليحيط علما بما كان جاريا فى مصر • وبعد مذكرة فرنسا وانجلترا بحجة حماية السلطان والخديوى ضد الحركة الوطنية رأى عرابى الاتجاه الى السلطان والتمسك بمبدأ الجامعة الاسلامية حماية للامة • ويقول بلنت أن الناس كلهم قد اتجهوا الى السلطان كمنقذ لهم، وأصبحوا ينظرون الى عرابى على أنه عضد السلطان

فى مصر والحصن الحصين الذى تمتحن فيه الامال بعد أن يأسوا كل اليأس من توفيق . ولم يكن هذا الاعتماد مجرد خطة سياسية بل كان عقيدة للحركة الوطنية فى مصر منذ عرابى حتى مصطفى كامل وحزب مصر الفتاة . يقول بلنت أن عرابى كان يعتمد على السلطان . فقد وجد المصريون أنفسهم لاول مرة مترابطين . وقد ألتى الشيخ محمد عبده ومن معه فى زمرة الحزب الوطنى االذى سبقهم بخطوات . وشعر الناس جميعا حتى الشراكسة بالاشمئزاز من التدخل الاجنبى . وأن أشـــد الناس نفوذا مثل الشيخ الهجرسى كانوا يرون عرابى على حق فى اعتماده على السلطان . ولهذا كسب عرابى كسبا عظيما . ودار الكلام دائما عن الجامعة الاسلامية . وكان عرابى يرى أن الدفاع عن المصريين هــو فى نفســـه دفاع عن السلطان ضـــد أطماع الدول الاجنبية . وبالتالى فان وحدة المسلمين خير ضمان لوقوفهم أمام عـــدوى المشترك . لذلك كان عرابى يظهر الطاعة والولاء باستمرار لامير المؤمنين حامى حمى الديار . وكانت بينهما المراسلات من خلال المشايخ ذوى الحظوة عنـــد السلطان . وكان دائم التكرار على أنه لم يشق عصا الطاعة كما يدعى الاوربيون بل طالب بالاصلاح باسم الذات الشاهانية حتى يعلم الجميع أن البلاد سلطانا شرعيا هو صـــاحب السيادة العظمى على البـــلاد المصرية وأن الخديوى هو نائبه فقط بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكما شرعيا غير الخديوى . وكان جنود عرابى يهتفون فى رأس الوادى يعيش السلطان . فقـــد كان عرابى يعتبره رئيسا دينيا شرعيـــا له وللامـــة المصرية . وكان السلطان يعتبره هو المدافع عن مصر فى مواجهة الدول المسيحية . وكان عرابى فى دفاعه عن البلاد منفذا لاوامر الخليفة أمام دينـــه . ولقـــد تحدث طلبـــه بك أمام الوفـــد العثمانى باسم عرابى

مؤكدا على هذا المعنى وبأنهم « معترفون بسيادة مولانا السلطان الاعظم خاضعون لاميرنا الخديوى • وكما أن الدولة العليــة ترى مصر قلب الدولة وكذلك نرى الدولة محل سطوتنا ومركز آمالنا ودار الخــلافة الاسلامية • واننا نرجو أن تجتمع كلمة المسلمين فى ســائر الاقطــار وتتحد قلوب المؤمنين لتكون يدا واحدة فى وقاية دولتنا من جميع النوازل أعاذها الله منها • ولاشك فى أن أخواننا المسلمين يجدون فى بث الاتحاد بينهــم وجمع الكلمة عــلى تأييد ملكنا وسلطاننا المعظم خــلد الله سلطانه » (٢) •

ولقــد حاول اعداء الحركة الوطنية الايقاع بين السلطان وعرابى فأرسال طلعت باشا الشركسى الى القسطنطينية ليقول أن مصر فى حالة ثورة ، وأن هناك اقتراحا لانشاء امبراطــورية عربية ، وان أحمــد عرابى والحكومة البريطانية قد اتفقــا بينهما على هذا الامر • فأتصل عرابى بالعالم الورع الشيخ محمد ظافر كاتم سر السلطان ومشيره الدينى واخبره بحقيقة الامر • فاقتنع السلطان وطالبه بالمدفاع عن البلاد بــكل ثمن ضد الاحتلال والا كان نصيب مصر نصيب تونس ، وأنه لا يعنيه من يكون حاكم مصر اسماعيل أو حليم أو توفيق • وكتب محمد ظــافر « حيث أن حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا فيجب على كل مصرى السعى بمزيد من الاهتمام وراء تثبت سلطتنا لمنع خــروج مصر ووقوعها فى قبضة الاجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس فى أيدى الفرنساويين ، فنحن نضع ثقتنا فيكم يا ولدى لاستعمال قوتكــم وعمل كل ما فى الامكان لمنع حدوث شىء مثل ذلك • فكن على حذر دائما ،

---

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ •

ولا تغض النظر طرفة عين عن هذه النقطة المهمة ، ولا تتركوا أيـة طريقة أو وسيلة من وسائل الاحتياطات والطـرق المتميزة فى عصرنا هذا ، واضعا نصب عينيكم دائما الغرض الذى ترمى اليه الا وهـو الدفاع عن ملتكم وبلادكم » (٣) •

ومع ذلك ، حافظ عرابى على حرية الحركة على أرض مصر وعلى استقلال البلاد فى اطار الوحدة الاسلامية • لقـد أسـاء الاتراك حكم مصر واضطهدوا أنصار الحركة الدستورية والمنادين بالحرية فى بلادهم • لذلك لايجب على القسطنطينية أن تتدخل فى شئون مصر • هناك فرق بين الحكومة العثمانية وبين السـلطة الدينية للسـلطان • فهو كأمير المؤمنين تجب لـه الطاعة والاجلال اذا عدل • يقول عرابى :

« نحن جميعا أبنـاء السلطان ونعيش معا كما تعيش أسرة فى بيت • ولكن كما هو الحال فى الاسرة لكل منا نحن أهالى الاقطـار الاسلامية حجرة مستقلة يترك لنـا أمـر تنظيمها حسب اردتنا حتى لايسمح للسلطان نفسه بالتدخل فى ذلك • ولقد اكتسبت مصر هـذا الوضع بمقتضى ما منحته الفرمانات ، وسنحرص على أن نحتفظ به • ونحن اذا طالبنا بأكثر من ذلك فانا نركب متن الشطط وربمـا فقدنا حريتنا فقدانا تاما » (٤) •

---

(٣) محمود الخفيف : أحمـد عرابى ، الزعيم المفترى عليه ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة سنة ١٩٨١ ص ٢٢٨ •

(٤) المصدر السابق ص ١٠٤ •

٣ ـ دين الثـــورة والمقـــاومة :

كان الدين عند عرابى ثورة ضـــد الظلم ومقاومة للاجنبى وجهـــادا ضد اعداء الامة ، اعداء الحرية والاستقلال فى الداخل والخارج • وكان يمثل ذلك الفهم الثورى للدين مع عرابى خطيب الثورة السيد عبد الله النديم ، والشيخ عليش ، والشيخ حسن العدوى وغيرهم من علمـــاء الازهر الشرفاء • وكانوا كلهم تحت أثر أفكار السيد جمال الدين الافغانى •

ففى كتاب عرابى لجلادستون يقول « نحن الجند الان فى وضع كالذى كان فيه أولئك العرب الذين أجابوا الخليفة عمر حين سألهم فى شيخوخته عما اذا كانوا راضين عن حكمه ، وعما اذا كـــان فيـــه قد استقام على طريق العدالة • قالوا يا ابن الخطاب : أنك استقمت على الطريق حقـــا ولهذا احببناك ولكنك لســـت تعلم اننا كنا قريبين منك ، وكنا على أهبة لو أنك سلكت سبيلا معوجـــة لنردك الى الطـــريق السوى بسيوفنا » • كان الدين لديه هو المعارضة عن طريق الامـــر بالمعروف والنهى عن المنـــكر أسوة بالصحابة • لقـــد قامت الحكومات الاسلامية على المبادىء وليس على الاشخاص ك، فيقول الخليفة الاول :

« يأيها الناس ، أنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى » • ويقول لهم الخليفة الثانى « من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه » • فيرد عليه أعرابى « لو رأينا فيـــك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » ، فيقول الرسول « ان النـــاس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » لذلك كان الدين عند عرابى ثورة على الظلم • وعلى هذا الاساس فهم

ثورة المهدى فى السودان عندما سئل عنه وهو فى المنفى هل هو المنتظر عند المسلمين فأجاب بأن كل داع الى الخير والصلاح هو مهدى • لقد خشت انجلترا من ثورة المهدى على ستين مليونا من المسلمين فى الهند أن تجمع شتاتهم • ويرى عرابى أن مجرد وجود قائد انجليزى على جيش يكون من صالح المهدى فانه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيادة مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة • واذا استولى على اسلحة هذا الجيش وذخيرته فانه يصبح قويا يخشى جانبه • لقد اقترحت انجلترا تعيين عرابى أميرا على السودان تابعا للتاج المصرى للسيطرة على ثورة المهدى ولكن هلكت حملة هس مما عطل الاقتراح • كما اقترحت أيضا تعيين عرابى سفيرا مؤقتا الى المهدى لرفع الحصار عن غوردون على أن يعزل توفيق ويعين أمير غيره يستطيع الاتفاق مع المهدى ، وأن النية متجهة الى اعادة اسماعيل بشرط أن يكون عرابى رئيس وزرائه باعتباره زعيم مصر المختار • ولكن عرابى رفض العرض ، وآثر الاستمرار فى المنفى ، ورفض العودة الى الحكم تحت رياسة اسماعيل الذى لا تتفق أراؤه مع آراء الحركة الوطنية • ثم وئد الاقتراح بعد مقتل غوردن بالخرطوم •

وقد سار بعض مشايخ الازهر فى طريق الثورة • وكان فى مقدمتهم الشيخ عليش والشيخ حسن العدوى • فقد أفتى الشيخ عليش بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما للمسلمين بعد أن باع مصر للاجانب باتباع ما يشير به عليه القنصلان • ولذلك وجب عزله • وان مصر تؤيد عرابى • كما أفتى الشيخ حسن العدوى بشرعية عصيان الخديوى • فقال أنه بأمر الله ورسوله لن تطاع أوامر الخديوى • وان الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة • وقد أيده الشيخ عليش أيضا • ويقول

عرابى أنه فى الاجتماع المشهود الذى تم فى وزارة الداخليـة أثر توجيه الانذار الانجليزى والذى حضره ممثلو الامة جميعـا أنه تلتى فى هذا الاجتماع فتوى شرعية من المشايخ حسن العدوى ومحمد عليش ومحمد أبو العلا الخلفاوى مؤداها أن الخديوى بانحيازه الى العدو المحارب الى بلاده يعد مارقا عن الدين وبعدم الاعتراف بعزل الخديوى لعرابى • وهذه الفتوى بمثابة خلع توفيق من منصبه • لذلك أصدر عرابى بعدها قـرارا حربيا بعـدم طاعة الخديوى أو تنفيذ أوامره « حيث أن الخـديوى خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون الحنيف » • وبالتالى تم اعلان الحرب المقدسة ضد الانجليز بنـاء على فتوى مشايخ الثورة • صمم عرابى على المقاومة وفقا لقانون الله وقانون الانسان اذ يقول « أنـه عتد هو نفسه العزم فى مجلس موقر على مقاومتها ، وأن قـانون الانسان وأن كلمة الله لينهيان عن هذه الاعمـال الهادمة للشرف ، ولا يمكن أن يكون مثل هذا الرجل مسلما ولا أن يحكم فريقـا من المسلمين » • رفض عرابى التسليم قائلا « والله لا نسلم البلاد لاحـد وفيها ذو روح يتنفس ، والله يؤيد بنصره من يشاء » • كما صمم عرابى على المقاومة الى آخر رمق من حياته » • اننا اذا متنا جميعا فسوف يدخلون بلدا خربة ، وسيكون لنا مجد الاستشهاد فى سبيل وطننا • وقد وجدت فى أوراق عرابى فتوى موقعا عليها من كبار العلماء مؤداها أن الخديوى بقبول اللائحة (٥) قد انحرف عن الشرع أو صورة سؤال استفتاء من العلماء عن جواز عزل الخديوى • وقد أورد فيها العلماء

---

(٥) سقوط وزارة البارودى ، وابعاد عرابى الى أوروبا وعلى فهمى وعبد العال حملى الى داخل البلاد المصرية . وقد رفضها مجلس النواب .

آية « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أوليــاء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولى منكم فانه منهم » • لذلك لم يأبه عرابى بقرار العصيان الذى استصدره الانجليز من السلطان قائلا « لقد اجمعت الامة كلها على ضرورة وقف توفيق باشا لخروجه على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وطلبت الاستمرار فى أعمال الدفاع عن الوطن بقرار رفع الى جلالة السلطان • أبعد هذا نكون عصاة ؟ أننا كنا ندافع عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والانسان • وكل من يقول غير هذا كائنا من كان فهو عبد الهوى والمال • وأضيف الى ذلك أن علماء الاسلام والمسلمين فى كل بلاد العالم يسلمون أنا لم نتعد حدود ماأنزله الله فى كتابه • وهم يستنكرون مانلقى من سوء المعاملة لانه يتنافى مع العدل » • ولقد أرسل عرابى برقية الى توفيق بعد مذبحة الاسكندرية ينتهى منها بقوله « فلهذه الاسباب يا مولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الانجليز بوجه الحق والشرع ••• والامر لمن له الامر ••• ان الذين يخونون وطنهم لا يكون جزاؤهم العقــاب وفق قوانين الحــرب فحسب بل سيلعنون فى الآخرة » • ويقول عرابى فى مذكرته الى محاميه برودلى « وكما أن الخديوى توجه الى الاسكندرية بعد خروج الاهالى والعساكر منها تحت الحرس الانجليزى فاما أن يكون أسيرا وأما أن يكون انحاز الى الجيش المحارب لبلاده • وفى كلتا الحالتين لا يجوز ترك البلاد بلا حاكم حسب أحكام الشرع الشريف الاسلامى • اذ أن فى الحالة الاولى وهى الاسر لا يجوز أن يكون أسيرا وحاكما ينظر فى مصالح البلاد كما أنه لا يجوز ترك البلاد فوضى بلا حاكم ينظر فى مصالح أهلها • وفى الحالة الثانية وهى الانحياز فكتاب الله يحكم عليه بخروجه عن جماعة المسلمين وبذلك

لا يصح أن يكون حاكما عليهم » • (٦) ويقول فى نهاية المذكرة « ان هذا الشخص لا تجيز له شريعة قومه أن يكون أميرا عليهم أبدا » •

ولم يستسلم عرابى كما يروج المغرضون أنصار الخديوى والانجليز كما لم يضعف مشايخ الثورة ، ويدافع عرابى عن مهمة الاستسلام بقوله « واذا تقطعت جميع الاسباب فكيف أسلم نفسى ؟ ألم تكن أرض الله واسعة فأهاجر فيها ؟ أو لم أكن أتوجه الى لندرة فأحتمى فيها ؟ أن فى ذلك تذكرة لمن يتذكر • فالحق والحق أقول أنى لست بعاص وانما قمت وقامت البلاد أى الامة المصرية فى طلب تحرير بلادها مع غاية الشرف وحفظ الناموس لا لغاية شخصية كما يفترى المبطلون بل أنى مكاف بحفظ البلاد من طرف الحضرة السلطانية حيث تبين عظمة اخلاصى وسوء مقاصد الخديوى ••• ثم أنى صرت قائد الجيش فى المدافعـــة عن البلاد بوجه الشرع والقانون وأمر الخديوى والمجلس أولا وقرار الامة ثانيا وليس بعد ذلك دليل ولا برهان » •

كما تثبت الشيخ حسن العـــدوى وقد شـــارف على الثمانين فى المحاكمة عندما سأله رئيسها اسماعيل أيوب الم يوقع بخاتمة على قرار يقضى بأن سمو الخديوى توفيق باشا يستحق العزل ؟ استعاد الشيخ حمية الشباب واتكا على المنضدة وبسط يده ونظر فى وجهه وقـــال « لم

---

(٦) مذكرة عرابى الى محاميه بعنوان « هـــذا تقريرى عن الحوادث التى حصلت فى مصر » من تاريخ يناير ١٨٨١ لغاية شـــهر اكتوبر ١٨٨٣ مقدم من طرف الى وكيلى الشرعى المستر برودلى ليدافع عنى أمام المحكمة المصرية (مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلنـــدن برقم ١٤١٣٩٤) •

أو الورثة ولكنك اذا أحضرت الى ورقة تحتوى على مثل هذا المعنى فانى أبادر بالتوقيع عليها وختمها بخاتمى فى حضورك الآن • اذا كنتم مسلمين تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا قد خان بلاده وذهب الى الانجليز لم يعد يصلح لان يحكمنا » •

وقد راع دوريش باشا مندوب السلطان دور المشايخ فى الثورة ، وأظهر دهشته ونفوره مما رأى من تحمس الناس وجرأتهم وبخاصة علماء الازهر الذين أظهروا عطفهم الشديد على عرابى ومبادئه • وقد ذهب وفد كبير من العلماء الى درويش يحملون مكتوبا موقعا عليه منهم ومن عدد عظيم من الناس يطالبون فيه رفض الانذار الاجنبى وبخاصة ما جاء فيه عن أبعاد عرابى • واغلظ درويش فى مخاطبة الشيخ الذى تكلم باسم العلماء وهو الشيخ محمد خضير • وحسب درويش أنه بذلك أخاف العلماء • فقد اجتمع طلاب الازهر فى اليوم التالى بسبب ما علموا من اهانة علمائهم ، وتعددت الاجتماعات فى جهات من المدينة ، وبدأ الناس يظهرون حنقهم وسخطهم على الوفد التركى وبخاصة أن عددا من الاعيان أرسلوا اليه يحتجون على مسلكه نحو رجال الدين •

وأثناء المعركة انكب العلماء يقرأون البخارى فى الازهر والحسين ، ويدعون بالنصر لعساكر عرابى والهزيمة للانجليز • وكان أمام الخديوى الشيخ الصالح العالم الابيارى فى طليعة الملتهبين غيرة ووطنية فنشر قصيدة ابراهيم دريد فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى المعتصم وهى عبارة عن دعاء وابتهال ، وقد أضاف اليها أبياتا من نظمه • فكان من الناس من يقرؤها ويتلوهما بعد قراءة البخارى • وطلب من محمد عبده نشرهما فى الجريدة الرسمية حتى يطلع

عليها الجيش إذ من المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب المسلمين ضد الكفار (٧) • وقد ألقيت الخطب الحماسية والاشعار الوطنية من مشايخ الثورة مثل الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الازهر ، والشيخ على المليجى ، والشيخ محمود ابراهيم خطيب أسيوط ، والشيخ محمد أبو الفضل خطيب المسجد الحنفى ، والشيخ حميده الدمنهورى ، والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر ، والشيخ محمد فتح الله ، والشيخ أحمد سيف البارى • فمن قصيدة الشيخ أحمد عبد الغنى فى مطلعها •

لعمـرك ليس ذا وقت التصـابى
ولا وقت السـماع على الشـراب

ولكن ذا زمـان الجـد وافى
وذا وقت الفتـوة والشـباب

ووقت فيـه الاسـتعداد فرض
لتنفيـذ الاوامـر من عـرابى

وقال الشيخ على المليجى فى خطبة له « قد مـرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم وما ذاك الا لعـدم الحميـة الاسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم اذ كانوا منهمكين فى ميادين حظهم الدنيوى وعن الدين غافلين • وقد ظهرت الآن البشائر بعز المسلمين وسطوتهم حيث قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالاخذ فى أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم باذلين الهمة فى التوصل الى ما يبعد الامة عن التشويش ولما يكونون به آمنين اذ قد شرع رئيس

---

(٧) الامام محمد عبده : الكتابات السياسية ، حققها وقدم لها د. محمد عمارة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص ٤٦١ .

المجاهدين أحمد عرابى المؤيد بنصر من عند ربه فى الموافقة عن حوزة الامة ورد من كانوا فى تشويشها أول سبب وباع نفسه وجيشه للجهاد فى سبيل الله » • وقال الشيخ محمود ابراهيم فى خطبة له بأسيوط « أما بعد ، فان الانجليز قد طاشت عقولهم وعميت بصائرهم فلم يحسنوا الضروريات • قاموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها ، وساقوا الينا من زيف المعارضات خسيسها ، وقابلوا تحيتنا بخداع ، وفتشوا اكنافنا لغدر اضمروه ليوم النزاع ، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان وفينا لهم بعقد الذمة والامان فعاملناهم بالحسنى وجبرنا ما كان فيهم ضعفا ووهنا فلما صحت أبدانهم وعمرت أوطانهم فلم يقنعوا بذلك بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك ، فسأل الله أن يكون بسعادة أحمد عرابى باشا هو المشار اليه فى حديث « يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة أمر دينها » • فان البشائر دلت عليه ليمزق البغاة كل ممزق ، ويحيى المندوب والمفروض للدين الموفق ، وتموت البدع التى أسود القطر بظلماتها ، ويختفى بلاء الظالم بأرجائها، وحاش أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافرين ، جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا وجنده الظافرين » • وفى خطبة الشيخ محمد أبى الفضل التى القاها فى الجامع الحنفى بالقاهرة « قد تميز الغث من السمين ، واستبان أن الانجليز جاءوا محاربين يريدون — لا أمكنهم الله — سلب الاموال وهتك الحرم ، وقد جاءوا بمكر وخداع يصطادون بشباكهم الاوطان من غير قتال أو دفاع كما هو ديدنهم القبيح فى كل أقليم • فيتنبه لذلك العقلاء والشجعان ، وذبوا عن الاعراض والاوطان » • وفى خطبة الشيخ حميدة الدمنهورى « أعدوا لاعدائكم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ماترهبون به عدو الله وعدوكم ، وكونوا لدين الله من المنتصرين تفوزوا برضى المولى اللطيف الخبير • وقوموا

لمحاربة أعداء الله وأعدائكم الطغاة البغاة ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير . الجهاد فرض الآن علينا واجب لدخول الاعداء فى بلادنا محاربين . فمن أتى بواجب الجهاد أحرز فضله ، ومن تطوع خيرا فهو خير له . فالسعيد من سارع الى اغتنام الاجر من الله العلى الكبير » . ومن خطبة أخرى للشيخ محمد أبو الفضل ومصرنا هذه قد كادت أن تكون دار حرب لا دار سلام ، فقد أهين فيها الوطنى وعظم اللئام حتى صاروا رؤساء الدواوين فطغوا وبغوا وحق عليهم المثل السائر : وعلى الباغى تدور الدوائر . فحكموا بالبنود والقوانين . فعظم البلاء واشتد وزاد الكرب واحتد ، وكان ماعلمتم من الحركات ، وكم لله فى الحركات من بركات . وقد نظم الشيخ أحمد سيف البارى قصيدة جاء فيها :

اذا ما رأية رفعت لمجد　　　تلقاها عرابينا يمينا

ونظم الشيخ السيد المرصفى قصيدة أخرى جاء فيها فى مطلعها .

ياصاح قم واشكر الهك واحمد　　　فالدين منصور على يد أحمد

وقال بعضهم معرضا بواسلى وسيمور قائد الحملة الانجليزية على الاسكندرية فى بيت السموءل .

وأنا لقوم لانرى القتال سبة　　　اذا مارآه واسلى وسيمور (٨)

وقد شارك المفكرون والخطباء علماء الامة وشيوخها وعلى رأس

---

(٨) مذكرات عرابى : كشف الستار عن سر الاسرار ص ٢٠٣ — ٢٠٥ .

هؤلاء خطيب الثورة العرابية السيد عبد الله النديم (٩) . فقد سافر الى الاسكندرية قبل وصول الوفد التركى وخطب الناس خطبة كان لها عظيم الاثر فى اذكاء الروح الوطنية واثارة شعور الوطنيين على المذكرة المشتركة والسفن الاجنبية . كان يستنهض الهمم بأحاديثه وخطبه مستشهدا بالقرآن والحديث وتاريخ المسلمين بين فرق الجيش حيث سافر من كفر الدوار الى التل الكبير لاستقبال عرابى هناك .

وقد شارك الناس مشايخ الثورة وخطباءها وشعراءها . أصبح على لسان كل مصرى نداء « الله ينصرك يا عرابى » والتى أخذها برودلى شعارا للثورة العرابية . وكانوا ينهضون اذا ما مر عرابى أمامهم ووقفوا على جانبى الطريق مرددين هذا الشعار مضيفين اليه عدة ألقاب مثل رئيس الحزب الوطنى ، قائد الجيش الوطنى ، حامى حمى الديار المصرية .. الخ . لم تحفل الامة بعزل الخديوى لعرابى بل زادها تمسكا به . وكان الناس والفلاحون والبدو وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمدح عرابى . وفى أى احتجاج ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لعرابى جامعين التبرعات للاخوة المجاهدين اذا لم تكلف مقاومة الانجليز الخزانة العامة مليما واحدا بل كانت التكاليف كلها من تبرعات الاهالى والامراء الوطنيين . حتى أرملة سعيد أهدت عرابى خيمة زوجها مشفوعة بأصدق أمانيها أن يؤيده الله بنصره .

وكان النساء والصبية على خط السكة الحديدى يرددون

---

(٩) لم نشأ ذكر أقواله لانه موضوع دراسة خاصة مستقلة عن « الدين والثورة عند عبد الله النديم » .

أغنية أولها : ياامولانا ياعزيز ، اهلك عساكر الانجليز ثم يهتف أحد الشباب : الله ينصرك فتردد الجموع : ياعرابى •

وحتى اللحظة الاخيرة صمد مشايخ الثورة وقادتها • ويتضح ذلك فى سؤال أحمد طلعت مدير المطبوعات فى المحاكمات عن نشر جريدة الطائف التى يحررها النديم مقالات فى الطعن على الخديوى واجابته بأن ذلك كان تعبيرا عن القلق العام من مسلك الخديوى وانها عبرت عما يقوله الصبية فى الشوارع • وفى سؤاله اذا كان يقرر ما فى الصحيفة أجاب بأنه قد تقرر فى المجلس العام الذى انعقد بوزارة الداخلية والذى شهده العلماء والقواد والاعيان ان الخديوى خرج على الشرع المقدس • ولما كان أحمد طلعت مصريا فانه لم يكن فى وسعه الخروج على اجماع الناس ومعاقبة جريدة الطائف مخالفا ما فى نفسه من اعتقاد واجماع •

ولم يفت فى عضد مشايخ الثورة وعلمائها ما أصابهم من نفى وتشريد • فقد قضى بتجريد عدد من العلماء من رتبهم وشارات شرفهم وامتيازاتهم ومنهم الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ ابراهيم العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى ، والشيخ أحمد عبد الغنى • ومع ذلك ظلوا على اتصال بعرابى فكانوا يرسلون اليه الكتب فى المنفى • ولما انتهت مدة نفى الشيخ محمد خليل الهجرسى وهى خمس سنوات الى الحجاز وعرضت عليه الحكومة العودة الى وطنه رفض حتى يعود عرابى وحتى يموت توفيق أو ينزل من عرشه • وكان اذا سمع عن أحد من رجال الثورة الباقين انحرافا عن مبادئها كتب الى عرابى ليسقطه من حسابه مثل أمين الشمسى الذى كتب فيه الشيخ الهجرسى « أنه أسيف على ضياع بعض أمواله وتغير بعض أحواله بسبب هذه المسألة

ولا أسف له على الهم الاكبر من ضياع القطر وما حصل بأعظم رجـال الدين فى هذا الامر لان أمثاله فى خدمة الدنيا فقط • أسأل الله الكريم بجاه هذا النبى العظيم أن يردكم الرد الجميل مع الحظ والنصر والسعد الجزيل » • وظل الشيخ الهجرسى يزور عرابى بعد عودته من المنفـى مع شاعر النيل حافظ ابراهيم •

٤ ــ دين الاعتـدال والتراجع :

وشارك فى الثورة العرابية أولا بعض مشايخ الازهر نظراً لما رأوه فى عرابى من اعتدال أولا وحرص على مصالح الامة • وكـان عرابى فى ذلك الوقت فى تصورهم ذا منهج اصلاحى مثل رياض باشا ودستوريا مثل شريف باشا حتى لقـد اكتسب عرابى ثناء القناصل عليه لاعتداله . ولكن ما أن أصر مجلس النواب على مناقشة الميزانية تثبيتا لسلطته ولحق الامة فالتنازل بداية لتنازلات أخرى حتى بدأ مشايخ الاعتدال فى التراجع •

وكان أكبر ممثل لدين الاعتدال والتراجع هو الشيخ محمد عبده بعد أن انضم الى الثورة العرابية ثم تراجع عنها • فكان له الاثر فى تخفيف لهجة الصحف بعد وزارة شريف وتراجع الوطنيين عن لائحة مجلس النواب (خلاف لائحة ١٨٦٦) وعـدم النظر فى الميزانية • ونشط فى معاونة شريف قائلا « لقد ظللنا ننتظر حريتنا مئات السنين أفيصعب علينا أن ننتظر بضعة أشهر أخرى » •

وقد أعلن شريف مبدأ حكومته القائم على الاعتراف بحقـوق السلطان والامتيازات التى حصلت عليها مصر ، والاعتراف بالخديوى حاكما دستوريا ، والتسليم بقاعدة المراقبة الثنائية ثم انكار كل اتجاه

ثورى ، ومنح الحرية الدينية والسياسية لجميع سكان البلاد ، والسير على قاعدة الحكومة المسئولة أمام مجلس نيابى .

وكان تأييده لوزارة رياض الاصلاحية من قبل نظرا لان رياض لم يكن يخالجه أدنى شك فى سكون المصريين الى الطاعة ! وبالرغم من أن الشيخ محمد عبده كان من تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى وكـــان داعيا للشورى وللحكم الدستورى الا أنه كان يرى أن مصر لم تتهيأ بعد لذاك . وكان يميل الى حكم رياض ويرأه المستبد العادل الذى ينهض به الشرق . ولم تكن الثورة من رأيه ، وكان قانعا بالحصول على الدستور فى ظروف خمس سنوات . فلم يوافق على عزل رياض . لذلك نقم على عرابى فيما بعد ، ونفر من العسكريين . وأن نشر التعليم أولا ليجعل الدستور يقوم على أساس سليم . وفى القصيدة التى نظمها فى السجن عن حادثة عزل رياض يقول الاستاذ الامام .

وانمـــا الفـــكر يغنى نفس صاحبه
عن الجيوش اذا صحت مبـــاديه

وبينمـــا انـــا لاه فى محـــــادثتـــى
مـــع المعـــالى أقول الامـــر مافيـــه

قامت عصـــابات جنـــد فى مدينتنـــا
لعـــزل خير رئيس كنت راجيـــه

ذاك الـــذى أنعش الآمـــال غـــيرته
وخلص القطـــر فارتاحت أهاليـــه

قامـــوا عليـــه لامـــر كـــان سـيدهم
يخفيه فى نفســـه واللـــه مبـــديه

كان الرئيس حليف العـدل منقبـة
وسـيد القوم يهـوى الجور يأتيه
جروا مدافعهـم ، صـفوا عسـاكرهم
نادوا بأجمعهم سـل ما ترجيـه
فنـال ما نـال وانقضت جموعهم
أما النظـام فقـد دكت مبانيـه
ثعالب الشر هبت من مراقـدها
وأسدت من قـوام العـدل باقيـه
تفلت الحـكم من أيـد مدبـرة
وصـار فوضى شقيت الناس يجريه
مانوا أمانى تبكينـى وتضحكنـى
حـرية ونظـام الشـورى عاليـه
حـديثهم صخب ، أسرارهـم لجـب
لا عتل ، لا فهم أين الفج تبغيـه

فلما نشبت الثورة وهزم عرابى كان ما يهم محمد عبده هو براءته وبيان خلافه مع زعماء الثورة • فأنكر على عرابى زعامته وقدح فيها وبين أنـه خائف تنقصه الشجاعة صاحب مطامع شخصية ، درويش ملتح . لقد استبعد الامام أن يكون عرابى من طلاب الدستور لذاته بل للمحافظة على نفسه بعد حادثة قصر النيل بعد أن كان عـرابى هو الذى روج لمظاهرة عابدين وأذاع أخبارها فى الجريدة الرسمية • ويقول عنه « أما عرابى فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به فى منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغير رئيسها • فذلك مما كان يكبر على وهمه أن

يتعالى اليه • وانما الذى احاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخلاف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان من أمراء الجراكسة والمنافـرة من عثمان باشا ! ويصور الاستاذ الامام عرابى وكأنه مهووس مصاب بعقدة الاضطهاد فيقول « هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابى تمثلت له جنايته فى صور أغوال فاغرة الافواه محددة الانياب ولزمه خيالها فى يقظته ومنامه • فهو فى فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شىء يراه • يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى الا سيوفا مسـلولة أو حبالا منصوبة ، ولا يسمع من هواجس نفسه الا صيحة واحدة : الخلاص ، الخلاص ، الهرب ، الهرب ! ولم يتمثل فى مخيلته مهرب أو فى له من طلبه تشكيل لمجلس النواب على الصورة التى قدرها له فى نفسه » • بل أن عرابى فى نظر الشيخ قد استعمل الجند لتحقيق اطماعه الخاصة قائلا « استحثه الحرص على ادراك المطلب أن يفضى به الى ضباط الجيش وأن يثير فى احلامهم الضعيفة تمثيل الامانى من العزة والسلطان والصعود الى أعلى مراقى المراتب والمناصب وأن كل ذلك لا ينال الا بمجلس النواب فلكى يأمن عـرابى على وظيفته طـالب بنفى عدوه ؛ فانتهى بالبلاد الى الخراب » • يقول الشيخ « ركب بـه الجبن طريقا عمياء ، يخبط فيها خبط العشواء ، ويسوقه الرعب ، ويقوده الوهم وضعف الحكومة يمده ، والرغائب الخرقاء تساعده الى أن أودت به وبالبلاد خطيئته » (١٠) • ويصور محمد عبده فى قصيدته عصيان عرابى وتخاذله قائلا :

---

(١٠) محمود الخفيف : أحمد عرابى المفترى عليه ص ٦٥ .

وبينمـا الظـفر معقـود بوحدتهم
مـال الامير لامر كـان ينويه

واسـتدبر الجيش واستدعى لحضرته
زعيـم عسـكره يبـلو مغـازيه

فقال أقـدم فلا حـرب ولا حـرب
فليصرف الجيش فـورا لاتبقيـه

غـرابه الريب وانهـارت عـزائمـه
اذا كان جيش العـدا بالثغر ماليه

وخالف الامـر واستعصى بقـوته
وناصب الشر مولى القطر واليـه

ومحمد عبده بقصيدته هو المـروج لهذه الشائعات عن عـرابى « الدرويش » التى تلقـاها الاستعمار وذاعها من بعده اذ يقول :

وقائد الجند شـهم فى مكالمة
اشـل قلبـا اذا الهيجـا تناديه

يستطلع الـرأى والتـدبير فى حلم
من المنامات جـل الله هـاديه

مـا كـان احسـنه شـيخا بزاويـة
يغشى النسـاء بوعظ كان يمليـه

أمـا البـلاد فـواغمى لحالتهـا
لم يبق فيها سوى أمـر وتنبيـه

وقـائد الجنـد وافانـا بلحيتـه
يسيل رعبـا وثوب العـار كاسيه

وسلم السيف واستجدى بغفلته
عفوا من الحنق المعزو خديويه
تخوف الذل فاستدعى مطيته
ركضا اليه فوافاه موافيه

وبناء على طلب عباس حلمى الثانى كتب الاستاذ الامام مذكراته عن عرابى وأهداها الى مليك مصر المعظم عباس حلمى باشا الافخم ويقول فى مقدمتها « هذا متام الذاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك ، العاجز عن الايفاء بحق شكرك ، التالى فى سره وجهره لآيات حمدك ، طوقتنى احسانا لم أتأمله اذ أمرتنى أمرا ما كنت أتخيله ، أمرت أن أكتب ماشهدت وما سمعت وما علمت وما اعتقدت فى الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى عهد نهايتها .. » وقد كتبت هذه المقدمة أيام كانت صلة الامام بالخديوى طيبة فى أول الامر . فلما دب بينهما الخلاف أمسك عن اتمام تاريخ الثورة العرابية . وفى الاجزاء التى كتبها كان مرتفقا بتوفيق يتلمس له المعاذير . وبعد المنفى جمع بلنت بين عرابى ومحمد عبده بحديقة الشيخ عبيد وشهد اللقاء على فهمى . تعانق الزعيم والشيخ ولكن عرابى أغلظ للامام حين تشقق الحديث الى الثورة وحوادثها ولامه على مصانعة الخديوى فى بعض ما كتب .

وقد شارك على مبارك محمد عبده فى دين الاعتدال والتراجع فقد كان على مبارك أحد أعضاء الوفد الذى أرسلته الجمعية العمومية الى الاسكندرية عقب اجتماعها الاول . ولكن الخديوى عاد وأرسله ويقترح معه تأليف لجنة صلح خديعة منه لعرابى . وكان جزاؤه اسناد وزارة الاشغال اليه بعد اقالة وزارة راغب اثناء الحرب . أما

الاخرون مثل الشيخ الامبابى والشيخ درويش التركى وسلطان باشا وربما أديب أسحق (على ماذكر عرابى فى مذكراته) فانهم كانوا بين دين الاعتدال والتراجع ودين الخيانة والاستسلام والعجيب أن يدين محمد عبده سلطان باشا وهو المشارك معه فى نفس الدين ، دين الاعتــدال والتراجع ويذكر آية « يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا • ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا • لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا » •

٥ — دين الخيانة والاستسلام :

وكان يمثل هذا الدين بعض مشايخ الازهــر مثل الشيخ العباسى والشيخ الامبابى والشيخ الابيــارى وبعض علمائه مثـــل الشيخ حمزة فتح الله ، وبلغ الذروة فى الفتوى التى استصدرها الانجليز من السلطان بعصيان عرابى •

كان من مطالب الجند فى مظاهرة عابدين عزل الشيخ العباسى فتم عزله ولكن بعد هزيمة عرابى أعادة توفيق شيخا للجامع الأزهر بعــد اقالة الشيخ الامبابى علاوة على منصب الإفتاء . مع أن الشيخ الامبابى بعد أن أرسل برقية الى بلنت ينبئه فيها بوحدة الامة عاد وتبرأ منها وأنكرها • لذلك استثنى درويش باشا رسول السلطان من غضبته على مشايخ الثورة الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر والشيخ العباسى والشيخ البحراوى والشيخ السادات الذين آثروا الانحياز للخديوى • وقد تمارض الشيخ الامبابى شيخ الاسلام كيلا يخرج فى حضور درويش بين الخديوى والحزب الوطنى • وقد البسه درويش الحلــة العثمانية له ولبعض العلماء الذين لم يقفوا بجانب عرابى جزاء لهم •

وقد بلغ ذروة دين الخيانة والاستسلام عندما طلب الانجليز من السلطان اصدار فتوى لعصيان عرابى فيذهب بذلك ما جاءه من مكانة فى نفوس الناس من ناحية أنه المدافع عن حقوق أمير المؤمنين • وقد ظفر الانجليز بالفتوى المكونة من ثمانى نقـاط ، وتنص الثامنة فيها على ، « أن معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الاشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية » (١١) وفيها أيضا « وان تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابى باشا ورفاقه واعوانه يكون بصفة أنهم عصاة ، ويتعين على سكان الاقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الاعظم أن يطيعوا أوامر الخديوى المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة ، وكل من خالف هذه الاوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة • وأرسلت منها مئات الالوف من النسخ الى الهند والافغان والحجاز والعراق والترك ومصر والمغرب الاقصى وجميع بلاد الاسلام بواسطة أبو سلطان باشا • وقد أحدثت هذه الفتوى بالعصيان فعلها فى التواد والجنود على السـواء • فتذمر بعض أمراء العسكرية وقالوا بأنهم اذن عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الخديوية وابنه ابراهيم ، ومن مات منهم مات عاصيا لا اجر لـه مثل الذين ماتوا من المصريين فى الدولة العلية •. فنصحهم عرابى بأن هذا المنشور مخالف لاحكام الدين الاسلامى لانهم يقاتلون أعداء المسلمين الذين يريدون الاستيلاء على البلاد الأسلامية وأن الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب عليهم وأن سلطان المسلمين لا يسمح بمثل هذا المنشور وانما هو دسيسة انجليزى تمكنوا من انفاذها بواسطة

---

(١١) أحمد عرابى : كشف الستار ج ١ ص ١٨ .

الرشوة . ولو فرض صدور مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته أحكام الدين . الا أن تلك النصائح لم تؤثر فى الذين يجهلون أحكام الدين ، ولكنهم أظهروا قبول ما أوضحه عرابى لهم وأسروا الغدر والخيانة والحساب على الله (١٢) . وقد أثرت هذه الفتوى فى نفوس الجند الذين كانوا يعتقدون أن جهادهم كان وطنيا دينيا فى وقت واحد . فهم جند مصر وجند السلطان خليفة المسلمين الذى يعتدى الانكليز الكفرة على حقوقه . وبمجرد صدور الفتوى أبرق عرابى الى السلطان ليعبر عن ولائه له وللخلافة وأنه وقد حمل حملا على الحرب يمتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من خير وأنه لا يصدق ما يؤكده اعـداء وطنه ودينه من أنه سيجد فرقا عثمانية فى طريقة فان ذلك سيضعه أمام الضرورة القاسية التى تجعله يعامل أخوانه فى الدين معاملة الاعداء. والحقيقة أن السلطان كان راغبا عن هذا القرار لما يكون له من أسوأ الاثر فى العالم الاسلامى ولانه كان على يقين من أن عرابى أنما يدافع عن حقوقه فى مصر . وأراد السلطان أن يظهر شيئا من الغضب فمنع ارسال عدد من البغال كانت انجلترا قد اشترتها لحملتها فى مصر . ولكن بعد اجتماع دوفرين به تراجع السلطان . ثم حاول السلطان عمـل قرار آخر يقوم على النصح لعرابى ومناشدته ولائه مناشدة أخوية فغضب دوفرين ، وصدر القرار ، وتنصلت انجلترا من مؤتمر الآستانة بحجة أن القرار لم يكن فى الصيغة المطلوبة . كما أصدر الخديوى بيانا للامة يبين فيها أن نيـة الامة الانكليزية ظاهرا وباطنا هو الاصلاح

---

(١٢) محمـود الخفيف : احمـد عرابى ، الزعيم المفترى عليـه ص ٤٢٨ — ٢٤٩ .

وأنه لا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد ولا على الفتك بأهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يزيف العصـاة — حسب قول الخديوى — تنفيرا منهم العامة وتبغيضا لهم فى الامة الانكليزية على حسن مقاصدها ! ولا يزال « العاصون » على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال الى زيادة الخراب حتى اعتبرتهم السلطة السنية عصاة مخالفين للاحكام الشرعية . فمن أطاعه استوجب رضا الله ورضاه • ومن أبى وخالف وركب رأسه فقد عرض نفسه الى التهلكة التى نهى الله عنها وتحقق الخديوى أنه من العصبة الباغية ، أمرهم كأمرهم ! •

وقد آثر مهندس الثورة العرابية وبانى استحكاماتها محمود فهمى الوقوع فى الاسر لشدة ما هاله من منشور السلطان بعصيان عرابى • وفى ليلة التل الكبير ، كان عرابى يؤدى صلاة الفجر عندما سمع صوت المدافع • وفى المعركة لم يكن هناك الا الاهالى المتطوعون مع الشيخ محمد عبد الجواد وأخيه الشيخ أحمد عبد الجواد • ولما امتنع الجند عن القتال بعد ما قرأوا منشور « الجوائب » بالعصيان ذكرهم عرابى بحماية الدين والعرض والشرف والوطن • ولكن ذلك لم يجد نفعا بـل تفرقوا فرارا • ومهما أراد منعهم من الفرار وحرضهم على الثبـات والصبر على قتال العدو وذكرهم بالشرف الاسلامى والعرض والوطن فانهم كانوا يلقون بأنفسهم فى الترعة !

ودخل توفيق العاصمة مع الانجليز ومعه سلطان باشا ورياض باشا وكبار المصريين من العلماء ورجال الدولة والاعيان • وتقـدم الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى من يدى الخديوى ودعا له بالتأييد والنصر مع ترديد الحاضرين لدعـائه • وأعطى السلطان النياشين للخونة التى كان مقررا أن تعطى لعرابى • وأول من حظى بالمثول

محمد سلطان باشا رئيس الحزب الوطنى السابق والذى لقب يوما بأبى المصريين فأصبح من أعوان الخديوى والانجليز وأخـذه جزاءه عملات ذهبية مزيفة محشوة بالرصاص • لقد كـان سلطان من قبـل يدعو الى الروية أى عـدم اسقاط الوزارة مثل محمد عبده بعـد أستحكام الازمة بين وزارة البارودى والخديوى أثر نزع رتبة عثمان رفقى ودعوة المجلس دون اذن من الخديـوى . ولكن يبدو أن ديـن الاعتدال والتراجع قد تحول الى دين الخيانة والاستسلام عند البعض كما تحول من قبل الى دين الثورة والمقاومة أثر تقدم انجلترا وفرنسا بمذكرة تتعهد بالسلطان والخديوى ضد الحركة الوطنية مما جعـل المعتدلين من الوطنيين ينضمون الى العسكريين •

ولكن الشيخ حمزة فتح الله هو الذى انبرى لتوثيق دين الخيانة والاستسلام مستشهدا بالقرآن والسنة ! فيقول عرابى « من الاقوال المأثورة ما روى عن النبى (ص) أنه قال : لاتعلموا أولاد السفلة العلم » وهو قول حكيم ، لانهم يتخذون العلم ذريعة لتضليل العـامة وآلة للتلبيس على الناس • ينصرون الباطل على الحق ابتغاء حطام يسير أو ابتسامة أمير ، أضلهم الله على علم فهم لايهتدون » • وهـو مقال الشيخ حمزة فتح الله الذى كان حائكا ثم تعلم ثم ترك العـلم وانقطع لفن الصحافة وأنشأ جريدة البرهان • وقد ذهب مع الخديوى الى الاسكندرية وتحـيز للانجليز ، وكتب مقالة مفتراة فى جـريدة « الاعتدال » متضمنة الاكاذيب والمفتريات قال فيها « ربنا لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا • عباد الله لستم تجهلون أننى طالما ناديت فى جريدة البرهان بأن لا سبيل لنجاح الامة الاسلامية سوى أقامة الدين المبنى على مكارم الاخلاق • والذى من مقتضياته حسن المعاملة ، والرفق

بالذميين والمستأمنين والمعاهدين والمصلحين ، وهم الاقسام الاربعة التى أن جميع الاجانب فى البلاد الإسلامية لم تخرج عنها ومن مقتضياته أيضا ما يستطاع من القوة ومن رباط الخيل ، وأنه لا ريب فى أنه يدخل فى القوة المدافع وغيرها من أنواع العدد الحربية الجديدة المناسبة لكل زمان ومكان ، وكذا جمع مايتصور العقل أن فيه نكاية للخصم • غير أنه لسوء الحظ كانت تلك الآية الكريمة الآمرة باعداد ماذكر انما نزلت على خصوص الاجانب فعملوا بها دوننا ، ورفضناها نحن كغيرها من شعائر ديننا وحدود ربنا تبارك وتعالى حتى بلغ من تضلع البغاة الجهال من الفنون الحربية ، وخبرتهم بطرق النكاية للعدو أن يقابلوا الآلات الانجليزية الحديثة العهد المصنوعة منذ أشهر وأسابيع بآلات عتيقة مضى عليها من الاجيال ما أكلها به الصدأ • فأواه ثم أواه •• . (ويعلق عرابى « ولكن هو الجهل حتى ينبح الكلب مولاه ») فلو أننا فرضنا المستحيل من كون هذه الحرب دينية والحالة هذه وانما بأمر الخليفة الاعظم أو نائبه الخديوى الاكرم توجب شرعا مخالفة أمرها بها لانها حينئذ عبارة عن المخاطرة بالبلاد والعباد • (ويعلق عرابى : يريد الشيخ تسليم البلاد للعدو بلا قتال) ويستمر الشيخ « وقد نهانا الله تعالى أن نلقى بأيدينا الى التهلكة • وكيف وهذه الحرب كما قدمنا شيطانية ناشئة عن حب الذات والمصلحة الشخصية ، وعن الجنون الذى أتى به الآن عرابى تخلصا من سوء العاقبة • وان كانت أفعاله كلها جنونا محضا من البداية للنهاية • على أن الحروب الدينية المرضية فى الحقيقة لله ورسوله لا تحتم نصر أربابها اذ لا يجب على الله تعالى شىء وتلك سنته عز وجل فى المرسلين والانبياء أن تكون الحرب بينهم وبين أعدائهم سجالا أى تارة لهم وتارة عليهم وان كانت العاقبة لهم بلا ريب • وذلك لتقتدى الامم بأعمالهم فيبنون المسببات على الاسباب لان للشرائع السماوية خصوصا الشريعة

المحمدية المطهرة تشوقا زائدا لذلك أى لابتناء المسببات على أسبابها حرصا على الأمة أن تغلق باب الاسباب فيختل نظام هذا الوجود ويبطل العمران وأن كان الكل بيد الله وهو خلقكم وما تعملون . فأما الآن قد سد باب الخوارق والمعجزات اذ قد ختمت النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأما الكرامة فلم ينصر بها الحسين عليه السلام ولا غيره من البضعة المقدسة مع الاجماع على كونهم على الحق . ولعل عرابى يزعم أنه أكرم على الله من الحسين وحزبه ! ويا عجبا لهذا الجاهل كيف خاطر بدماء المسلمين واعراضهم وبلادهم (ويعلق عرابى : جهل الشيخ أن الحرب شرعية واجبة أقر بها مجلس عال تحت رئاسة الخديوى توفيق باشا ودرويش باشا المندوب السلطانى فلا لوم على الجاهلين) استنادا على خرافات المنام واضغاث الاحلام . فاستمال بذلك عقول الجهال ، وفتح باب الحرب مع الاجانب بعد شدة نهى الخليفة الاعظم ونائبه الخديوى الاكبر عنها ، ومع أنه ليس لديه من القوة سوى ماينشره من الاكاذيب . أنك يا عرابى لما وقعت فى يدك ويد جهالك الآلات الحربية وصرتم نفس القوة التى من شأنها أن تكون عونا للحكام على تثبيت النظام وردع الاشرار وليس للحكومة اذ ذاك قوة أخرى تكسر بها شوكتكم امتلات نفسك الخبيثة بالشرور ، فطمعت فى المستحيل وما ليس اليك سبيل ، واستعملت أنت وحزبك للحصول على ذلك الوسائل ولكنهم صاروا بعناية التوفيق كلما أوقدوا نارا لهذه الحرب أطفأها الله (ويعلق عرابى : اشرك الشيخ الضال وحرف الآية الكريمة لغير معناها) . باع دنياه وآخرته بثمن بخس . لا رعى الله الغنى من سبيل الخيانة والتزلف ، وحبذا الفقر مع الامانة والقناعة ، حتى اذا أغلقت فى وجوههم المطالب عمدوا الى وسيلة أخرى الا وهى اتهام الجراكسة الكرام ظلما وعدوانا بالمؤامرة على

الفتك بعرابى فصار هو الخصم والحكم واكراههم بانواع العـذاب على الاقرار بما نسب اليهم وبأن لهم فيه شركاءهم فلان وفلان لجملة من الاعيان والعائلة الكريمة الخديوية • بحيث أن سير الجهادية فى تحقيق هذه القضية كان يشبه سير الوحوش فى البرية لان تلك المؤامرة لو ثبتت على الجراكسة ولم تكن بقصد الفتك بعرابى بل كانت بقصد الفتك بامبراطور مثلا بالنسبة للامور الدنيوية أو نبى مرسل بالنسبة للامور الدينية لكان تحقيقها أخف من ذلك التحقيق ، وأراك يا عـرابى لو أصبت يوم ضرب الاسكندرية زورقا للانجليز فضلا عن سفينة مما زعمته أحزابك لكبرت نفسك عن دعوى النبوة فكنت تدعى الالوهية ولا تعدم من يؤمن بك من الجهال ! نعم أنك قد اكتسبت الشهرة الفاسدة بأعمالك غير أن لك فى ذلك أمثالا كثيرين منهم ابليس اللعين وعاقر الناقة الذى هو أشقى الاولين وابن ملجم أشقى الآخرين • فان كان فى شهرة هؤلاء شرف لهم فأنت أيضا كذلك(١٣) •

وكذلك تحيز للشيخ حمزة شاعر المتحيزين الى الاعداء وصنيعة المستبدين مصطفى باشا صبحى البوشناقى • قال فى مطلع قصيدته التى سماها « صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال » :

تبين عقبـــى غيـه كـل معتدى

وامسى العرابى وهو بالذل مرتـدى

وكذلك فعل اثنان من مرتزقة الادباء : أديب اسحق اللبنـــانى

---

(١٣) أحمد عرابى : كشف الستار ج ١ ص ٢٠٥ — ٢١٠ .

طمعا فى الاستجداء وهو تلميذ الافغانى النجيب المدافع عن الوطنية والحرية والدستور • وقدرى بك الشامى الذى كان مع درويش باشا حتى لا يرجع الى بلاده خاوى الوفاض • وكذلك بشارة تقلا صاحب جريدة الاهرام الذى ظنه عرابى معه قبل الثورة فاذا به يزوره فى سجنه شامتا ويقول : « أى عرابى ماذا صنعت ؟ وماذا حل بك ؟ » • ولم يرد عليه عرابى لانه ذو وجهين • وكذلك شاعر الامراء أحمد شوقى بقوله

صغار فى الذهاب وفى الآيـــاب   أهذا كل شأنك يا عرابى ؟

ويرى عرابى أن الشعراء يتبعهم الغاوون • فقد كان بعض الشعراء وعلى رأسهم الشيخ على الليثى يؤيدون النهضة المصرية ويترنمون بها ويحثون الناس على نصرتها والتمسك بمساعدة الجيش المصرى • وقد جاء الشيخ على الليثى الى خط النار فى كفر الدوار وقام فى طائفة من العلماء ومشايخ الطرق يدعو الله بالنصر لعرابى وهم يؤمنون عليه ويقول فى دعائه : اللهم أشدد وطأتك عليهم وأنزل بهم بأسك الذى لا ترده عن القوم المجرمين • اللهم أنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من كل شىء قدير • ثم جاء الشيخ بعد هزيمة الجيش المصرى ودخول الانجليز مصر يعتذر للخديوى عن نفسه وأمثاله بقصيدة قال فيها ستين بيتا وكلها مدح وتملق للخديوى توفيق منها :

من رآه يقــــول توفيق مصـــــر

أبصر النـــاس بالامـــور وأعــــدل

مالنـــا كلنـــا ســوى القــل منـــا

قــد ســلكنا ســبيل غــاو مضـــل

ياترى من يقوم عنا بعذر
اذا أطعنا الغواة فى كل محفل
يا عظيم الجناب ، يا خير ملك
سعده قد أباد من تقول :

وقد نسج على منواله الشيخ عبد الرحمن الابيارى قاضى الاسكندرية والشيخ محمد بسيونى يقولون بأفواهم ما ليس فى قلوبهم حبا فى الحياة وخوفا من بطش الغالبين • وعبد الله باشا فكرى الذى فكر فى قتل الخديوى مرة تقدم بتصيدة يتنصل فيها من كل ما نسب اليه ويطلب رضاه منها :

مليكى ومولاى العزيز وسيدي
ومن ارتجى آلاء معروفة العمرا
لئن كان أقوام على تقولوا
بأمر فقد جاءوا بقولهم نكرا
حلفت بما بين الحطيم وزمزم
وبالباب والميزاب والكعبة الغرا
ولكن محتوم المقادير قد جرى
بما الله فى أم الكتاب له أجرى (١٤)

فعفا عنه الخديوى وأرجع اليه معاشه وأطيانه • ولذلك كانت من

---

(١٤) أحمد عرابى : كشف الستار ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

ضمن الاصلاحات التى اقترحت على عرابى (وقد كان ذلك لسوء الحظ من اللورد دوفرين) انتخاب مشايخ البلاد بمعرفة الاهالى من الذين اشتهروا بالعفاف وحسن المعاملة حيث أن كثيرا من المشايخ الموجودين طبعوا على سلب أموال الاهالى ليدلوا بها الى الحكام فى سبيل ترقيتهم واعتبارهم •

ثالثا : الثورة نهاية الدين وغايته :

كما أن الدين هو بداية الثورة ومنطلقها فان الثورة أيضا هى نهاية الدين وغايته • فالدين يشعل الثورة ، والثورة تكون الصورة الجديدة للدين • الدين هو المنبع والثورة هى المصب • فالدين هو البداية والثورة هى النهاية •

وتكون العلاقة بين الدين والثورة أيضا علاقة منهجية • فبينما يكون الدين مستنبطا من النصوص الدينية من أعلى الى أدنى تكون الثورة مستقراة من الواقع من أدنى الى أعلى • وفى هذه الحالة يكون الدين هو الغرض العلمى الذى تحققه الثورة وتجد صدقه فى الواقع • ويخضع المنهج الاستنباطى الأولى لانتقاء النصوص طبقا للمصلحة الشخصية للمفسر أو يؤول النصوص المعارضة له • بينما يخضع المنهج الثاني لوضع المفسر واختياره احدى قوى الصراع دون الاخري •

وقد ظهرت الثورة عند عرابى فى الوطنية ومقاومة الاجنبى الدخيل أو المحتل وفى الحرية والدستور والشورى والمجالس النيابية باسم الامة فلاحيها وجيشها وأعيانها ووجهائها • ولولا هذا الاختيار الوطنى لما أمكن للدين أن يتحول الى ثورة أو أن تكون الثورة المصب النهائى للدين •

١ ـ الوطنيـــة :

كان أهم ما يميز الثورة العرابية أنها ثورة وطنية وأن رجالها هم رجال الحزب الوطنى وأن عرابى قد أخذ لقب زعيم الحزب الوطنى • وقد لاحظ بلنت ذلك بقوله أنه لم يلاحظ فى حديث عرابى كما هو الحال عنــد مدحت باشا حديثا عن الســكك الحديدية والترام والعمران بل حديثا عن النهضة القومية • وقد كانت الوطنية هى سبب حسن العلاقة بين عرابى وسعيد • فقد كان كلاهما يحب المصريين • وقــد كانت خطبة سعيد فى أحد المحافل فى رأى عرابى أول حجارة فى الحزب الوطنى وشعاره « مصر للمصريين » • وقد قال سعيد فى هذه الخطبة ما يذكره عرابى على النحو الآتى « أيها الاخوان ، انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مستعبدا لغيره من أمم الارض • فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والاشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام • بعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالامويين والعباسيين والفاطميين من العــرب ومن التــرك والاكــراد والشركس • وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائــل هــذا القرن فى زمن بونابرت • وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لان يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعــة ويستغنى بنفسه عن الاجانب • وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل »(١٦) •
عمل عرابى مع الحركة الوطنية التى كان محورها منزل الســيد البكرى نقيب الاشراف • وقد كان رجالها من الناقمين على رياض ، يجتمعون فى أواخر عهد اسماعيل ثم اجتمعوا سرا بعــد ذلك فى حلوان هربا

من العيون . وتألف منهم حزب سمى جمعية حلوان ثم صار يعرف بالحزب الوطنى . وكان من أبرز رجاله محمد سلطان الذى خان وسليمان أباظة مدير الشرقية وحسن الشريعى مدير المنيا ، ومحمد شريف واسماعيل راغب وعمر لطفى (الذى دبر حريق الاسكندرية بالتعاون مع الخديوى) . وقد نشروا فى أواخر ١٨٧٩ أول بيان سياسى طبعوا منه آلاف النسخ ووزعوه على الناس . وقد أوفد الحزب أديب اسحق الى أوربا ليدافع عن مبادىء الوطنيين . فأنشأ فى باريس جريدة القاهرة بعد أن عطل له رياض مصر والتجارة ، مدافعا عن الدستور كقاعدة للحكم والمبادىء الحرة وعاملا على منع الاجانب من التدخل فى شئون البلاد سياسيا وماليا . أصبح عرابى محور هذه الحركة ، وكانت تهتف له فى ميدان محطة مصر وهو فى طريقه الى رأس الوادى بعد مظاهرة عابدين . وخطب عرابى فيهم قائلا « أنا أخوكم فى الوطنية ، وهأنذا واقف بين الاهل والخلان وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها » . وكان السيد حسن موسى العقاد قد نفى من قبل الى السودان لانتقاده قانون المقابلة . وكذلك تم تجريد الفريق شاهين باشا الوزير السابق من رتبه وألقابه لاتهامه بالاتصال بالوطنيين ، ونفى أحمد فتحى الى السودان للعريضة التى كتبها بالمطالب الوطنية . بدأ رجال الحزب الوطنى يخطبون ود عرابى ، وبدت الامة كلها ملتفة حوله . وقد بعث بلنت الى بطرس باشا وأبى يوسف ومحمود الفلكى والشيخ محمد عبده والشيخ المهجرسى وعبد الله النديم رسالة يقول فيها « هل الحزب الوطنى فى جانب عرابى الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعى ذلك . اذا اختلفتم ضمنتكم أوربا » . وقد تلقى بلنت برقية من الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر ، شيخ

الاسلام بأن الخلاف قد سوى بين الوزارة والخديوى وأن الحـزب الوطنى راض عن عرابى ، وأن الامة والجيش متحدان •

وقد لخص عرابى المطالب الوطنية فى العريضة التى كتبها مـع الضباط (بعد عزل عثمان رفقى ناظر الجهادية الشركسى أحمد عبد الغفار وعبد العال حلمى ووضع شركسين مكانهما •• شاكر طمازة وخورشيد نعمان) وتقديمها الى رياض باشا شاكين تعصب عثمان رفقى لجنسه واجحافه بحقوق الوطنيين • فقد ظن الشراكسة انهم يملكون مصر ، كما ملكها المماليك من قبل • وفى هذه العريضة يطلب عرابى أربعة مطالب:

١ ــ عزل ناظر الجهادية وتعيين غيره من أبنـاء الوطن عمـلا بالقـوانين •

٢ ــ تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامـة تنفيذا للامر الخديوى الصادر عقب ارتقائه مسند الخديوية •

٣ ــ ابلاغ الجيش العامل ١٨٫٠٠٠ تطبيقا للفرمان السلطانى •

٤ ــ تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للعمل والمساواة بين جميع الموظفين بصرف النظر عن اختلاف الاجناس والمذاهب •

وهى نفس الاصلاحات التى ظل يطالب بها عرابى حتى قبل المنفى والتى حدث فيها بلنت وهى :

١ ــ ضرورة وجود مجلس نواب تام السلطة على أساس الانتخاب كما هو الحال فى الامم المتمدنة مسئولة أمام الوزراء ، وينعقد لمـدة محدودة لا تنقص عن خمس سنوات •

٢ — ضرورة المساواة بين المصريين فى المعاملة وفى الضرائب ٠

٣ — الغـاء السخرة بحيث يؤجر النـاس على ما يؤدون من أعمال لان حياة الفقير توقف على عمله اليومى ٠

٤ — الغاء الربا فى القرى ٠

٥ — وضع قانون عادل يطبق فى المحاكم ولا يعتدى عليه أحد ٠

٦ — أن تكون الوظائف فى الدولة للوطنيين جميعا على أساس الاهلية والاستعداد ٠

ويختتم عرابى حديثه مع بلنت انه اذا وافقت انجلترا على هذه المطالب فانه لا يبالى بالنفى أو بأى شىء آخر يخبؤه له القدر ٠

وقد كانت الحركة الوطنية المصرية بقيادة الحزب الوطنى وعلى رأسه عرابى موجهة ضد أعداد الامـة المصرية الخديوى والانجليز وأوربا والاستعمار بوجه عـام ٠ فقد انحاز الخديوى الى الانجليز ٠ وعندما سأله أحد الميرالات عن مصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز فهز كتفه وقال ستين سنة ! ولما قال الضابط ان السكان سيحرقونها وطالبه بالتوسط لدى الاميرال ومخاطبة محافظ المدينة قال الخديوى : « فلتحرق المدينة جميعها ، ولا يبقى فيها طوبة على طـوبة ، حـرب بحرب ، كـل ذلك يقع على رأس عـرابى وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيذوق الاوربيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب فى مواجهة الواطنيين » ٠ ولقد دافع الخديوى عن الانجليز ، وأصدر بيانه مؤيدا فتوى السلطان بعصيان عرابى مبينا أن غرض الانجليز ليس

الاستيلاء على البلاد والفتك بأهلها لعداوة دينية كما يذيعـه العصاة تنفيرا منهم للعامة وتبغيضا لهم للامة الانجليزية على حسن مقاصدها .

وكانت أوربا كلها وفى مقدمتها انجلترا ضـد الحركة الوطنية . فقد اعتبرت انجلترا واقعـة التل الكبير انتصارا لاوربا . فلو أن الجيش الانجليزى هزم فيها لكـان ذلك كارثة على جميع الدول التى يقلقها التعصب الاسلامى كما قال جرانفيل . لقـد كـانت صـحف أوربا تسخر من ثورة مصر . وقد أصيبت الحركة الوطنية بخيبـة أمـل كبيرة فى أوربا التى طالما كانت نموذجا للحرية والشورى والتقدم . كيف يكون ذلك كله مضمونا داخل أوربا ويكون مرفوضا خارجها تتنكر له أوربا عندما تحاول غيرها من الشعوب اللحاق بها . وكمـا يقـول بيرون « لا تثق فى طلب الحرية بالفرنجة » . وتعبر مذكرة عـرابى الى محاميه عن خيبة الامل هذه أصدق تعبير . فقـد كـان حلم مصر الاعتماد على حكومة الانجليز وهى أمة عظيمة مشهورة بالعـدل ومحبة الانسانية ومحررة الرقاب من الاستعباد . فكانت مصر سـيئة البخت ، ولطالما دافعت عنها اطماع الطامعين . كانت مصر تعتقـد اعتقـادا جازما بأنه لايأخذ بيدها وينشلها من نير الاستبداد والاستعباد ويوصلها الى بحبوحة الحرية الا حكومة الانجليز . ويقـول عرابى فى مكـان آخر « الحرب العـوان ، ومـا أدراك ما الحـرب العوان ؟ هى حرب الانجليز الامة التى فيها نصراء الانسـانية ، الامة المحامية عـن المظلومين ، الامة المحررة لرقاب العباد المستعبدين ، الامة المحافظة على اتباع الحق والقوانين . مع من ؟ مع مصر ! البلاد التى لا ينـكر أحـد ما فيه أهلها من الاستعباد ، وماتجرعوه من غصص الاستبداد ، البلاد التى طالما سفكت دماء أهلها بغير وجـه شرعى ، وبغت وتفننت فى

أنـواع المظالم ، البـلاد التى لا يعتبـر حكامها شرعـا ولا قانونا ، البلاد التى عبدت حكامها من دون رب العالمين ، البلاد التى كـانت تظن أن لامنقذ لها من جب الظالمين ، ولا موصلها الى فضـاء الانسانية الا دولة انجلترا الشفوقة على النـوع الانسانى فخاب أهلها ، وبعد أن قربت أبناءها من فم ذلك الجب ، وظنوا أنهم ناجون اذ جاءهم الحرث الانجليزى فأوقع القبض على من خرج من الجب والقاه فى قراره لتنهشه الافاعى خلافا لما هو معهود فى رجال الانجليز من الشفقة والرأفة على النوع الانسانى » • كما استسلم عرابى فى النهاية بعـد المداولـة والتيقن بأن دولة الانجليز لا تريد الاستيلاء على مصر ! وبالتالى فـلا لزوم للدفاع اعتمادا على أن دولة انجلترا موصوفة بحب الانسانيـة والاعتـدال فى كل أمر ، وأنها متى تحققت الامـر ووقفت على أفكار أهل البلاد لا شـك أنها تسعى فيما يوجب تحريرهم وراحتهم وحفظهم، اعتمادا على شرف دولة الانجليز ، وحرصا على حفظ البلاد من الدمار • ويقول عرابى فى نهاية مذكرته لمحاميه « سلمنا سيوفنا الى ذمة انجلترا وشرفها • فصوت أولادنا وصـوت الانسـانية يطالبـون انجلتـرا وكل انجليزى بحقوقنا ••• ولكن حرصا على البلاد ، وحقنا للدماء ، واعتمادا على شرف انجلترا وأنها لا تـريد الاستيلاء على البلاد المصرية قد أبطلنا المدافعة وسلمنا أنفسنا لذمتكم وشرفكم » • ويوجه نداء أخيرا قائلا : فيا حضرات المحامين عن ذوى الشرف ••• ويا حضرت نصراء الانسانية والمحامين عن الحق بأنفسهم وبأموالهم من غير أن تأخذه فيه لومة لائم ••• المحافظين على شرف الانسانية بانجلترا هـذه هـى الحوادث على قصد من الحق والانصاف بدون شك فيها ولا ريب ، وليس بعد الحق الا الضلال المبين •

وقد كانت الثورة العرابية تدرك أن مصر قلب الشرق وأن تحرر مصر هو تحرر للشرق .

وقد كان الشرقيون مرادفين للمصريين أو المسلمين كما كانت الجامعة الاسلامية والجامعة الشرقية عند الافغانى مترادفين . الشرق فى مواجهة الغرب نظرا للصورة المزرية التى كانت للشرق فى ذهن الاوربيين مما يدل على عنصريتهم وعنجهيتهم وأنانيتهم واستعمارهم . فقد اتهم الانجليز شعوب الشرق باقسى التهم . كان الاوربيون جميعا ناقمين على الشرق ، مصر الحضارات ، وكان قادتهم مثل جلادستون يزعمون أنهم يريدون الاخذ بيد الشرقيين لينهضوا من سباتهم وتعليمهم مبادىء الحرية والشورى والحياة النيابية ! لان الشرقيين لا يصلحون أنفسهم بأنفسهم . وكان اللورد شالز بسفورد يقول « عجبا لعرابى ! لا ينهض مصلح من الشرق الا نادرا ! » . وقد كتب أحد معاونى مالت تقريرا يقول فيه : « أن الحاكم الشرقى اذا حرم كرباجه وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية » . والحقيقة أن هذا الهدف التمدنى كان مجرد دعاية للغرب يخفى وراءه النية الحقيقة وهى الاستعمار والسيطرة على مقدرات الشعوب غير الاوربية ومواردها وثرواتها . اذ يستمر هذا التقرير قائلا أن الطريق الذى سارت فيه الحركة (الوطنية) منذ عام جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة الى ما يسمونه له حرية فى حين أن ما اكتسبته هذه الحركة من قوة جديدة باسلام أزمة الامور الى طائفة من الخياليين النظريين جعل أثرها فى السلطة على وجه العموم أثر الماء نصبه على قطعة من السكر » . وكان جمبتا شديد العداء لمصر بل ومن أشد أعداء الاسلام قاطبة . وكان هذا اليهودى على

صلة برجال المـــال من الدائنين . وكان يحيط به فى باريس دبفرز ولسون ونوبار يوحيان اليــه بما يريان . وكان بطبعه يميل الى القوة فى كل مايتعلق بالشرق والشرقيين . وكانت سياسته قد صبغت بالصبغة الدينية وكراهيتة للمسلمين أن ينهضوا وتقوى بينهم أواصر الاخـــاء فيكونون بذلك حائلا بين فرنسا وأطماعها فى الشرق . وقـــد استغل الاوربيـــون فى ذلك دينهم واستشراقهم وقساوستهم كوسائل لتحقيق أغراضهم . وكان الادميرال سيمور قائد الحملة قد أبرق الى حكومته بأن عرابى يجمع السلاح ويعلن أن النبى يوحى اليه كل ليلة وأنه سوف يضع الاسطولين فى فخ وذلك بسد البوغار بالاحجار .

وفى الحملة الحبشية والكارثة التى وقع فيها جيش مصر ، اتهم لورنج القائد الامريكى بالخيانة اذ كان يتصل عن طريق أحد القساوسة بالاحباش ليطلعهم على كل شىء . كما استدعت الادميرالية البريطانية أدوارد بالمر أستاذ اللغات الشرقية بجامعة كمبردج لاداء عمل الخيانه والاتصال بالاعراب لمعرفته باللغة العربية وبالمنطقة . فقد كان من قبل عضوا فى جمعية اكتشاف فلسطين . وكانت مهمته ضمان البدو شرقى القناة الى جانب الجيش البريطانى والاستفادة من قابليتهم للرشوة . وقد أتى الى الاسكندرية وتشاور مع سيمور فذهب الى يافا متنكرا فى زى عربى ثم الى غزة . واتصل بقبيلتى الطياحة والطرابين . ثم ذهب الى يافا فى زورق بريطانى عليه علم بريطانى ثم أتى الى السويس متنكرا فى زى عربى وتظاهر أنه أحـــد تجار الابل ا واشترك مع الجنود البريطانيين فى السويس . ثم ذهب الى الصحراء ليقطع اسلاك التلغراف واحراق الاعمدة لقطع وسائل الاتصال بين عرابى وتركيا . ثم التقى بالكابتن جل الذى اعطاه ٢٠٫٠٠٠ جنيه لتوزيعها على البدو . وكان قد

اتصل فى شرق القناة بأكبر مشايخ البدو سعود الطحاوى ومحمد البقلى وقد أخذ الاسمين من الخديوى • ثم لقى حتفه بعد أن استولى العربان على أموالهم وقتلوه هو وزميليه بالرصاص •

لذلك كان عبد الله النديم فى جريدة « الطائف » يهاجم البهرج الزائف الذى أخذ يلمع فى مصر والذى سماه الاوربيون مدنية يكونون منه سلاحا للدس والقضاء على استقلال البلاد • الوطنية اذن هو الاساس الذى يرتكز عليه الدين • وقد أورد عرابى فى مذكراته أن هذه الحركة سوف يقيض لها الله من يفهمها حق من الجيل القادم • وقد ضمنها ذكر جميع من فتحوا مصر وتغلبوا عليها منذ الفراعنة حتى الاحتلال البريطانى وكيف تخلصت منهم مصر جميعا • « فعلى الناشئة المصرية أن تجد وتجتهد وتعمل ليلا ونهارا على استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المسلوبة منها ، ومطالبة الانجليز بالجلاء حتى ينكشف عنها هذا البلاء • ثم اذا دعوا الامة المصرية الى التباعد من التمدن الغربى المزيف فلا نفعل المنكرات التى نهى الله عنها ، ونأمر بالمعروف الذى أمر الله به • وأن نترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأن نقيم شعائر الدين الحنيف ونحيى مناسكه • فلا عز ولا سؤدد بغير الدين • وهو وحده يكفل لمن اتبعه باخلاص هناء الدنيا وثواب الآخرة • ثم أناشدهم أن يشدوا أواصر الاخاء بين أبناء وطنهم ويخرجوا مافى قلوبهم من غل وضغينة ، ويعملوا يدا واحدة ورجلا واحدا لرفع شأن بلادهم واعزاز كلمة دينهم • فاذا فعلتم كل ما ذكرت وأرهفتم آذانكم للسمع واصختم الى نصائح من حنكته التجارب فعرف من تقلب الحدثان الطريقة المثلى والدواء الناجح واستفاد من تضارب

الاحــوال أيـــة عـــدة يجب أن يتــــذرع بهـــا ويتخــــذها مخبأ يقيه هوادى الزمان • هنالك يخرج الله أعداءكم ، ويولى عليكم خياركم والله على كل شى قدير » • وأوصى عرابى بنشر مذكراته حتـى يعلم الناس حقيقة أعماله وآرائه من خير لمصر وأن يطالبوا بحقوقهم حتى يمن الله عليهم (١٥) •

٢ ـ الحرية والدستور والمجلس النيابى :

كان اختيار عرابى ومطالبته بالدستور وبالمجالس النيابية دعامة ثانية مع الوطنية تعبر عن واقع الامة المصرية وتحميها من تأويل الدين لصالح الاستعباد والاستبداد الداخلى أو الخارجى • وقد كان الدفاع عن حرية المواطن واستقلال البلاد مبدأ دائما فى حياة عرابى قبـل الثورة وأثناء الثورة وبعد الثورة • لما طالع الكتاب الذى أهداه اليـه سعيد عن تاريخ نابليون مترجما الى العربية لم يكن ما يهمه هـــو الجيش المدرب الذى فتح به نابليون مصر فى ثلاثين ألفا كما استنتج سعيد بل « حاجة البلاد الى حكومة شورية دستورية » أى الاساس الحضارى الذى يقوم عليه التقدم المادى • وكان معجبا ببيرون نصير الحرية بالرغم من أنه كان يدافع عن حرية اليونانيين لا عن حـرية المصريين ، فالحرية مبدأ واحد وشامل لا يعرف التجزئة • ومن هنا أتت كراهيته لاستبداد الشراكسة والمصريين على السواء • وكان عـرابى يتعجب من كثرة العجائب فى الحكومات المستبدة الظالمة ومنها عـــدم مساواة المواطنين الذين يؤدون نفس العمل ولا يأخذون نفس الاجر ،

---

(١٥) لم ينس عرابى مصر وهو فى منفاه فى سرنديب فقد أرسل اليهـا أنواعا من البن اليمنى لزراعتها وكذلك أحسن أنواع المانجو والموز الاحمر والاصفر المضلع وأنواع الحبهان والقرنفل والفلا الطيبة الرائحة •

وهو ما يفسر ارتفاع مرتبات الجراكسة فى الجيش وانخفاض مرتبات الوطنيين • كانت الحرية مقرونة بالعدل فيقول عرابى ردا على خسرو الشركسى « وما بى والله من شراسة ولكنى جبلت على حب العدل والانصاف وبغض الظلم والاجحاف » • وقد بلغت ذروة دفاع عرابى عن الحرية فى مظاهرة عابدين العسكرية ومطالبا بحقوق الامة : اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب • فلما قال الخديوى « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا » قال عرابى : « لقد خلقنا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا • فوالله الذى لا اله الا هو أننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » • لم يكن عرابى من أنصار الملكية أو الخديوية بل من دعاة الشورى وحرية الرأى وحق الامة فى أقامة دستور ومجلس نيابى كامل السلطات • وقد كان ذلك معروفا عن عرابى فى أواخر عصر اسماعيل • فبعد مظاهرة الضباط فى فبراير ١٨٧٨ بزعامة البكباشى لطيف سليم عندما توجه هو ورفاقه الى وزارة المالية للمطالبة برواتبهم المتأخرة واعتدائهم على نوبار وحضور الخديوى لتفريق المتظاهرين ثم اتهام عرابى بتدبير ذلك قرر عرابى ورفاقه الاتحاد وخلع اسماعيل فتلك أفضل وسيلة لحل القضية ويوفر على البلاد ويلات أقلها حمل اسماعيل خمسة عشر مليونا من الجنيهات معه فى منفاه بعد خلعه • لم يكن هناك وقتئذ من يقود هذه الحركة أو ينفذها • ولقد عم الفرح بعد خلع إسماعيل ، ولو أمكن تنفيذ تلك الحركة بالفعل لامكن التخلص من أسرة محمد على كلها ، فلم يكن فيها حاكم صالح الا سعيد • « وكنا نستطيع أن نعلن قيام جمهورية • وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل

عند جسر قصر النيل ووافقه محمد عبده على ذلك » • وقد تضمن برنامج الحزب الوطنى ذلك نصا يقول « والمصريون يعلمون أن الصمت على حقوقهم لايخولهم الحرية فى بلاد ألف حكامها الاستبداد وكرهوا الحرية • فأن اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم الا سكوت المصريين • وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية فى هذه السنين الاخيرة شعقدوا خناصرهم على توسيع نطاق التهذيب • وهم يرجون أن يكون بواسطة مجلس شورى النواب — الذى انعقد الآن — وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة ، وبتعميم التعليم ونمو المعارف بين أفراد الامة (١٦) » •

٣ — الفلاحون هم شعب مصر :

عرابى فلاح قاد الحركة القومية ، وكان على معصمه وشم أزرق على عادة الفلاحين • وفى تلك الوقت كان لفظ فلاح قبل عرابى يعنى الجاهل الغبى الفقير القذر ، وكانت تهمة الضباط الشراكسة لجنود مصر ، وكانوا يسمونهم « فلاحين شغالة بالمتاطف » ! وكان الخديوى يسميهم « أولاد الكلب » الذى سيقع على رؤوسهم بقيادة عرابى خراب البلاد أى اهتزاز عرشه • يقول عرابى « وكانوا يطلقون علينا لفظ فلاحين اذلالا وتحقيرا وهم أهل البلاد ، هم الحزب الوطنى حقيقة » • ولكن فى الثورة العرابية ظهر الفلاحون على أنهم أصحاب البلاد والحزب الوطنى ، فاذا كان جمال الدين الافغانى قد أيقظ الغافلين فى المدن فان عرابى قد أيقظ أهل القرى • ولن تتحرك مصر الا إذا تحرك أهل القرى ، اتصل عرابى بعدد كبير من مشايخ القرى وأعيانها ، وكانوا يدعون الى

---

(١٦) الامام محمد عبده : الكتابات السياسية ص ١٦٩ .

تحرير الفلاح ، وأخذ الناس يذكرونه بقولهم « الوحيد » • وقد بدأت آراء عرابى عن نهضة مصر من خلال فلاحيها أيضا أثناء صلته بسعيد وعلى رأسها المساواة بين طبقات الامة وما يجب للفلاح من احترام باعتباره العنصر الغالب فى القومية المصرية • هذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى جعل لعرابى ميزة على مصلحى العصر • فقد كانت حركة الازهر ترمى الى اصلاح حال المسلمين عامة بغير تمييز بينما كانت حركة عرابى فى جوهرها قيامها على القومية والعنصر الوطنى الغـالب فيها وهم الفلاحون • لقد عارض عرابى أن يحفر الجنـود الرياح التوفيقى سخرة ، وكان الغاء السخرة الذى أدعاه كرومر لنفسه من المطالب الاساسية لدى عرابى ضمن مطالبه لاصلاح أحوال الفلاحين مثـل :

١ ـ ابطال السخرة التى أنزلها الاغنياء من الباشوات التـرك بالفلاحين •

٢ ـ ابطال احتكار هؤلاء الاغنياء مياه الرى عند زيادة النيل •

٣ ـ حماية الفلاحين من زبانية الربا من اليونانيين معتمدين على عيوب المحاكم المختلطة •

٤ ـ انشاء مصرف زراعى تحت اشراف الحكومة •

من حق مصر اذن تكوين حركة قومية مصرية من أبناء الفلاحين فهم مصدر كل سلطة لانهم عماد الثروة ودافعو الضرائب وهم أهل البلاد الحقيقيون •

٤ ــ الجيش الوطنــى :

اذا كان الفلاحون هم شعب مصر فان الجيش هم أبناء الفلاحين المدافعون عن حق مصر ، ومن ثم كان الجيش الوطنى هو ممثل الامــة والمدافع عن حقوق الشعب • وقد ظهر ذلك بوضوح فى الثورة العرابية ثم فى الثورة المصرية الاخيرة فى ١٩٥٢ • كان الوطنيون بزعامة شريف أولا ، وكان العسكريون بزعامة عرابى • ولكن بعد مظــاهرة عابدين العسكرية توحدت الامة شعبا وجيشا عندما ذهب عرابى الى الخديوى على رأس الجند يحمل اليه مطالب الامة والجيش معا وبالتالى أصبحت الثورة تجمع بين السيف والقلم ، والتقى الوطنيون بالعسكريين كأبناء أمة واحدة ، واتفقوا على المطالبة بالدستور كحركة قومية واحدة بلغت ذروتها فى يوم عابدين • يقول عرابى واثر « مخاوفنا على البلاد توجهنا الى الخديوى ، وذيلنا العريضة بامضائى وامضاء اخوانى على فهمى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار نيابة عن الجيش ، وأحمد أبــو مصطفى وأحمد الصباحى وعثمان فوزى وغيرهم من وجوه الامة بالنيابة عن جميع المصريين » • لقد عرض عرابى باسم الجيش والامة يــوم عابدين طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمان مستقبلها فى مظاهرة عادلة لابد منها لضمان حرية الامة وسعادتها • وقــال عرابى يؤمئذ : « جئتك يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والامة وكلها طلبــات عادلة ••• اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب ، وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها » • كما قال فى مواجهة القناصل « أن الامة قــد أنابت الجيش عنها ••• هذه هى الامة وما الجيش الا جزء منها » • وقال مخاطبا قنصل انجلترا « أعلم يا حضرة القنصل

أن طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أعمد اليها الا لانهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هـم عبارة عن اخوانهم وأولادهم • فهو القوة التى ننفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة • وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر • انهم الاهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم • وأعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ » • وعندما استفسر القنصل عن استعمال القوة أجاب عرابى : « ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا » • وعندما تساءل القنصل عن هذه القوة أجاب عرابى عما هو فاعل اذا لم تجب طلباته قال عرابى : « عند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليونا من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون اشارتى » • ولما طلب القنصل من عرابى عما هو فاعل اذا لم تجب طلباته قال عرابى : « أقول كلمة أخرى •• لا أقولها الا عند اليأس والقنوط » • وقف عرابى اذن بجيش مصر دفاعا عن حق شعب مصر ولم يتوان عن استعمال القوة اذا اقتضى الامر بل أنه كان صمم على قتل الخديوى اذا ما حاول الخديوى قتله • وقد عاب الاستعمار وأعوانه على عرابى تدخله فى شئون السياسة • وكان قد وعد شريف الا يفعل • ولكن الاستعمار أكل مصر كلها سواء تدخل عرابى فى السياسة أم لم يتدخل • وقد كان قلق الاستعمار المستمر من تدخل الجيش فى المسائل الوطنية ، وكان هم جلادستون هو مايترتب على ذلك من نتائج : وحدة الامة جيشا وشعبا فى مواجهة الاستعمار •

٥ ـ الوحـدة الوطنية :

فى اللحظات الحاسمة من تاريخ البلاد عندما يهددها الخطر

الخارجى خاصة تظهر الوحدة الوطنية فى شعب مصر ممثلة فى وجهاء الامة والتجار والاعيان والنواب والمديرين والمشايخ ، وممثلة فى وحدة شعب مصر بصرف النظر عن الدين والعقيدة وتصبح الامة ويصبح الوطن محور الثقاف الجميع ، ينتسبون اليه ويتحددون به ولاء وانتماء وهوية •

ولقد ذهبت الامة كلها وعلى رأسها عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى على رأس جمهور المصريين لالباس محمد على شارة الحكم ، الكرك والقفطان ، دون أن يرجعوا فى ذلك الى السلطان باعتبارهم ممثلين عن الامة • وقد تكرر نفس الشىء فى الثورة العرابية • فقد كان عرابى حامى حمى الامة من المظالم مؤيدا من العلماء وممثلى الامة • وقد ذهب عرابى الى شريف ليعرض عليه تأليف الوزارة ، وهدده بأنه سيطلب غيره قائلا : « ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك • ففيها بعون الله العلماء والحكماء » • وكان للحركة الوطنية فى ذلك الوقت مركزان : مجلس شورى النواب بزعامة سلطان باشا ومركز أهلى هو بيت السيد البكرى نقيب الاشراف حيث كان يلتقى الاحرار من العلماء والنواب والاعيان وضباط الجيش الناقمين على الخديوى والساخطين على الدخلاء • فلقد اجتمع أحرار النواب والعلماء والاعيان والتجار فى بيت السيد البكرى وعزموا على التوجه للخديوى بما يسمى بالائحة الوطنية معترضين على مقترحات ريفرز ولسن بشأن اعلان افلاس مصر مقررين بأن ايراد مصر كفيل بسداد ديونها ، ويطالبون الخديوى بتقرير مبدأ مسئولية الوزارة أمام المجلس وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام الوزارة الاوربية • وقد وقع عليها ستون من أعضاء المجلس ومثلهم من العلماء • كما اجتمع سلطان باشا الذى كان يمثل الاعيان مع شريف والوطنيين وعرابى وعلماء الازهر وزعماء حركة الاصلاح وزعماء النواب على ضرورة اسقاط وزارة

٨١

الدين والثورة
في مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة ت : ٧٥٦٤٢١

طبع الغلاف بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢